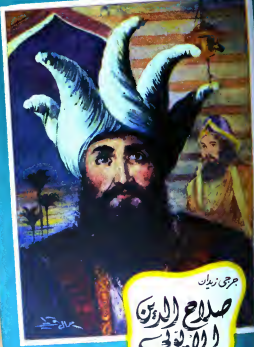
روايات تاريخ الإسلام



جرجي زيدان

صلاح الدين الأيوبي

دار الهلال

صلاح الدين الأيوبي

رواية تاريخية

تتضمن انتقال مصر من الدولة الفاطمية الى الدولة الايوبية فى أواخر القرن السادس للهجرة ، على يد السلطان صلاح الدين ، وما تخلل ذلك من المساعى .. كما تتناول وصف طائفة الاسماعيلية المعروفة بجماعة الحشاشين ، وما اشتهر عنها من غرائب الفتك والقتل

تاليف

جرجي زيدان

دار الهلال

أبطال الرواية

* **الخليفة العاضد** : آخر الخلفاء الفاطميين
* **ست الملك** : اخت العاضد
* **صلاح الدين الايوبى** : سلطان مصر
* **نجم الدين** : والد صلاح الدين
* **بهاء الدين قراقوش** : وزير صلاح الدين
* **عماد الدين** : من خاصة صلاح الدين
* **عيسى الهكارى** : من خاصة صلاح الدين
* **ابو الحسن** : محتال طامع فى الخلافة
* **نور الدين زنكى** : صاحب الشام
* **راشد الدين سنان** : زعيم الاسماعيلية (الحشاشين)

مراجع هذه الرواية

هذه هى المراجع التى اعتمد عليها المؤلف فى تاليف الرواية ووقائعها التاريخية :

* تاريخ ابن الاثير
* تاريخ التمدن الاسلامى
* تاريخ المقريزى
* حسن المحاضرة
* كتاب الروضتين
* ابن خلكان
* تاريخ الدولة السلجوقية
* الهلال مجلد ١٩
* طبقات الاطباء
* تاريخ مصر الحديث لجرجى زيدان

Burckhardt, Travels in Syria and Holy Land, London 1822

— ١ —

فذلكة تاريخية

انتهت رواية « فتـاة القيروان » بدخـول مصر فى حوزة الفاطميين أو العبيديين سنة ٣٥٨ هـ ، على يد القـائد جوهر ، وبادت دولة الأخشـيد ، وخرجت مصر بذلك من حوزة الدولة العباسـية لأنها كانت فى زمن الطولونين والاخشـيديين ، مع استقلال هاتين الدولتين بالحكومة تحت رعاية الخليفة العباسى فى بغداد . وهو يثبتهم على الامارة ، ويبعث اليهم بالخلع أو بكتاب التولية « الفرمان » مثلما كان يفعل السلطان العثمانى بأمراء مصر .. ولكن ادارة الحكومة الداخلية وسائر أعمالها كان يقوم بها الأمير الطولونى أو الاخشيدى مستقلا بدون مراجعة بغداد . وهو يشبه ما يعبَّر عنه كتاب هذا العصر بالاستقلال الادارى ، على تفاوت فى درجات ذلك الاستقلال

فلما دخلت مصر فى حوزة الفاطميين تغيَّرت حالتها السياسية ، وأصبحت دولة مستقلة بنفسها استقلالا تاما ، لا تراجع أحـدا ولا تعترف بسيادة أحد غير الخليفة الفاطمى المقيم فى القاهرة وهى أول مرَّة استقلت فيها مصر بالسـيادة بعد الاسلام .

وبقيت الخلافة العباسية فى بغداد كما كانت ، وظهرت الخلافة الأموية فى الأندلس فى بنى مروان . فأصبحت المملكة الاسلامية يتنازعها ثلاثة خلفاء ، كل منهم يزعم لنفسه الحق فى الخلافة الحقيقية وينكرها على الآخرين . وكان النزاع على أشده بين خليفة بغداد وخليفة القاهرة . وبينهما اختلاف فى المذهب أيضا ، لأن الخلافة العباسية كانت سنّية والفاطمية شيعية . وهو فى أصله تنازع سياسى أدخلوا فيه الدين وسيلة لتأييد دعواهم

والدولة الفاطمية أول دولة شيعية تسمى ملوكها بالخلفاء . وعاصرتها دولة أخرى شيعية فى العراقين وفارس ، نعنى الدولة البويهية ، لكنهم لم يسموا أنفسهم خلفاء ولا ادعوا نسبا قرشيا يؤهلهم لذلك . وحافظوا على الخلافة العباسية مع اعتقادهم بأن أصحابها اغتصبوها من مستحقيها .. وانما استبقوها ليحكموا بها العامة . وأشار بعضهم على معز الدولة البويهى بعد قيام الدولة الفاطمية أن ينقل الخلافة الى الفاطميين أو الى غيرهم من العلويين، فاعترض عليه أحد خاصته قائلا : « ليس هذا برأى .. فانك اليوم مع خليفة تعتقد أنت وأصحابك انه ليس من أهل الخلافة لو أمرتهم بقتله لقتلوه مستحلين دمه ، ومتى أجلست بعض العلويين خليفة كان معك من تعتقد أنت وأصحابك صحة خلافته ، فلوأمرهم بقتلك لقتلوك» فرجع معزالدولة عنعزمه (١)

(١) ابن الاثير ١٧٧ — الجزء السابع

استقرت الخلافة الفاطمية بمصر ، والخلفاء العباسيون فى بغداد وأتباعهم السنيون فى أنحاء العالم ، ينكرون على الفاطميين صحة انتسابهم الى فاطمة الزهراء ، وهم لا يبالون . وانما كان يهمهم تأييد سلطانهم بالسيف والدهاء ، ولا سيما فى أوائل دولتهم ..
فان المعز لدين الله لما بنى له جوهر مدينة القاهرة ودعاه اليها ، خرج الناس للقائه فاجتمع به أناس من الأشراف وفيهم عبد الله ابن طباطبا المشهور ، فتقدم الى الخليفة المعز وقال له : « الى من ينتسب مولانا ؟ » فقال له : « سنعقد مجلساً نجمعكم فيه ونسرد عليكم نسبنا »

ولما استقر المعز فى القصر جمع الناس فى مجلس عام وجلس لهم وقال : « هل بقى من رؤسائكم أحد ؟ » قالوا : « لم يبق معتبر » فسلَّ نصف سيفه وقال : « هذا نسبى » ونثر عليهم ذهبا كثيرا وقال : « هذا حسبى » فقالوا جميعا : « سمعنا وأطعنا »

فتوالى على مصر من الفاطميين أحد عشر خليفة ، حكموا نيفا ومائتى عام (من سنة ٣٥٨ هـ — ٥٦٧ هـ) أولهم المعز لدين الله ، وآخرهم العاضد لدين الله . مرّت الدولة فى أثنائها فى ثلاثة أدوار : كانت فى أول أمرها قائمة بالعرب والبربر وهم الذين فتحوا مصر مع جوهر ، فكان النفوذ مشتركا بين هذين العنصرين . ثم صار الى البربر ، ثم الى الأتراك [1] كما انتقل النفوذ فى الدولة

---

(١) تاريخ التمدن الاسلامى — الجزء الرابع

العباسية من العرب والفرس الى الأتراك

وكان السبب فى تكاثر الأتراك بمصر انه لما مات الخليفة الحاكم بأمر الله ، وخلفه ابنه الظاهر لاعزاز دين الله سنة ٤١١ هـ ، أكثر من اللهو والقصف ومال الى الأتراك والمشارقة .. فضعف جانب البربر وظلت مكانتهم تتناقص حتى كادت تتلاشى ، فلما ملك المستنصر سنة ٤٢٧ هـ بعد الظاهر ، كانت أمه أمة سوداء ، فاستكثرت فى جنود ابنها من العبيد أبناء جلدتها حتى بلغوا ألف عبد أسود . وكان ابنها يستكثر من الأتراك ، فأصبح الجند طائفتين كبيرتين تتنافسان وتتسابقان الى الاستئثار بالنفوذ ، فآل التنافس الى حرب تعبت فيها مصر ، واضطر الخليفة الى الاستنجاد بصاحب الشام .. فأتاه أمير الجيوش بدر الجمالى من سوريا ، وهو أرمنى الأصل ، فأخذ يفتك بأهل الدولة وأقام بمصر جندا من الأرمن والأتراك ، وصار منذ ذلك الحين معظم الجيوش منهم .. وذهب نفوذ البربر وصاروا من جملة الرعية ، ولم يبق لهم شأن فى الدولة بعد أن كانوا وجوهها وأكابر أهلها

وكان السلاجقة فى أثناء ذلك قد سيطروا على العراق وفارس ، وذهبت دولة آل بويه وضعف أمر الشيعة هناك ، وولى السلاجقة مماليكهم وقوادهم (الأتابكة) على الولايات ، واستقل كل منهم بولايته ومنهم نور الدين زنكى فى الشام . وكان فى جملة قواد نور الدين جماعة من شجعان الأكراد ، منهم نجم الدين أيوب ،

وأخوه أسد الدين شركويه ، وقد بلغا عنده منزلة رفيعة . وكانت خلافة مصر قد أفضت سنة ٥٥٦ هـ الى العاضد لدين الله بن يوسف وكان ضعيف الرأى ، وقد سيطر وزراؤه على دولته ، وتنافسوا على الاستئثار بالنفوذ ، وطال تنافسهم حتى تسببوا فى خراب البلاد .. والخليفة لايستطيع عملا

وكان فى جملة المتنافسين وزير اسمه شاور ، غلب على أمره فذهب الى نور الدين زنكى ، واستنجد به على رجل آخر كان ينافسه فى الوزارة .. فاغتنم نور الدين تلك الفرصة كى يستولى على مصر ، وأنجده بأسد الدين شركويه فى جند من المماليك فرد الوزارة الى شاور . وصار هذا يدفع ثلث خراج مصر الى نور الدين

وكانت الحروب الصليبية فى تلك الأثناء قد احتدمت ، فزاد تدخل نور الدين فى شئون مصر ، ونائبه فيها شركويه ، ومعه ابن أخيه يوسف بن نجم الدين وهو صلاح الدين الأيوبى الشهير . ومات شركويه بمصر سنة ٥٦٤ فخلفه صلاح الدين فى منصب النيابة وسمى وزيرا

فاتخذ صلاح الدين ذلك وسيلة للاستقلال بسلطنة مصر لنفسه

- ٢ -

موكب الخليفة العاضد

قال العم حسن : « انهض يا أخى .. أما كفاك نوما ، والقاهرة قد ضجت والناس يتراكضون ؟ قم وانج بحمارك »

فأجاب عمر : « الى أين ؟ ولماذا ؟ هل أحرقوا القاهرة كما أحرقوا الفسطاط ؟ أم هناك ضريبة جديدة علينا ؟ تركت مواقف القـاهرة وأتيت بحمارى الى هـذا الموقف خارج باب الفتوح لأتخلص من تعدياتهم وظلم هؤلاء الأتراك والأكراد .. و .. »

قال العم حسن : « اسـكت يا عمر ، ان هؤلاء الأكراد كل الخير منهم .. هل نسيت ما كنا نقاسيه من العذاب قبلهم ؟ حتى ان أحدنا لم يكن يتحرك ما لم يضربوا عليه ضريبـة . ومن كان يجسر أن يذكر أبا بكر ، أو عمر رضى الله عنهما ؟ ؟ »

قال عمر : « صدقت .. ان والدىَّ ندما على تسميتى بهذا الاسم .. وماذا جرى الآن ياعم حسن ؟ هل نقـدر أن نتحرك ؟ ها أنت تقول لى قم انج بحمارك .. »

قال العم حسن : « أقول ذلك لأن الخليفة العاضد لدين الله خارج من قصره فى موكبه ؛ وستتبعه طائفة من الأتراك وغيرهم ، فربما سطا أحدهم على حمارك فيركبه .. وربما أخذه لنفسه »

قال عمر : « الخليفة خارج من قصره ؟ وأين نحن وقصره ؟

اننا خارج القاهرة »

قال العم حسن : « انه آت الى هنا وسيخرج من باب الفتوح هذا »

قال عمر : « من هذا الباب ؟ الى أين ؟ »

قال العم حسن : « انه خارج لاستقبال نجم الدين أيوب »

قال عمر : « الخليفة خارج من القاهرة لاستقبال نجم الدين ؟ ومن هو نجم الدين هذا ؟ »

قال العم حسن : « هو والد الوزير صلاح الدين يوسف ، جاء من الشام لزيارة ابنه »

قال عمر : « الله الله يادنيا .. الخليفة أمير المؤمنين ابن بنت الرسول وظل الله فى الأرض يخرج من قصره الى خارج بلده للقاء والد وزيره .. متى كان الخلفاء الفاطميون يفعلون ذلك ياعم حسن ؟ »

قال العم حسن : « تغيرت الأحوال ياصاحبى .. ان الخليفة لم يبق له من الخلافة الا الاسم . وصار النفوذ الى هذا الكردى. مسكين العاضد »

قال عمر : « مسكين .. لماذا ؟ بل نحن المساكين وقد يكون هذا الكردى أحسن منه »

قال العم حسن : « الكردى أحسن من الخليفة ؟ لا .. »

قال عمر : « وما الذى يصيبنا من هؤلاء الحكام ؟ انهم

يختصمون على الاستبداد فينا ، وماذا يهمنى ان كان حاكمى كرديا أو عربيا أوهنديا . انما يهمنى أن لايظلمنى.. أليس كذلك ؟»

قال العم حسن : « اسكت انهم قادمون ، ألا تسمع الأبواق والصنوج ؟ انج بحمارك ، خبّئه فى مكان .. وتعال »

قال عمر : « ها أنا ذاهب وسأرجع اليك على عجل لأرى موكب الخليفة .. ان ذلك حسرة فى قلبى منذ ولدت . طالما سمعت بهذا الموكب وما يحف به من الفرسان ومايلبسه الخليفة من الجواهر والحرير و .. »

قال العم حسن : « أنا فى انتظارك .. استعجل يا عمر »

قال عمر : « لا .. لا .. الأحسن أن تتبعنى أنت لنضع الحمار فى هذا البيت ، ونصعد نحن على سطحه .. فنكون أقدر على المشاهدة وأبعد عن الخطر »

قال العم حسن : « لابأس .. هيا بنا »

قال عمر : « نحن الآن على هذا السطح مشرفون على الموكب »

قال العم حسن : « انهم قادمون من القصر . وبعد قليل يصلون الى باب الفتوح هذا ، فنراهم وهم خارجون . ألا تسمع الضوضاء وقرقعة اللجم ؟ »

قال عمر : « نعم أسمع .. وأخشى أن يكون علينا خطر »

قال العم حسن : « لا .. لا خطر ، أراك تخاف من خيالك »

قال عمر : « لاتؤاخذنى ياعم حسن ، ان الملدوغ يخاف من جرَّة الحبل .. وهؤلاء الجنود لم يخرجوا بمثل هذه الحركة من قبل الا تعدوا علينا وأخذوا دوابنا »

قال العم حسن : « أتى الموكب .. انظر نظرة عامة اليه فى الشارع الداخلى قبل خروجه »

قال عمر : « انى أرى الأعلام تخفق ، والخيـول تصـهل ، والرماح تتلألأ ، والسيوف تلمع ، والشارع يموج بمن فيه كالنيل فى فيضانه . ياحفيظ . أشكرك ياعم حسن على هـذه الفرجة . قل لى الآن ، وقد أخذوا يخرجون من باب الفتوح ، من هو الخليفة منهم ، هل هو هذا الراكب على هـذا الفرس الأشهب وعليه الثياب القصبية ؟ »

قال العم حسن : « يظهر انك لم تشهد أحدا من رجال الدولة فى حياتك . ان الذين يتقدمون موكب الخليفة كثيرون . وهل تظن أن الخليفة يلبس القصب ؟ انها ملابس بعض أتباعه .. أما الذين تراهم فى مقـدمة الموكب فهم الأمراء وأولادهم ، وأخلاط من العسكر وراءهم أرباب القصب ، ثم أرباب الأطواق الى الأستاذين المحنكين وهم أكبر رجال الدولة . انظر الى ملابسهم الفاخرة التى تأخذ بالأبصار ، والى سروج خيولهم المفضضة ، ومن فى ركابهم من الخدم الأتراك وغيرهم .. ان ذلك كله ليس شيئا بالنسبة الى موكب الخليفة .. انظر .. انظر ، هذا هو موكب الخليفة عند تلك

المظلة »

قال عمر : « ان المظلة تغطيه فلا أراه جيدا . وانما أرى فرسه وما يحيط بها من الأعلام والفرسان بجانبه ، فمن هم ؟ »

قال العم حسن : « لا تستعجل فى السؤال .. ان الموكب يسير ببطء وسأشرح لك كل شىء .. هل ترى فرس الخليفة ؟.. تأملها جيدا ان سرجها من الديباج الأحمر مصوغ بالذهب ومطعّم بالمينا .. ولو تأملت الجانب الأمامى من السرج لرأيت عليه أحجارا كريمة . وفى عنق الفرس قلائد من الذهب ، ولو استطعت النظر الى قوائم الفرس لرأيت حولها الخلاخل الذهب . ويقدرون كل فرس بما عليها من العدة بألف دينار (١) ، وأفراس الوزراء والأمراء أيضا فى مثل هذا الترتيب ، وهى كلها فى الأصل هدية من الخليفة يهبها لأمرائه فى الأعياد »

قال عمر : « هنيئا لك ياعم حسن ، لابد انك ذقت الركوب على هذه الأفراس وأنت من غلمان القصر الكبير »

قال العم حسن : « ذقت يابنى أشياء كثيرة ، كدت أنساها الآن . ورأيت مجوهرات ومصوغات تبهر العقل . فكيف بما يلبسه الخليفة ؟ انظر الى هذه المظلة فانها تشبه الهرم بشكلها ، وهى من الديباج الأزرق السماوى ، وثوب الخليفة تحتها فى هذا اللون أيضا . ولو كانت حمراء لكان ثوبه أحمر . وانظر الى الأهلة

(١) المقريزى ٧٤٤ — الجزء الاول

الذهب التى تتدلى من حواشى المظلة وكيف ان أضلاع المظلة أو قوائمها مغطاة بالذهب .. وفى قمتها رمانة ذهب كبيرة فوقها رمانة ذهب صغيرة مرصعة بالجواهر .. انظر الى لمعانها فانه يخطف البصر »

قال عمر : « صحيح .. ولكننى لا أرى حامل المظلة . وكيف يستطيع حملها وهى ثقيلة ؟ »

قال العم حسن : « ان حاملها راكب فرسه ، بجانب فرس الخليفة . وللمظلة قناة يركزها ذلك الفارس فى قربوس فرسه . وهمه فى أثناء الركوب أن يراقب موقف الخليفة من جهة الشمس بحيث لا تقع أشعتها عليه »

قال عمر : « وماذا يحدث اذا وقعت الأشعة عليه ؟.. ها انا أرى رأس الخليفة ، فان صاحب المظلة انحرف عنه . ياسلام ماهذا الذى على رأسه ؟ »

- ٣ -

العاضد وصلاح الدين

قال العم حسن : « تمهل لأتم حديثى . انظر الى هذه العمامة على رأس الخليفة فانها بيضاء وشكلها اهليلجى . وفى أعلاها فوق الجبهة حلية بشكل الهلالمن ياقوت أحمر ليس له مثال فى الدنيا ،

وفى وسط الهلال جوهرة عظيمة مشهورة ، يقـال لها اليتيمة ، لا تعرف لها قيمة . ويقال ان وزنها ٧ دراهم ووزن الهلال كله ١١ مثقالا ، وبدائرة اليتيمة قصبة زمرد ذبابى له قدر عظيم »

قال عمر : « ياحفيظ .. ياحفيظ .. أيكون مثل هذه الجواهر عند هذا الرجل بلا فائدة ، والناس فى مملكته يتضورون جوعا وهو يأخذ أموالهم ظلما ؟ آه ياعم حسن قد وجعنى قلبى من هذا المنظر »

قال العم حسن : « اسكت ياشيخ .. ان النعم من عنـد الله يؤتيها من يشاء .. ولعلك لو عرفت ما فى قلب هـذا الخليفة لم تحسده على هذه الجواهر .. ما لنا ولهذا الآن .. اسمع .. ألا ترى الفارس الى يسار الخليفة وفى يده منديل أبيض ؟ »

قال عمر : « نعم أراه .. ماذا يوجد فى هذا المنديل ؟ »

قال العم حسن : « فى هذا المنديل الدواة الثمينة التى هى من أعاجيب الزمان ، فانها من الذهب وحليتها مرجان .. انظر الى الجانب الآخر من الخليفة تر فارسا آخر يحمل سيفا حليته من الذهب مرصعة بالجوهر ، وهو مغمد لايظهر الا رأسه .. وحامله يقال له : « حامل السيف » وهو من أصحاب الرتب العاليـة . وانظر الى ما حول فرس الخليفة ، فانك تجد عشرات من الصبيان وعليهم المنـاديل الطبقات ، وفى أوساطهم السيوف وأوسـاطهم مشدودة بمنـاديل ، وفى أيديهم الحراب مشهورة ، وهم بجانبى

الخليفة كالجناحين . وبينهما فسحة أمام وجه الفرس ليس فيها أحد .. وبالقرب من عنق الفرس صقلبيان يحملان المذبتين ، وهما مرفوعتان كالنخلة لابعاد ما يسقط من طيور أو غيرها »

قال عمر : « انى أرى فارسا فخما يذهب ويجيء الى يسار الموكب ويأمر وينهى ، فمن هو ؟ »

قال العم حسن : « هـذا والى القاهرة يحافظ على نظام الموكب ليسهل مروره ويمنع الازدحام .. انظر الى الذين وراء دابة الخليفة .. هناك جماعة من الصبيان يقال لهم صبيان الركاب يحملون الصماصم المصقولة المذهبة بدل السيوف المحدبة ، وبأيديهم الدبابيس الكيمخت الأحمر والأسود ، ورءوسها مدورة مضرسة . وبعضهم يحملون عمد الحديد ، وبين أيديهم لواء الحمد المختص بالخليفة ، وحوله ٢١ راية على كل منها كتابة بالحرير تخالف ألوانها . وهذا نص الكتابة : «نصر من الله وفتح قريب» ألم تقرأه ؟ »

فضحك عمر ، وقال : « من أين لى ذلك ؟ ان أهلى لم يرسلونى الى الأزهر لأن التعليم فيه على مذهب الشيعة ، وأهلى سنيّون »

فقطع العم حسن كلامه وقال : « اذن تستطيع الآن أن تتعلم لأن صلاح الدين جعل التعليم فيه عاما لكل المذاهب .. »

قال عمر : « لقد تأخر على بهذه النعمة ، وهل بعد الأربعين

من العمر تعليم .. فلنترك ذلك لأولادنا .. من هذا الذى أراه ؟ ان موكبه لايقل عن موكب الخليفة فى شىء ، وأرى عليه ملابس أفخر من ملابسه »

قال العم حسن : « هذا هو ياصاحبى صلاح الدين الوزير ، وهذا الثوب الذى عليه هو خلعة السلطنة خلعها عليه هذا الخليفة نفسه منذ ثلاث سنوات . وهى كما ترى عمامة بيضاء من نسج تنيس ، لها طرف مذهب وتحتها ثوب ديبقى مطرز بالذهب .. وكذلك الجبة التى عليه ، فان تطريزها من الذهب .. وفوق ذلك طيلسان مطرز بالذهب . وانظر فى عنقه هل ترى العقد ؟ انه من الجوهر يساوى عشرة آلاف دينار ، والى جانبه سيف محلى بخمسة آلاف دينار وتحته حجرة « فرس » قيمتها ثمانية آلاف دينار . وعليها سرج مذهب وسرسار ذهب مجوهر ، وفى رأسها مائتا حبة جوهر . وانظر الى قوائمها فان حولها أربعة عقود جوهر ، وعلى رأسها قصبة بذهب وفيها شدة بياض بأعلام بيض (١) هذا هو صلاح الدين .. ان منظره يدعو الى الهيبة أكثر من منظر الخليفة . أنظر الى هيبته وكيف ان الشجاعة ظاهرة فى وجهه ولا يراه انسان الا احترمه وخاف منه .. والحق يقال ان الأمور الآن فى يديه وهو الآمر الناهى كما قلت لك ، وانظر الى الرجال المحيطين بموكبه .. وفيهم قوم يقال لهم صبيان الزرد من

(١) حسن المحاضرة ٢٥ — الجزء الثانى

أقوياء الجند يختارهم لنفسه ، وهم مئات يمشون الى الجانبين وبينهم فسحة أمامه مثل فسحة الخليفة . ووراءه الطبول والصنوج والصفافير .. ألا تسمع صوتها يدوى به البر ؟ ووراء موكب الوزير يأتى حامل الرمح . تأمله فانه رمح لطيف فى غلاف منظوم من اللؤلؤ وله سنان مختصر بحلية من الذهب ، ومعه دَرَقَة بكوامخ يقولون انها درقة حمزة بن عبد المطلب رضى الله عنه »

كان عمر الحمَّار يسمع كلام صديقه العم حسن وقد أخذته الدهشة ، فلما سمع قوله درقة حمزة بغت وقال : « درقة حمزة.. حمزة بن عبد المطلب عم النبى صلى الله عليه وسلم ؟.. »

قال العم حسن : « نعم .. هكذا يقولون . وقد آن لى أن أختصر لك فى الوصف لأن الموكب لايزال طويلا .. فانظر الى ما وراء موكب الوزير تجد فرَقًا من الجنود المختلفة زمرا زمرا فى عدد وافر يزيد على أربعة آلاف .. ثم أصحاب الرايات ووراءهم طوائف من العسكر على اختلاف أجناسهم : الأتراك ، والأكراد ، والديلم ، وغيرهم »

فقال عمر : « قف بالله قليلا وأخبرنى عن فارس أراه راكبا بجانب صلاح الدين وعليه ثياب فاخرة »

قال العم حسن : « انه من بعض خاصته ، ولكنه فارس يحبه صلاح الدين كثيرا ، ولا صبر له على فراقه ، واسمه عماد الدين »

فبغت عمر الحمّار عند ذلك وقال : « ما بال هؤلاء لايسمون اسما الا منسوبا الى الدين ؟.. هؤلاء ثلاثة ذكرت لى أسماءهم : نور الدين ، وصلاح الدين ، ونجم الدين ، وهذا عماد الدين »

فقال العم حسن : « تلك عادتهم فى التسمية .. ها قد انتهى الموكب وقصصت عليك خبره .. فأذن بانصرافى »

فقال عمر : « مع السلامة ، أكثر الله من أمثالك » وانصرفا

هذا هو موكب الخليفة العاضد .. وصفناه باختصار تفاديا للملل القارىء فان الكلام فيه يطول

سار الموكب على هذه الصورة بعد خروجه من باب الفتوح ، والناس فى أثره ركوبا أو مشاة ، وآخرون وقوف على سطوح المنازل يشرفون على ذلك الموكب ، وقد تصاعد الغبار حتى حجب وجه السماء ، وغشى الرءوس والمناكب ، ولم تبق فتاة ولا غلام الا خرج الى الشارع أو صعد الى السطح ، والبسطاء يستغربون خروج الخليفة لاستقبال ذلك الكردى ، والعارفون لايرون فيه غرابة لضعف أمر الخلافة

– ٤ –

قاعة الذهب

ظل الموكب سائرا على هذه الصورة حتى وصل الى

مسجد التبر (فى آخر الحسينية) ، وأتت البشائر باقتراب نجم الدين فالتقوا به هناك .. وعند اللقاء ترجل نجم الدين احتراما للخليفة ، وكذلك فعل رجاله الذين معه ، وفيهم أخوه شمس الدين . وترجل صلاح الدين وقبّل يدى والده فقبله والده ، ولما رأى ذلك الموكب وما على ابنه من الخلع لم يتمالك عن البكاء من الفرح وشكر الله على نعمه . وكان نجم الدين عاقلا مدبرا فترامى على يد الخليفة يقبّلها ، ويظهر امتنانه على ذلك الاكرام ، والخليفة يجيبه بلطف لكنه لم يتحول عن فرسه

وبعد السلام والاكرام عاد الموكب بجلاله نحو القصرين ، وركب نجم الدين الى جانب ابنه .. وبجانبهما عماد الدين الشاب الشجاع ، وتحادثا مليا .. وكان حديثهما بلغة لا يفهمها رجال العاضد ، نعنى « اللغة الكردية » . وكان أكثر الحديث عن نور الدين صاحب الشام ، وعن العاضد صاحب مصر

أما الخليفة العاضد فلو دنوت منه تحت المظلة ، وتفرست فى عينيه لرأيت الدمع يترقرق فيهما . ولو جسست قلبه لسمعت خفقانه الشديد من الأسف والغم لاضطراره الى الخروج فى هذا الموكب ، لتكريم رجل يخاف منه على حياته كما يخاف منه على منصبه . ولكنه لم ير بدا من مسايرته ، فكظم غيظه وخرج لاستقبال والده . وذلك أثقل على قلبه من الجوع والعرى .

ولعله كان يتمنى أن يكون من بعض العامة .. ولا يتحمل ذلك الضيم

ووصل الموكب قبيل الغروب الى القصر الكبير الشرقى من قصور القاهرة .. وهو مجموعة قصور ربما زاد عددها على بضعة عشر قصرا منها قصر الزمرد ، وقصر المظفر ، وقصر الاقبال ، وقصر البحر ، وقصر الحريم ، وقصر الشوك ، ودار الوزارة ، ودار الضيافة ، ودار الضرب ، وخزانة البنود ، وخزانة الكتب ، ودار الصبيان الحجرية وغيرها .. وتسمى كلها معا القصر الكبير الشرقى ، كما تسمى قصور عبد الحميد فى الاستانة قصر يلدز وهو مجموعة قصور

وموضع القصر الكبير الشرقى الآن فى شرقى القاهرة القديمة ، وشماليها فيما بين الأزهر وباب الفتوح ، ويدخل فى ذلك خان الخليلى ، وبيت القاضى ، والجمالية ، والنحاسين . وقد سمى هذا القصر بالشرقى تمييزا له عن قصر آخر غربى أصغر منه كان غربى القصر الشرقى ، وبينهما ساحة يقال لها الميدان بين القصرين . ووراء القصر الغربى نحو الغرب متنزه كبير يقال له البستان الكافورى ، يحده من الغرب خليج القاهرة ، وعلى هذا الخليج كانت متنزهات الخلفاء الفاطميين

وكان فى جملة أبنية القصر الكبير الشرقى بناء يسمونه قصر الذهب ، كان الخليفة يجلس فيه للناس فى يومى الاثنين والخميس

من كل أسبوع .. فوقف الموكب عنده

فترجل الخليفة ودخل القاعة المعدة للاستقبال ، وتسمى قاعة الذهب .. يدخل المرء اليهـا من باب يسمى باب الذهب حيث المارستان المنصورى فى النحاسين ، فجلس على سرير من الذهب فى صدر القاعة ، ذكروا ان وزنه ألوف من المثاقيل ، وحوله ستار محلى بالذهب المرصع بالجواهر فيه خمسمائة وستـون قطعة جوهر ، على اختلاف ألوانه (١) ، وفوق السرير شمسية من ذهب وزنها ثلاثون ألف مثقال .. وأكثر جدران الغرفة مغطاة بستائر الديباج المزركش ، حتى ان الناظر اليها يحسب نفســه فى حلم ، ولا سيما متى نظر الى ما فوق عمامة العاضد من الجواهر المتلالئة

وبعد جلوس الخليفة على سريره دخل الوزير صلاح الدين ، فجلس فى مرتبة خاصة به . ولم يؤذن فى الدخول يومئذ لأحد من رجال الدولة ، وانما خصصت الجلسة للحفاوة بنجم الدين .. فأمر صاحب الباب باستقباله وادخاله عليه ، فدخل نجم الدين ، وكان بهىّ الطلعة ، عظيم الهيبة فوقع من نفس العاضد موقعا عظيما ، فأشـار اليه بالجلوس ورحب به . فجلس نجم الدين باحترام . وكانت العادة اذا دخـل الوزير على الخليفة الفاطمى قبّل يد الخليفة وقدمه .. ولكن صلاح الدين لم يفعل ذلك ، ولم يدع والده يفعله ، ولم يستغربه الخليفة

(١) المقريزى ٣٨٥ ــ الجزء الاول

وكان فى جملة الحضور فى تلك القاعة كهل ربعة دقيق العضل ، ممتقع اللون ، جالس فى مجلس أقارب الخليفة جلوس من يريد التستّر ، ويود أن لا يفطن اليه أحد .. لكن صلاح الدين لمحه ، فأيقن من مجلسه انه من بعض الأمراء ولم يكن رآه من قبل

ولما استقر بالجلوس المقام ، بدأ العاضد بالكلام وهو يومئذ شاب لم يتجاوز الحادية والعشرين من عمره مع انه تولى الخلافة منذ عشر سنين (سنة ٥٥٦ هـ) لأنه كان عند مبايعته فى الحادية عشرة من عمره ، والذى يراه الآن يحسبه فى حدود الأربعين ، لكثرة ما كابده من الهموم ، وصادفه من المحن . وكان لا يقع نظره على صلاح الدين الا ندم على الاستنجاد بنور الدين زنكى صاحب الشام

— ٥ —

المداجاة

فلما جلس القوم وجّه الخليفة كلامه الى نجم الدين قائلا : « عسى أن لايكون القائد نجم الدين قد تعب فى أثناء الطريق »

قال نجم الدين : « كلا ياسيدى ان سفرى كان فى غاية الراحة ، ولاسيما لأنى أتوقع التشرف بلقاء الامام أعزه الله .. »

فابتسم الخليفة ابتسامة مغتصبة وقال : « أهلا وسهلا بكم قد

نزلتم على الرحب والسعة . وقد أمرت رئيس القصر أن يعد لمقامكم منظرة اللؤلؤة ، وهى أجمل قصورنا بل أحد متنزهات الدنيا .. »

فتأدب نجم الدين فى مجلسه وأبدى الاحترام وأثنى على الخليفة ثناء كثيرا . فقال صلاح الدين : « ان تنازل مولانا الأمير بالخروج للقاء والدى نعمة لا أنساها له ، ونحن حيثما كنا فاننا ندعو له بطول البقاء »

فحك الخليفة أنفه بسبابته وتناول قضيب الخلافة من على الوسادة الى جانبه (وهو قصير مغشى بالذهب) وجعل يتلهى بالنظر اليه . ثم سعل والتفت الى نجم الدين وقال : « كيف فارقت صديقنا الأتابك نور الدين ؟ »

فأجاب وهو يتلطف ويتجمل : « فارقته فى خير وقد حمّلنى سلاما كثيرا ومودة لمولانا العاضد — حفظه الله — وهو يدعو بطول بقائه ودوام سلامته »

قال الخليفة : « انى مسرور من صداقته وأرجو دوامها »

قال نجم الدين : « ان ذلك شرف عظيم له وقد كلفنى أن أبلغ المولى — أعزه الله — انه هو ورجاله فى خدمته .. لنصرة الحق »

فوقع هـذا الكلام موقعا مؤلما من نفس العاضد لأنه ذكره بالسبب الذى جرّه الى هذه المتاعب .. فانها بدأت من استنجاده بنور الدين .. لكنه تجلد وكظم ، والتفت الى نجم الدين وقال :

« لقد نصرنا غير مرة جزاه الله خيرا .. وقد كفانا الآن مئونه الاستنجاد وجود ولدكم الملك الناصر » وأشار الى صلاح الدين

فقال نجم الدين : « ان ولدنا من مواليكم ياسيدى ولا يدخر وسعا فى خدمتكم والأخذ بناصركم »

فمد العاضد يده الى عنقه ، وأخرج عقدا من الجوهر يشبه العقد الذى فى عنق صلاح الدين ، وقدمه الى نجم الدين وهو يبتسم وقال : « هذه هدية منا تتذكرون بها هـذه الزيارة أيها القائد الباسل . وقد استحققت عندنا أن ندعوك « الملك الأفضل» وستحمل اليك الألطاف والهـدايا الى قصر اللؤلؤة ، ونوليك الاقطاعات السنية فانك أهل لأكثر من ذلك .. » (١)

فوقف نجم الدين وتناول العقد وهو يقبّل يد الخليفة . ثم قبّل العقد ووضعه فى عنقه وهو يقول : « لقد غمرتنى يامولاى بنعم لا أستحقها . ان اللقب الذى خلعته علىَّ فوق قدرى و .. »

فقطع الخليفة كلامه قائلا : « بل أنت الملك الأفضـل كما ان نجلك الملك الناصر » فكرر نجم الدين شكره وجلس متأدبا

ولاحت من صلاح الدين التفـاتة الى الكهل المتقدم ذكره ، فرأى فى وجهه اهتماما ، وقد أبرقت عيناه وكادتا تتقدان من التفكير فشغله أمره لحظة

فأدرك الخليفة اشتغاله بذلك وأراد تحويل الأذهان عن هديته ،

(١) كتاب الروضتين ١٨٢ ـ الجزء الاول

فوجّه خطابه الىٰ صلاح الدين ، وقال وهو يشير بيده الى ذلك الجليس : « أظنك لا تعرف الشريف أبا الحسن .. انه من أعمامنا كان فى سفر وقد جاءنا من عهد قريب » والتفت الى أبى الحسن وقال : « لا أظنك تحتاج الى التعريف بوزيرنا الباسل أبى المظفر صلاح الدين »

فأشار أبو الحسن بعينه ورأسه وكتفيه انه شاكر لهذا التعريف، وانحنى كأنه يهم بالقيام فقال صلاح الدين : « سررت كثيرا بمعرفة هذا الشريف ويكفى انه متصل النسب بمقام الخلافة »

وكان نجم الدين فى أثنـاء ذلك ينظر الى أبى الحســن نظر المتفرس ، ولم يعجبه ما فى سحنته من الدهاء وما فى عينيه من المكر .. لكنه تجاهل وتوجّه بكليته الى الخليفة يبدى شكره على هذا التعريف

ثم ألقى العاضد قضيب الخلافة من يده على الوسادة ، ففهم القوم انه قــد آن وقت الانصراف ، فاســتأذن نجم الدين فى الانصراف ، وهمّ بوداع الخليفة . ثم تقدم صلاح الدين وودع الخليفة وأظهر انه يهم بتقبيل يده .. فاجتذب الخليفة يده تلطفا

خرج نجم الدين وابنه من مجلس الخليفة ، ورجالهما ينتظرونهما خارج القصر بالأفراس والسلاح ، وفيهم الشاب عماد الدين الذى كان راكبا بجانب صلاح الدين فى الموكب . وكان صلاح الدين يختصه بالثقة لما يراه فيه من المروءة والبسالة .. وهو شاب فى

مقتبل العمر قلما يفارق ركاب صلاح الدين الا لأمر مهم . ولم يكن يراه أحد الا أحبه لجماله وبسالته مع ذكاء وفصاحة . فلما صار صلاح الدين خارج المجلس صاح : « أين عماد الدين ؟ »

فتقدم الشاب وعيناه تتكلمان قبل لسانه ، وقد لبس ثوبا من أثواب الحرس الخاص بصلاح الدين ، وهى السراويل القصيرة ، وحول الخصر منطقة من جلد فيها عروة مذهبة ، وفوقها دراعة مطرزة بالقصب . وعلى رأســه عمامة صغيرة كالطاقية مزركشة بالقصب ، وقد علق بمنطقته سيفا قصيرا وغرس فيها خنجرا . فلما وقف بين يدى صلاح الدين قال له : « هلم بنا الى منظرة اللؤلؤة فقد أمر الخليفة أن ينزل والدى هناك وأنا أنزل معه الآن »

فاهتم عماد الدين بارشاد الركب الى المكان ، وركبوا جميعا الى المنظرة المشار اليها ، وكانت على خليج القــاهرة . فقطعوا الميدان بين القصرين ومروا بجانب القصر الغربى الى البســتان الكافورى أحد متنزهات القاهرة ، واتهوا منه الى المنظرة على ضفة الخليج اليمنى ، أى من جهة قصور الخلفاء المتقدم ذكرها . وهى تشرف على الخليج من الغرب ، ووراء الخليج غربا بركة كان يقال لها بطن البقرة ، ووراءها أرض الطبالة وبســتان المقسى « الفجالة وباب الشعرية وما يليهما الآن » ووراءها بركة الأزبكية الى مجرى النيل

- ٦ -

منظرة اللؤلؤة

وكانت المنظرة المذكورة من أجمل متنزهات القاهرة ، لها حديقة تتصل بالخليج ، فيها الأشجار والرياحين والأزهار . وفيها القاعات والمقصورات فى أجمل ما يكون من الفرش الثمين ، يشبه ما كان للخلفاء فى قصورهم من ستائر الديباج المطرز بالذهب ، والبسط المحوكة بالذهب ، وسائر الآنية من العاج وخشب الصندل وفيها الأرائك والوسائد . وقد سرح فى البستان مئات من الطيور الداجنة على اختلاف أنواعها وألحانها ، بعضها فى الأقفاص والبعض الآخر مطلق . وعلى ضفة الخليج مجالس من الخشب كالشرفات قد فرشت بالسجاد ، عليها المساند المزركشة وفوقها مظلات من الخشب غطتها النباتات .. وكل ما فى المنظرة ثمين يستوقف النظر ، وناهيك بأنها كانت متنزها للخلفاء الفاطميين فى ابان دولتهم

وصل نجم الدين وابنه ومن فى ركابهما من الحاشية ، فتلقاهم غلمان المنظرة بالأطياب والبخور ، فدخلوا الى قاعة كبيرة للاستراحة ، ومعهم بعض الخاصة من رجالهم .. جلسوا ساعة لم يدر فيها من الحديث غير العام المتعلق بالأسفار ، وما قد يراه المسافر فى طريقه من التعب أو الراحة . وتخلل الحديث طبعا ذكر

الافرنج « الصليبيين » الذين كانوا يومئذ أصحاب السيادة فى نواحى سوريا وفلسطين وكثير من مدنها

ثم مالت الشمس الى المغيب ، وقد أعدت مائدة العشاء فتناوله معهما طائفة من الخاصة ، وفيهم شمس الدين . فلما فرغوا من الطعام انصرف الخاصة كل منهم الى فراشه فى المنظرة ، وتركوا نجم الدين وابنه على حدة ، لعلمهم ان نجم الدين لم يأت الى مصر الا لأمر هام يريد أن يفضى به الى صلاح الدين

اختلى نجم الدين بابنـه فى غرفة أنيرت بالشموع الضخمة ، التى تبلغ زنة البعض منها عدة أرطال .. وقد رأى نجم الدين فى قصور القاهرة ما لم ير مثله فى دمشق الشام . وما أن خلا بصلاح الدين حتى اتكأ على وسادة وأشار اليه أن يجلس بين يديه ، وقد تخففا بملابس النوم .. وفى يد نجم الدين انبوبة أمسك بها منذ أن بدل ثيابه

فلما جلسا قال نجم الدين : « سرنى يا يوسف ما رأيته من منزلتك عند هذا الرجل ، ولكننى رأيتك لا تحترمه كثيرا وهو يرى نفسه خليفة وملكا »

فضحك صلاح الدين وقال : « هل يكفيك يا أبى أن يرى نفسه كذلك ونحن نعلم انه أسيرنا ..'وصنيعنا .. »

فقطع نجم الدين كلامه قائلا : « ولكن الأمر لم يتم لنا بعد ، فلا ضرر من المجاملة ومراعاة العادات الجارية .. على اننى أراك

من الجهة الأخرى تحذر غضب رجاله وأنصاره رغم ما يأتيك من لدن نور الدين فى أمر البيعة والدعوة للخليفة العباسى ؟ »

قال صلاح الدين : « وكيف ذلك يا أبى ؟ »

قال نجم الدين : « ألم نكتب اليكم منذ عام أن تدعو للخليفة العباسى على منابر القاهرة .. فلماذا هذا التأخير ؟ »

فأطرق صلاح الدين لحظة .. وقد ظهر الاهتمام على محياه .. ثم رفع بصره الى أبيه وقال : « تدعونى الى المجاملة ثم تعاتبنى على تأخير الدعوة . وليست تلك الدعوة الا اعلان سيادة العباسيين على مصر وسقوط دولة الفاطميين . ولا يخفى عليك ما يكون من تأثير ذلك فى نفس هذا الخليفة المسكين . وما الذى يهمنا من مصر غير أن يكون لنا فيها الكلمة النافذة والصوت المسموع والربح المطلوب ؟ ولنترك هذا الخليفة الشاب يفرح بألقاب الخلفاء ومجاملاتهم حتى نرى ما يأتى به القدر .. ان اعلان سيادتنا على مصر أمر ميسور متى شئنا .. وعهدى بك انك تحب التؤدة »

قال نجم الدين : « نعم يابنى ، ولكن نور الدين يلح فى ذلك ، وقد وعد الخليفة العباسى المستنجد بالله أن يدعو له على منابر مصر . فلما تأخرت الدعوة بعث الخليفة اليه يستبطئه ، فكتب نور الدين اليك خطابا يستحثك فيه على ذلك . وقد أوفدنى لتبليغك هذه الرسالة وهذا هو كتابه » ودفع اليه الأنبوبة

فتناولها صلاح الدين وأخرج منها لفافة قرأها وأكثر من الامعان

فى فحواها ، ولاسيما قوله بعد التحريض على اعلان الدعوة :
« وهذا أمر تجب المبادرة اليه لتحظى بهذه الفضيلة الجليلة والمنقبة النبيلة قبل هجوم الموت وحضور الفوت . لاسيما وامام الوقت متطلع الى ذلك بكليته وهو عنده من آهم أمنيته »

وأطال صلاح الدين النظر فى ذلك الكتاب ، وأبوه يرقب ما يبدو فى وجهه من التغيير ، وقد أدرك ما فى خاطره فقال :
« ما بالك يا يوسف ؟.. ما الذى تحدثك نفسك به ؟ »

قال صلاح الدين : « تحدثنى نفسى بأمر لا تجهله ياسيدى »

قال نجم الدين : « لابد من اعلان الدعوة العباسية .. هل ذلك صعب عليك ؟ »

قال صلاح الدين : « كلا .. ولكننى أراك تتجاهل أمرا آخر أضمره »

قال نجم الدين : « فهمت مرادك .. انك تفكر فى أمر نورالدين وهل اذا أعلنت الدعوة فى المساجد للعباسيين تكون مصر ملحقة بالشام تابعة لنور الدين أم ..؟ »

فأبرقت أسارير صلاح الدين ولمعت عيناه وأتم كلام أبيه قائلا:
« أم لصلاح الدين وحده ؟ »

فابتسم أبوه وقال : « انك تتعجل أمرا لابد من التؤدة فيه ، انما يهمنا الآن الدعوة »

قال صلاح الدين : « أما الدعوة فسننظر فى أمرها ، ولكنك

لم توضح لى رأيك من الوجه الآخر »

قال نجم الدين : « وما هو ؟ »

قال صلاح الدين : « انت تعلمه ولكنك تريد أن تسمعه من فمى فاسمع : انى قد دبَّرت أمر مصر ونظمت شئونها بسيفى وتدبيرى وبسيف عمّى من قبلى .. ونور الدين جالس فى قصره بدمشق ، ومملكته واسعة ومماليكه كثيرون . فهل من العدل أن تكون مصر له أيضا ونبقى نحن من خدمه أو قواده ؟ ما الذى يمتاز به نور الدين عنا ؟.. هل ابتاعنا بماله ؟ نحن لسنا من مماليكه اننا قواد .. وهذه مصر يستحيل عليه اخضاعها بدونى .. فأنا لا أبايع للخليفة العباسى الا بشرط أن أكون أنا صاحب مصر وليس نور الدين .. »

وما أن أتم كلامه حتى ظهر الغضب على جبينه مع الاهتمام ، وتفرس فى وجه أبيه ليرى رأيه فى ذلك . فابتسم نجم الدين وقال : « بورك فيك يا يوسف انك تطلب السيادة . وأنت أهل لها .. ولكن لكل أجل كتاب »

قال صلاح الدين : « أحب أن أعلم رأيك . ألا ترى لى حقا فيما أقول ؟ »

فضحك نور الدين ضحك استخفاف ، وعبث بلحيته يمشطها بأصابعه ثم قال : « ان الحق يابنى للقوة .. تلك هى قاعدة أصحاب السياسة .. والا لوجب علينا أن نخرج من هذا البلد

وتركه لأهله لأن صاحبه انما استنجد بالأتابك نور الدين لينصره على رجل من خاصته تمرد عليه فأنجده بعمك أسد الدين، وأنت معه وكان ينبغى لكما أن تخرجا من مصر بعد الفراغ من تلك المهمة وتسلم ما تستحقانه من الأجر على صنيعكم .. فبقاؤك هنا سواء كان باسم نور الدين أو باسمك جشع . وانما تعده حقا اذا كنت تستطيع تنفيذه ، فالحق هو القوة يابنى .. تلك هى شريعة الفاتحين »

وكانت حجة نجم الدين قوية الى درجة لم يقو معها صلاح الدين على الدفاع وكاد يفحم .. لكنه كان طامعا فى البلد ويريد أن يتذرع بأية وسيلة كانت لتحقيق ما يريد .. فنهض وهو يتشاغل باصلاح عمامته الصغيرة ثم أخذ فى فتل شاربه وهو ينظر الى أحد جدران الغرفة التى كانا فيها ، ويتأمل صورا ملونة مرسومة هناك لم يشهدها من قبل . وبجانب كل صورة رف لطيف مذهب . فتقدم نحو الجدار وتفرس فى الصور ، فرأى تحت كل صورة اسم صاحبها . واذا هم من شعراء الدولة الفاطمية الذين كانوا يفدون على الخلفاء فى أيام مجدهم . وتذكر حديثا سمعه عن الخليفة الآمر بأحكام الله الفاطمى : انه حين بنى منظرة بركة الحبش صوّر الشعراء على جدرانها كل شاعر وبلده ، ونظم كل واحد منهم يومئذ قصيدة فى مدحه .. نقشت عند رأس الشاعر فى الصورة . وبجانب صورة كل منهم رف

مذهب . فلما دخل الآمر وقرأ الأشعار أمر أن يوضع على كل رف صرة مختومة فيها خمسون دينارا وأن يدخل كل شـاعر ويأخذ صرته بيده (١)

وقف صلاح الدين هنيهـة عند تلك الصورة وهو غارق فى الهواجس ، فأدرك أبوه ما يجول فى خاطره ، فسكت ليرى مايكون منه ، وتشاغل بالنهوض ثم أظهر انه يهم بالذهاب الى الفراش ، وصلاح الدين لايستطيع النوم قبل أن يوافقه أبوه على الطلب . فالتفت اليه وقال : « تمهل يا أبتـاه .. ان هذا الخليفة دعانا الى نصرته على الافرنج ، وأهل القاهرة أنفسهم راسلوا نور الدين وبذلوا له ثلث بلاد مصر اقطاعا ، ووافقوا على أن يقيم عمى أسد الدين عندهم وله الاقطاع هو ورجاله أيضا .. لا أن يقضى مهمته وينصرف كما تقول ، ثم نكث وزيره شاور ولم يف بما وعد .. فقتلته أنا بيدى فصفا لنا الجو . ولو لم أقتله لم يكن لنور الدين اقطاع ولا .. »

فقطع نجم الدين كلامه وهو يمشى نحوه ، وقال بلهجة الشيخ الوقور : « انك تخاصم نور الدين على غنيمة لا تزال فى حوزة أصحابها ، ولا يحق التنـازع بينكما عليها الا بعد اخراجها من قبضتهم . وهـذا لايكون الا بنقل الدعوة من الفاطميـين الى العباسيين ثم نرى بعد ذلك . وهذا يكفى الآن .. »

(١) المقريزى ٤٨٦ — الجزء الاول

وكان لنجم الدين نفوذ على ابنه مثل نفوذ السحر ، فاكتفى صلاح الدين بما سمعه وتحوّل وهو يقول : « أظنك فى حاجة الى النوم يا أبى » ، وأمر الخدم أن يهيئوا الفراش وذهب كل الى فراشه

— ٧ —

العاضد وأبو الحسن

أما الخليفة العاضد فقد تركناه فى قاعة الذهب بعد خروج نجم الدين وابنه ، ولم يبق معه الا أبو الحسن . فلما خرج الكرديان ، أمر الحاجب أن يأتى بصاحب الملابس لينزع عنه ثيابه وحليّه لأنه فى حاجة الى الراحة ، وأن لايأذن لأحد فى الدخول . فأتى صاحب الملابس واشتغل فى نزع العمامة وما عليها من الجواهر ، ووضع كل قطعة فى علبة خاصة بها ، وجاءت الوصيفات يحملن الثوب الآخر ليلبسه الخليفة ، وقد تغيرت سحنته وانقبضت أساريره واحمرت عيناه ، وشعر ببرودة اصطكت لها أسنانه وكبتاه حتى لم يعد يستطيع الوقوف . فبادر أبو الحسن اليه فأسنده وبالغ فى التخفيف عنه . ولكنه حالما لمس يده احس بحرارتها فعلم ان الخليفة مصاب بالحمى .. لكنه لم يشأ أن يزعجه ولما فرغ الخليفة من تبديل الثياب ألقى بنفسه على السرير ،

وقد أحس بضعف شديد .. فقال له أبو الحسن : « بماذا يشعر مولاى أمير المؤمنين ؟ »

قال الخليفة : « أشعر بارتعاد مفاصلى وببرد يتمشى فى ظهرى .. لا أظنه الا من عواقب الكظم وتحمل الضيم .. آه يا أبا الحسن .. » قال ذلك بصوت مختنق ثم تلألأ الدمع فى عينيه

فبادر أبو الحسن الى التهوين عليه فقال : « لكل أجل كتاب يامولاى . ولا بد من زوال هذه الأزمة »

فقال وهو يلهث من شدة الحمى : « شعرت بهذه القشعريرة منذ ركبت فى هذا الموكب للقاء هذا الكردى .. آه كيف أقوى على احتمالهم وقد سلبونى ما فى يدى من سيادة وثروة ؟ وأنا مع ذلك لا أستطيع الا أن أجاملهم وألاطفهم وأرحب بهم »

فمشط أبو الحسن لحيته بأنامله ، ثم قبض عليها وهو يتمتم كأنه يدعو أو يصلى ويظهر التقوى وسعة الصدر وقال : « لابد من الصبر يامولاى ولا شك ان الله سامع دعاءنا . فانى أصلى ليل نهار وأطلب اليه تعالى أن ينصفك من هؤلاء الظالمين .. »

فقال الخليفة : « الى متى الصبر يا أبا الحسن ؟.. كأنك لم تعلم بما فعلوه معى .. ولم تسمع الا مجاملتهم لى بالكلام ، ومخاطبتى بالامارة .. انهم لم يتركوا لى من هذه الامارة الا لفظها .. ان يوسف صلاح الدين هذا قد منع المؤذنين الآذان «حى على خير العمل» كما كانوا يفعلون فى دولتنا . وعزل قضاة

مصر لأنهم من شيعتنا وولّى قضاة شافعية (١) على مذهبه ، وقبض على مرافق البلاد بيد من حديد .. وتقول لى اصبر .. أين الصبر ؟ » قال ذلك وغصّ بريقه

وكان أبو الحسن صفراوى المزاج لفاويه ، لايبدو فى سحنته شىء من التأثرات مهما بلغ من تأثيرها فى قلبه ، أو لعل قلبه لايتأثر الا مما يريده ، أو هو يستطيع التظاهر بما يشاء من غضب أو فرح أو حزن بغير أن يكون ذلك ناتجا عن تأثر حقيقى .. فلما سمع قول الخليفة تنحنح وأظهر الاهتمام وقال : « لا أزال أقول لك اصبر . اعتمد علىّ فانى باذل نفسى فى سبيل هذا الأمر وهو يهمنى كما يهمك . أليست الدولة دولتنا والشيعة شيعتنا وفى حياتها حياتنا ، وفى موتها موتنا ؟.. لا سمح الله .. ثق بأنى فاعل ما تريد ، ،ولولا خوفى من الاثقال عليك لذكرت لك التفاصيل.. ولكنك الآن فى حاجة الى الراحة فامض الى فراشك اذا شئت .. وسأقص الخبر على الشريف الجليس وهو يقصه على مولاى ؟ »

فقال وهو يتململ من القشعريرة والسخونة : « افعل .. انى ذاهب الى دار النساء » قال ذلك ونهض فأعانه أبو الحسن على النهوض .. وأتى بعض الخصيان فتعاونوا على حمله على محفة فى دهليز يؤدى الى دار النساء ، فودعه أبو الحسن وقال : « أنا ذاهب بأمرك الى الشريف الجليس أقص عليه ما يسرك ثم يلحق

(١) حسن المحاضرة ٢٥ ــ الجزء الثانى

هو بك الى دار النساء »
فأشار الخليفة : أن افعل ..

وكانت دار النساء قصرا قائما بنفسه ، لكنه يؤدى الى قاعة الذهب بدهليز مسقوف لانتقال الخليفة اليه متى شاء . وللقصر باب خاص عليه الحرس من الخصيان ، وكان رئيسهم من عهد غير بعيد خصيا يسمى مؤتمن الخلافة ، فأتى عملا أغضب صلاح الدين فقتله ، وجعل مكانه الطواشى بهاء الدين قراقوش أحد رجاله المخلصين

وحالما صار العاضد فى تلك الدار أنزلوه من المحفة ، فمشى وهو يتوكأ على بعض الغلمان ، وهم يظنونه يطلب الذهاب الى حجرة احدى نسائه .. فاذا هو يشير اليهم أن يأخذوه الى حجرة أخته سيدة الملك ، وكانت امرأة عاقلة حازمة يرتاح العاضد لحديثها ويستأنس بآرائها .. كأنه وهو فى تلك الحال أحس بحاجته الى رأيها

— ٨ —

سيدة الملك

فساروا به فى رواق يؤدى الى غرفتها ، وهى منفردة عن سائر غرف القصر .. ولما بلغ السيدة أنه قادم ، خرجت لاستقباله

ورحبّت به ، وأعانته على الدخول الى غرفتها ، فجلس على مقعد وهى تقول له : « ما بال أخى أميرالمؤمنين؟ ممَّ يشكو؟ روحى فداه »

قال العاضد : « أشـكو من برودة وقشعريرة .. اصرفى الخدم .. فانى أحب السكينة وأن لايبقى فى هذه الغرفة غيرنا »

ففعلت .. وكانت سيدة الملك جميلة الخلقة ، طويلة القامة ، صبوحة الوجه ، ذهبية الشعر ، جذابة المنظر .. اذا نظرت فى وجهها شعرت بهيبـة تتجلّى فى عينيها . وهى أكبر من أخيها الخليفة ببضع سنين.. فقد كانت فى الخامسة والعشرين من العمر

فلما خلت به جلست بجانبه على السرير ، وطوقت عنقه بيدها وهى تقول : « ما بال أخى ؟ مم يشكو ؟ حماه الله من كل أذى . اذا اعتل أمير المؤمنين اعتل الناس جميعا »

فأسند رأسه الى كتفها وتنفس الصعداء وهو يقول : « أشكو حسب الظاهر من حمى تنتابنى .. لكن العلة الحقيقية فى هـذا القلب .. » وأشار الى صدره . ثم أرخى يده من شدة الحمى ، فجستها فرأتها شديدة الحرارة فقالت : «هل أدعو لك الطبيب ؟»

قال العاضد : « كلا .. ان هـذه الحمى ستنصرف الليلة . ولكن اذا كنت تعرفين طبيبا ينقذنى من أولئك الأكراد فادعيه »

فأظهرت انها تمازحه وقالت : « لو عرفت طبيبا فى الهنـد وعلمت انه يشفيك لذهبت اليه بنفسى ، ولكن .. »

فرفع رأسه عن كتفها ليعاتبها بنظره .. فوقعت عمامته ، فمد يده ليتناولها فتناولتها هي ووضعتها على رأسه فقال : « انك تتجاهلين ياسيدة الملك .. انك أفطن من أن تنتبهى الى مرادى بالطبيب »

فضحكت وقالت : « هب انى فهمت مرادك فأنا لا أرى الأمر يستوجب الاهتمام الى هذا الحد .. اصبر لابد من الفرج .. »

فتنهد وهو ملق رأسه على كتفها ثم حوّل عينيه نحو وجهها وقال : « لم أجد بين رجالى من يسعفنى فى هذا الأمر الا ابن عمنا أبا الحسن ، فانه تقى غيور .. وقد أكّد لى انه باذل جهده فى هذا السبيل »

فلما سمعت اسم أبى الحسن أجفلت ، وكادت البغتة تظهر فى وجهها لو لم تبادر الى التجلد . ولو انتبه العاضد وهو مستلق على صدرها لشعر بتسارع ضربات قلبها حالما سمعت ذلك الاسم . لكنه كان فى شغل من أمر نفســه . أما هى فتجلدت وقالت : « كيف أكّد لك ذلك ؟ »

قال العاضد : « أكّده لى اليوم وســيذكر تفصيله للشريف الجليس ، وهو يقص علينا ذلك متى جاء بعد قليل .. »

قالت سيدة الملك : « هل تصدق هذا الرجل ؟ » وبان الكدر فى عينيها

قال العاضد : « كيف لا أصدقه ؟.. انه رجل محب مخلص

ومن ذوى قرابتنا ، وأنت تعلمين غيرته على دولتنا »

فهزت رأسها وسكتت ، ولسان حالها يقول : « انه منافق كذاب »

فاعتدل العاضد فى مجلسه لأن الحمى أخذت فى الهبوط ، واشتدت عزيمته وقبض على يد أخته وهو يقول : « أرى الحمى تخف وطأتها عنى ، أليس كذلك ؟ انت ياسيدة الملك سيئة الظن بهذا الرجل منذ عرفناه لغير سبب أو دليل .. فانه من أبناء عمنا .. نعم انه ليس من أحفاد الحافظ لدين الله جدنا . ولكنه من أحفاد الآمر بأحكام الله فهو من أعمامنا .. »

قالت سيدة الملك : « حسن .. فليكن ما تشاء » وتشاغلت بطرف ضفيرتها الذهبية تفتلها بين أناملها ، وبان الغضب فى وجهها

فقال العاضد : « وما الذى يغضبك من ذكره ؟ انك تكرهينه بلا سبب وهو بعكس ذلك . لم أسمع منه الا التعلق بك .. انه يتفانى فى سبيل رضاك »

فنظرت اليه شزرا نظر العاتب وقالت : « أكثر الله من أمثاله .. انى لا ألتمس هذا الرضى »

قال العاضد : « لاحاجة بنا الى التمسك بالرفض وهو ابن عمنا »

فقالت بصوت المرتاب : « ومن يؤكد لنا صدق انتسابه الى الآمر ؟ ليس عنده دليل غير شهادته لنفسه .. دعنا منه انه لايستحق

هذا الاهتمام »

قال العاضد : « انك تظلمينه بهذا الحكم » وأراد أن يتم كلامه فاذا بأحد الغلمان قد دخل ووقف ، فعلمت سيدة الملك انه آت بخبر فقالت : « ما وراءك ؟ »

قال الغلام : « ان الشريف الجليس بباب القصر يطلب المثول بين يدى مولانا أمير المؤمنين .. والطواشى بهاء الدين قراقوش يمنعه »

فالتفتت الى الخليفة وسألته اذا كان يشعر براحـة تؤهـله لمجالسة الشريف الجليس فقال : « انى أشعر براحة فليأت »

فالتفتت الى الغلام وقالت : « امض الى الطواشى وقل له ان أمير المؤمنين هنا يريد أن يرى الشريف الجليس فلا يمنعه من الدخول »

فمضى الغلام .. وأحست سيدة الملك باستياء أخيها من معاملة بهاء الدين ، ولكنها تجاهلت . وبعد قليل جاء الجليس ، وهو شـيخ طـاعن فى السن يجالس الخليفة ويؤانسه ويحدثه وهو مستودع أسراره

فلمـا رآه الخليـفة هش له وأمره بالجلوس بين يديه . ولم تحتجب سيدة الملك عنه لأنه من المقربين ، وقد تعودت رؤيته من صغرها ، فاكتفت بتغطية شعرها والالتفاف بمطرف من الخز فوق أثوابها ، وجلست على كرسى بجانب سرير أخيها

أما الخليفة فنظر الى الجليس نظرة استفهام عما جاء به ، فأدرك غرضه فقال : « جئت للسؤال عن صحة مولاى .. فقد بلغنى من الشريف أبى الحسن انك أصبت بحمى .. لا أصابك الله بسوء وأرواحنا فداك »

فابتسم وقد استلطف عبارة الجليس ، وقال : « انى بدعائك وحسن نيتك قـد زال عنى كل بأس . جس يدى .. قد ذهبت الحمى .. ما الذى جئتنا به غير ذلك ؟ »

فجس يده وأشار بعينيه اشارة الاقتناع ، وان لم يقتنع لأن الحمى كانت لا تزال مرتفعة ، وقال : « نحمد الله على ذلك »

فقال الخليفة : « قل ما الذى جئتنا به ؟ »

قال : « خيرا ان شاء الله » وظهر فى ملامح وجهه انه يكتم شيئا لا يستحسن ذكره بين يدى سيدة الملك

فأدركت ذلك فنهضـت وقالت : « اذا كان وجـودى يمنع الجليس من الكلام فانى خارجة »

فأمسك أخوها بثوبها وقال : « اجلسى .. لست ممن يكتم عنهم .. تكلم يا عماه قل ما الذى جئت به ؟ »

قال : « انى جئت بأمر ذى بال .. هل تأذن أن أقول كل شىء ؟ »

قال الخليفة : « قل .. لا تخف .. ما الذى أطلعك عليه أبو الحسن من مساعيه فى سبيل مصلحتنا ؟ انه محب غيور ؟ »

قال : « أصبت ياسيدى ان أبا الحسن شـديد الغيرة على منصب أمير المؤمنين وهو ساع فى انقاذنا من هذا العدو المقيم »
قال الخليفة : « سمعته يقول ذلك لكنه وعد بتفصيله . فهل فصّله لك ؟ »
قال : « فصّله تفصيلا أعجبنى »
فتوجّه الخليفة نحو الجليس بلهفة وقال : « وما هو ؟ »

— ٩ —

الحشاشون

قال الجليس وهو يخفض صوته ويتطاول بعنقه كأنه يحاذر أن يسمعه أحد : « يرى أبو الحسن يامولاى ان العقدة التى يطلب حلها انما هى يوسف صلاح الدين هذا . فاذا ذهب تخلصنا من كل هذه الشرور .. وأبو الحسن يسعى فى انقاذنا منه »
فقال العاضد : « وكيف ينقذنا ؟ »
فأشار الجليس بكفه على عنقه اشارة الذبح يعنى انه يقتله . فبان الاستغراب فى وجه الخليفة وقال : « من يقتله ؟ ليس فى مصر كلها من يجسر أن يمد يده اليه »
قال الجليس : « ليست هذه خطته .. انه سيقتل هـذا الرجل بدون أن يعرف القاتل »

قال الخليفة : « وكيف يمكن ذلك ؟ »

قال الجليس : « ألا يعرف مولاى جماعة الباطنية أو الاسماعيلية .. »

فأجفل العاضد عند سماع ذلك الاسم وقال : « نعم أسمع بهم وأسمع انهم من أنصارنا »

قال الجليس : « أصلهم من شيعتنا ، ولكنهم الآن قوم شغلهم القتل »

فقطع الخليفة كلامه وقال : « ليس هـذا شأنهم اليوم فقط . أظنك حدثتنى عن أفعالهم غير مرة .. ألم تقل لى انهم قتلوا الملك الافضل أمير الجيوش وزير الآمر بأحكام الله . وكان رئيسهم يومئذ يدعى بهرام . وهم قتلوا نظام الملك وزير ملك شاه السلجوقى وقتلوا غيره ؟ »

قال الجليس : « نعم ياسيدى وقتلوا كثيرين غيرهم .. هـذا هو شغلهم »

فقال العاضد : « من هو زعيمهم الآن ، وأين هم ؟ »

قال الجليس : « ان أصلهم ياسيدى من أتباع الحسن بن الصباح فى زمن جدك الحاكم بأمر الله — رحمه الله — أى منذ أكثر من مائة وخمسين سنة . فأقام حسن هذا فى قلعة الاموت قرب قزوين . وألف جمعية من الفدائيين الذين لايخافون الموت . ويعرفون بالحشيشية أو الحشاشين نسبة الى عقار مخدر يتناولونه

يسمونه الحشيشة . وتوالى عليهم زعماء كثيرون فى بلاد فارس والعراق والشام . وزعيمهم الآن يقال له راشد الدين سنان ، يقيم فى جبل السماق من أعمال حلب ، يعتصم هناك بالقلاع وعنده رجال مجربون يطيعونه حتى الموت . اذا أمر أحدهم بقتل ملك أو سلطان بادر الى الطاعة حالا . وقد قتلوا كثيرين كما ذكرت . وللشريف أبى الحسن صداقة شخصية مع سنان هذا بالنظر الى نسبه الشريف ، وله عليه دالة فاذا أمر بأن يبعث رجلا يقتل هذا الرجل فعل .. »

فبان السرور فى عينى العاضد يخالطه الاستغراب ، وقال : « وكيف يستطيع القاتل أن ينجو من هذا المعسكر ؟.. وكيف يقوم بعمله هذا الذى تعترضه سدود وعراقيل كما تعلم »

قال الجليس : « ان هؤلاء الفدائيين يتنكرون عادة بملابس السياس أو الخدم ، ويختلطون بالخدم زمنا يترقبون الفرص ، فاذا سنحت فرصة حققوا غرضهم .. ثم لايهمهم ماذا يصيبهم بعد ذلك ، ولا يبالون بالموت لأنهم يرون القتل فى هذا السبيل حياة سعيدة .. »

فالتفت الخليفة الى أخته يلتمس مشاركتها اياه فى الاعجاب . فرآها مطرقة تفكر ، فقال لها : « أرأيت اهتمام هذا الشريف بمصلحتنا ؟ »

فظلت ساكتة ، ولم تجب ..

فالتفت الى الجليس ، وقال : « هل أخبرك متى يباشر هـذا العمل ؟ »

فتشاغل الشيخ بحك أنفه وسعل وتنحنح وبان الارتباك فى عينيه فلم ينتبه الخليفة له . أما سيدة الملك فلم يفتها ما ينطوى تحت تلك الحركات ، فأخذت تختلس النظر وتصيخ بسمعها فاذا هو يقول : « انه يامولاى يشترط على هذا العمل شرطا واحدا »

قال الخليفة : « وما هو ؟ أظنه يعنى الزواج بأختى .. »

فأجفلت سيدة الملك عند هذا التصريح المفاجىء ، لكنها حولت وجهها الى ستارة معلقة بالحائط مطرزة بألوان بديعة ، فيها صور الطيور والأشجار تأخذ بالأبصار ، وأظهرت انها تتفرس فى بعض صورها

أما الجليس فقال : « لم يذكر ذلك لى ولكن .. مولاى يعلم .. ان أبا الحسن عريق فى النسب الشريف .. وهو .. أكبر أبناء عمكم المرشحين لولاية العهد سنا .. و .. و .. »

فلاحظت سيدة الملك غرضه فبادرت الى الانتقام من تأثير عبارة أخيها عن زواجها فقالت : « أظنه يشترط أن يكون وليا للعهد بعد أمير المؤمنين .. »

فأجاب الشريف بسرعة كأنه يعتذر عن تطاول أبى الحسن قائلا: « ان طلبه هذا من قبيل الجنون . ولا معنى له لأن مولانا أمير المؤمنين أطال الله بقاءه وعجل موتنا قبل أن يصاب بسوء ، لايزال

شابا فى مقتبل العمر وأبو الحسن فى حدود الـكهولة . ولكنه يشترط ذلك ترضية لنفسه على تحمل تلك المشقة ، مع ما يحدق بها من الخطر .. ومن يدرى هل يبقى حيا يوما واحدا بعد تنفيذ مهمته ؟ »

فقال الخليفة : «يشترط أن يكون ولى عهد الخلافة بعدى؟»

قال : « أطال الله عمر أمير المؤمنين ، ان الرجل لايرجو أن يتولى الحكم ، ولكنه يحب أن يتمتع بولاية العهد فقط على ما يظهر »

فأطرق الخليفة وهو يعمل فكرته والتردد ظاهر فى عينيه ، ثم رفع بصره الى الجليس وقال : « وما رأيك ؟ »

قال الجليس : « اذا أذن لى مولاى أرى أن يوليه الولاية ويشترط فى عقدها أن تكون بعده الى نجلكم سيدى الحامد لله الأمير داود ولى العهد الحقيقى ، فاذا استطاع انقاذنا من هـذا الكردى واعادة النفوذ الى مولاى أمير المؤمنين فانه يكون قـد استطاع عمـلا لم يستطعه سواه ، وتكون ولاية العهد ترضيه معنوية له »

– ١٠ –

حرية الفكر

ولاحظت سيدة الملك أن أخاها أوشك أن يقبل ، وظهر لها من خلال حديثه انه راض بأن يزوجها به ، وهى لا تستطيع أن تتصوره ، بل هى تكرهه كرها شديدا لغير سبب سوى الشعور الذاتى .. فانها تتصور فيه الخبث والخيانة وهى منصفة لا ترى أن صلاح الدين يستحق القتل لأنه لم يعمل عملا يستوجب ذلك ، وانما هى نعرة السيادة تحمل طلابها على انتحال الأسباب الباطلة فنظرت الى أخيها وقالت : « تريد أن تقتل صلاح الدين وتستبدله بأبى الحسن هذا ؟ »

قال الخليفة : « لا أستبدله .. لكنه اذا استطاع قتله سميته ولى العهد »

قالت سيدة الملك : « وماذا تفعل بداود ابنك ؟ »

قال الخليفة : « يكون وليا للعهد بعده »

قالت سيدة الملك : « ولماذا هذا العمل ؟ ولماذا تريد التخلص من صلاح الدين ؟ وترتكب كل هذه الآثام والأخطار فى سبيل قتله .. ماذا فعل ؟ »

قال الخليفة : « تسألينني عما فعله ، كأنك لا تعلمينه ؟ »

قالت سيدة الملك : « ربما كنت أعلمه لكننى أحب أن يقول ذلك أمير المؤمنين بنفسه »

قال الخليفة : « انه جعل كل النفوذ لنفسه ، ولم يبق لى من السيادة غير الاسم »

قالت سيدة الملك : « وهل كان النفوذ لك من قبل ؟ ألم يكن الوزراء هم أصحاب النفـوذ ؟ وكلهم من الأجانب الأرمن أو الأتراك ، وهذا كردى .. فما الفرق بينهم ؟.. »

فقال الخليفة : « لكنه استبد .. وغيَّر وبدل .. و .. »

فأحست انها فازت عليه بالبرهان فلم تصبر حتى يتم كلامه ، فقالت : « اذا كان قد استبد فانما استبد فى رفع المظالم عن الناس. كانت الضرائب لا تحتمل فرفعها أو خففها .. هل من أجل ذلك تدس الدسائس عليه وتكيد المكايد لقتله ؟ ان الساعين فى ذلك هم طلاب السلطة يحسدون الرجل على مكانته ، فيثيرون غضب أمير المؤمنين عليه . واذا شاء أخى أن يعرف حقيقة منزلة هـذا الكردى فليتذكر الطريقة التى استنجدنا بها سلطانه نور الدين . ألم ترسل شعورنا مع كتاب الى نور الدين تقول فيه : « هـذه شعور نسائى فى قصرى يستغثن بك لتتقذهن من الصليبيين ؟ » فالرجل لبَّى الطلب وأنجدك بأسد الدين وابن أخيه هذا يوسف صلاح الدين .. هل يستنجد قائد بطريقة أذل من هـذه ؟ ان شعرى لايزال ينقص تلك الخصلة التى قطعتها منه » قالت ذلك

وجست ضفائرها كأنها تتحقق من ذلك . ثم عادت الى الحديث فقالت : « ومع ذلك فقد اشترطنا لنور الدين أن نعطيه ثلث البلاد اقطاعا غير اقطاع رجاله . ولما أتوا وأنقذونا من الافرنج نسينا جميلهم وصار وزيرك شاور يدافعهم ويماطلهم فقتلوه .. ويشهد الله ان صلاح الدين أحسن قلبا وأشد اخلاصا لك من شاور هذا . لكننا لم نستفد من هذا الحادث فشجعنا الخصى مؤتمن الخلافة ، قيّم هذه الدار ، على مناهضة صلاح الدين ورجاله حسدا منه . ألا يعلم مولاى وأخى ماذا فعل مؤتمن الخلافة ؟ انه اتفق مع جماعة من المصريين على مكاتبة الصليبيين ليتحد معهم على قتل صلاح الدين . فهل فعل ذلك غيرة عليك أو على الدولة ؟ وبلغ خبره الى صلاح الدين فقتله ، فغضب خصيان القصر لمقتله لأنهم سود من جنسه ، فاجتمع منهم خمسون ألفا وناهضوا رجال صلاح الدين والتقى الجيشان أمام هذا القصر ونحن فيه . لاأنسى هول ذلك اليوم ولا أنسى أمير المؤمنين يومئذ وقد جلس فى المنظرة يشرف على المقاتلة وهواه مع الخصيان .. فاشتدت عزائمهم وخاف صلاح الدين أن تعود العائدة عليه وعلى رجاله ، فأمر النفاطين أن يرموا قوارير النفط المشتعل على المنظرة وعلى القصر .. و .. »

فقطع الخليفة كلامها قائلا : « ولكننى شجعت رجال صلاح الدين فأرسلت زعيم الخلافة يقول : دونكم والكلاب العبيد

اخرجوهم من بلادكم .. فامتنعوا عن ارسال النفط »

قالت سيدة الملك : « ولكنك لم تقل ذلك الا خوفا على المنظرة من الحريق » وكانت سيدة الملك تتكلم بحماسة وكل جوارحها تتكلم معها ، وقد توردت وجنتاها وأبرقت عيناها .. فلما وصلت الى ذكرى الحريق امتقع لونها وتغيرت ملامحها ، وكأنها فوجئت بذكرى محزنة فتوقفت عن الكلام .. فاستغرب أخوها تغيرها فجأة ، والتفت الى الجليس فرآه ينظر اليها أيضا

أما هى فتجلدت وعادت الى الكلام قائلة : « ولم يكن كلامك وحده الذى أوقفهم .. »

قال الخليفة : « وكيف ذلك ؟ »

قالت سيدة الملك : « دعنا من هذا الموضوع الآن .. لأن فى ذكراه ما يؤلمنى ويؤلمك .. وانت أحوج الى الراحة والسكينة » وتشاغلت باصلاح نقابها على رأسها

فجس العاضد يده وقال : « انى بخير ولا بأس علىَّ ، وقد زالت الحمى والحمد لله . قولى ما هو السبب الآخر »

قالت سيدة الملك : « هل أقول ؟ »

قال الخليفة : « قولى .. »

- ١١ -

خصلة الشعر

فمدت يدها الى جيبها وأخرجت خصلة من الشعر ذهبية من لون شعرها ودفعتها اليه وهى تقول : « هل تعرف هذا الشعر؟»

فأجفل وقال : « هو شعرك .. هذه هى الخصلة التى قطعتها من شعرك وأرسلتها فى جملة شعور نسائى الى صاحب دمشق .. من أين أتتك ؟ وكيف وصلت اليك ؟ »

قالت سيدة الملك : « وصلتنى فى ذلك اليوم الذى نشبت فيه الحرب بين عبيدنا ورجال صلاح الدين »

قال الخليفة : « وكيف ذلك ؟ »

قالت سيدة الملك : « قد ذكرت أنت الآن ان صـلاح الدين منع رجاله من ارسال قوارير النفط قبل أن ينطلق منها شىء على القصر .. قد يكون هذا هو الواقع لكننى أعلم اننا ونحن فى هذا القصر وقلوبنا ترتجف هلعا ، والسهام تترامى علينـا من رجال صلاح الدين، رأيت قارورة مشتعلة وقعت فى الدار قرب حجرتى هذه ، لا أدرى من أين أتت ، فذعرت وصحت بالخدم أن يتلافوا خطرها ، فلم يسمعنى أحد لاشتغال الرجال برمى النشاب بعيدا عنى ..

« وبينما أنا فى ذلك ، وأهل القصركل منهم فىشاغل من نفسه ،

اذ رأيت رجلا متنكرا بثوب الخصيان قد غطى وجهه باللثام وثب من داخل الدار .. لا أدرى كيف دخلها .. فذعرت ولكننى ظننته أسرع الى نجدتى فما لبثت أن رأيته أمسك بيدى وجذبنى نحوه كأنه يريد أن أتبعه ، فتخلصت منه .. فعاد وأمسكنى ثانية وجذبنى اليه كأنه يريد أن يحملنى ويطير بى . ولم يكن فى هذه الغرفة أحـد يرانى ، فصحت واستغثت فلم يسمع صوتى لأن الضوضاء كانت قد ملأت هذا الفضاء ، ثم جاء رجل آخر أعان الأول على اجتـذابى ، وهما يشيران الىّ أن أتبعهما حالا ، وهددنى أحدهما بخنجر استله من منطقته فأثر فىّ ذلك المنظر وخارت قواى . وكدت أغلب على أمرى وقد ذهب نقابى وانحل شعرى . وبينما أنا فى ذلك اذ رأيت شابا وثب نحوى يظهر من ملابسه انه من رجال صـلاح الدين فأيقنت انه سـيعين ذينك الرجلين علىّ ، واذا به قد صاح بهما صيحة الجبارين ، وخنجره مسلول فى يده وأوشك أن يقتلهما جميعا ، فلما رأياه خافا وتركانى وركنا الى الفرار .. وظل هو واقفا كالأسد ، ونظر الىّ بلطف وقال : « من هم أولئك الأنذال ؟» قلت : « لا أعلم.. ومن أنت؟ وماذا تريد منى ؟ » فقال : « لا تخافى ياسيدتى .. انى من رجال صلاح الدين المحاصرين لهـذا القصر ، ورأيت ذينك الرجلين يعذبانك وحين رأيت شعرك الذهبى علمت انك من نساء الخليفة ، فبادرت الى انقاذك وأحمد الله انى قد فزت » فسألته : « هل

علينا بأس من الاحراق ؟.. » فأكد لى انهم لم يلقوا نفطا علينا ، وانما كان ذلك من بعض اللصوص رموا النفط من جهة أخرى لغرضلهم. ولعلهمأرادوا أن يشغلوا الناس بالنار ويختطفونى..»

ولما وصلت سيدة الملك الى هـذه العبـارة تغيرت سحنتها ، وتوردت وجنتاها وبلعت ريقها وهى تلهث من التأثر

وكان الخليفة والجليس يسمعان كلامها ، ويرقبان الحماسـة التى كانت تتجلى فى محياها ، ولاحظا التغير الذى طرأ عليها عند ذكر ذلك الشاب ، ولم ينتبها لما يخالج قلبها من جهته . فلمـا سكتت قال العاضد : « من هو هذا الشاب ؟.. وكيف عرف انك من نساء الخليفة ؟.. انه لأمر غريب . كيف يعرفك شاب غريب وأنت لا تخرجين الا متحجبة ؟.. وهذا مع ذلك من رجال صلاح الدين .. قولى الحق »

قالت وهى تنظر اليه شزرا : « انك تتهمنى يا أمير المؤمنين . ولا مكان للشك .. قد سألت هذا الشاب كيف عرفنى فمد يده الى جيبه وأخرج هذه الخصلة ودفعها الى وقال : أليست هـذه من شعرك وأدناها من شعر رأسى فاذا هما بلون واحد »

فابتدرها الخليفة قائلا : « لمس شعر رأسك بيده ؟ »

قالت سيدة الملك : « لم يلمســه ، ولكنه أدنى الخصلة من شعرى .. انه شاب غير متهم وأنا مدينة له بحياتى وشرفى ، ولولاه لذهبت فريسة لذلك الخائن .. » وصرَّت على أسنانها

قال الخليفة : « ألم تعرفى من هو ؟.. »

قالت سيدة الملك : « لم أعرفه يقينا .. ولكننى اشتبهت فى أمره »

قال الخليفة : « من هو ؟.. قولى .. »

قالت سيدة الملك : « لا أقول .. لأنى أخشى أن يخطىء ظنى فأورث الأذى لرجل برىء . .ولولا ذلك لأطلعتك على هذا الحادث من ذلك اليوم ، وقد مضى عليه الآن أكثر من سنة ، ولم أذكره لك لئلا ألقى الشك فى خاطرك »

فصاح العاضد وقد امتقع لونه من شدة الغضب : « لماذا لم تخبرينى حتى الآن .. أيصيبك مثل هذا الأمر وتكتمينه طول هذه المدة ؟ من تجاسر على هذا العمل ؟.. من تظنين ذلك الرجل ؟ قولى .. »

قالت سيدة الملك : « لا تغضب يا أخى . انى لم أقل ولا أقول الآن خوف الوقيعة بالأبرياء ، وقد نجوت والحمد لله . ولكننى قصرت فى حق ذلك الشهم الذى أنقذنى » وحالما ذكرته أبرقت عيناها ، ولو تفحص أخوها صدرها لرأى قلبها يخفق خفقانا سريعا . لكنه لم يدرك ذلك ، فقال : « ألا تعرفين اسم الذى أنقذك ؟.. من هو ؟ »

قالت سيدة الملك : « لم أسأله عن اسمه وكنت أتوقع أن يأتيك فى اليوم التالى ، ويقص عليك الواقع فتكافئه ، فالظاهر

انه لم يفعل .. وأنا لم أتمكن من رؤيته ، أما هو فبعد أن اطمأن على وتحقق من نجاتى من الخطر دفع الى هذه الخصـلة وهو يقول : « خذى ياسيدتى هذه الخصلة من شعرك .. صيانة لها من أن يمسها غير مستحقيها . ولم يكن يجدر بالخليفة أن يرسلها وسيلة للاستغاثة » قال ذلك وانصرف مسرعا سرعة البرق ولم أعد أراه منذ ذلك الحين »

- ١٢ -

من تتهمين؟

فأخذ صدر الخليفة يغلى من شدة الحنق ، ونسى ضعفه فى ذلك اليوم .. ولم يتمـالك عن النهوض بسرعة ، وقبض على الخصلة واجتذبها من يد سيدة الملك ، وجعل يتفرس فيها ويقابلها بسـائر الشعر .. فاذا هى لا تختلف عنه ، فالتفت الى الجليس وقال : « ماذا ترى ياعماه ؟.. كيف يدخل الغرباء قصرى ومعهم شعور نسائى .. ولكن آه .. أنا المذنب لأنى تسرعت فى الاستغاثة فأرسلت شعور نسائى الى صاحب دمشق .. ولكن كيف وصلت هذه الخصلة الى هـذا الشاب ، وكيف احتفظ بها حتى عرف صاحبتها ؟.. لست أدرى »

وكان الجليس يسمع ويرى وقد أخذته الدهشة ، فلما رأى

غضب الخليفة وشدة تأثره قال : « خفف عنك ياسيدى .. لكل شيء سبب ولا يهمنا سبب وصول هذه الخصلة الى ذلك الكردى بقدر ما يهمنا معرفة الرجل المتنكر الذى أراد اختطاف مولاتى سيدة الملك .. من يجسر على ذلك ؟ »

فالتفت العاضد الى أخته وقال : « قولى .. قولى .. من تتهمين ؟ من هو ذلك النذل الذى تجاسر على دخول قصرى وخرق حرمتى ؟.. » قال ذلك وهو يلهث وقد احمرت عيناه وأرجع الخصلة اليها ، ورجع الى مقعده وقد أحس بانحلال قواه

فتقدمت أخته نحوه وأخذت تخفف عنه وتمسح جبينه وتقول له : « لا تغضب يا أخى .. اسمح لى أن لا أذكر اسم الرجل الذى اتهمه لأنى اتهمته بمجرد الظن ، وبعض الظن اثم . وأنا واثقة ان هذه التهمة مهما كانت ضعيفة تكفى لايقاع الأذى بصاحبها . فحرام على أن أعرض نفسا للهلاك »

قال الخليفة : « وحياة رأسى الا قلت من هو ذلك الخائن وأعدك أن لا أسارع الى الانتقام الا بعد التبصر »

فأطرقت وهى تصلح نقابها على رأسها ، ثم جعلت تلاعب خصلة الشعر بين أناملها ، وأخوها شاخص اليها ينتظر أن تتكلم .. فلما استبطأ جوابها قال : « ما بالك لا تقولين ؟ »

قالت سيدة الملك : « بالله دعنى .. سأقول لك ذلك بعد الآن دعنى أفكر قليلا .. »

فالتفت الشيخ الجليس الى العاضد وقال : « دعها يامولاى الآن ، ولا تغضبها . وستقول لنا .. وليس فى الأمر ما يدعو الى العجلة ، ولنرجع الآن الى ما كنا فيه من أمر النجاة من هؤلاء

فلما سمعت سيدة الملك ذلك ، اقشعر بدنها .. ولكنها تمالكت وصبرت لتسمع ما يقوله أخوها ، فالتفت الى الجليس وقال : « هو يعدنا بقتل الرجل ويطلب ولاية العهد مكافأة له .. فنحن نعده بذلك »

قال الجليس : « وعد أمير المؤمنين يكفى وقوله حجة ، لكن أبا الحسن لايصدقنى .. فهل تكتب له كلمة ؟ »

قال الخليفة : « لا .. لا .. يكفى أن تقول له ذلك شفاها »

فقال الجليس : « حسـنا .. سـأقول له .. ولكن هناك .. » وسكت وهو يتشاغل بحك لحيته ، كأنه يكتم أمرا آخر يخشى أن يجاهر به

فقال العاضد : « ولكن هناك ماذا ؟ قل .. »

قال الجليس : « أخاف أن تغضب سيدتى الأميرة لأنها .. » وسكت

فقالت سـيدة الملك : « ما الذى يغضبنى .. كيف عرفت انه يغضبنى ؟ »

فتبسم وقال : « قد أدركت من خلال حديثك انك لا تحبين أبا الحسن »



« قال الخليفة : وحياة راسي .. ألا قلت من هو ذلك الخائن ،
وأعدك أن لا أسارع الى الانتقام الى بعد التبصر »

فابتدرته قائلة : « ولماذا أحبه وهل هو يطلب منى ذلك ؟ »

قال العاضد : « لا .. لكنه يلتمس التقرب من أمير المؤمنين والتشرف بـ .. »

قالت سيدة الملك : « بماذا ؟ »

فالتفت الجليس الى العاضد وقال : « هل أقول يامولاى ؟ »

قال العاضد : « قل بماذا يريد أن يتشرف ؟ أظننى علمت مراده لأنه طالما لمح الى ذلك فى حديثه معى .. والحق يقال انه كفء لما يطلبه .. »

وتنحنح وحوّل وجهه نحو سيدة الملك ..

فأدركت ما يعنيه .. وكان قد ذكر لها مرة قبل هذه رغبة أبى الحسن فى الزواج بها فرفضت . فلما سمعته يشير الى ذلك تجاهلت وقالت : « لم أفهم مرادك .. ماذا تعنى ؟ »

فقال العاضد : « أظنك فهمت ما أعنيه » والتفت الى الجليس وقال : « ما هو رأيك فى هذا الأمر يا عماه .. انى لا أرى أكفأ من أبى الحسن لأختى »

فاعتدل الجليس فى مقعده وقال : « لاريب انه خير كفء لما يتصل به من النسب الشريف فضلا عن تعقله ودهائه . ويكفى ما رأيناه من تفانيه فى مصلحة مولاى لانقاذه من هؤلاء القوم . والذى أراه أن نوافقه على هذا الطلب فيهون عليه السكوت عن الشرط الآخر .. أعنى اذا كان جواب مولاى من حيث خطبة

مولاتى له بالايجاب لا أظنه يشدد فى طلب الشرط بولاية العهد بل يكتفى بهذا لأنه شديد الاحترام لسيدة الملك ، وبعد حصوله عليها منة كبرى . وعند ذلك يكون هو عونا لنا فيما نريد بلا شرط »

فلما سمعت سيدة الملك ذلك التصريح قالت وهى تحاول خفض صوتها : « هو يطلب أن يتزوجنى وأنت تستحسن ذلك ؟ وأحب أن أعرف رأى أخى أمير المؤمنين أيضا »

فظن أنها تعنى ما تقوله حقيقة ، وهو يريد أن تقبل طمعا فى النجاة من صلاح الدين فقال : « وهذا هو رأيى أيضا كما تعلمين من قبل »

فأجابت ببرود : « لكنه ليس رأيى أنا .. » وحولت وجهها عنه

فقال العاضد : « يظهر انك لا تزالين على خطئك .. ان أبا الحسن ليس فى أهلنا جميعا من هو أكفأ منه لك .. فضلا عن تفانيه فى خدمتنا »

فقالت سيدة الملك : « انى لا أطلب كفؤا ولا غير كفء ، قلت لك من قبل انى لا أطلب الزواج .. دعنا من هذا الآن .. »

فقال الجليس : « ولكن ياسيدتى .. اذا قبلت فانك تخدمين مصلحة مولانا أمير المؤمنين لأن أبا الحسن أقدر انسان فى الدنيا على انقاذه .. »

قالت وهى تنظر اليه نظر الاستخفاف : « ان أبا الحسن كاذب..

انه لايستطيع شيئا من ذلك »

فضحك الجليس ضحك استعطاف ، وقال : « قد ظلمته بهذا الحكم ياسيدتى .. لأنى على يقين من تفانيه فى خدمة مولانا وهو صادق الغيرة على شرف آل البيت لأنه من صميمهم »

فقالت سيدة الملك : « وهو كاذب فى هـذا أيضا .. ان آل البيت عرفوا بصـدق اللهجة والاخلاص وهـذا رجل منافق ، وكفى »

فامتعض العاضد من حكمها بهذه الصراحة وقال : « لا دليل على ما تقولين .. لقد عرفت الرجل منذ بضعة أعوام ، ولم أر منه الا كل مودة واخلاص .. ولا أعلم كيف جاز لك الحكم عليه بالكذب والنفاق »

قالت سيدة الملك : « أما أنا فأعلم .. وسـتبدى لك الأيام صدق قولى .. أظنك قد تعبت يا أخى ، وأتأسف لأننا شططنا بالحديث الى هذا الحد .. وأنت منحرف المزاج ، فاذهب الى فراشك وسترى فى الغد انى أقول الحق »

وكان العاضد قد تعب فعلا .. وكان لقولها تأثير شديد عليه . فرأى أن يطيعها ويؤجل الأمر الى فرصـة أخرى .. فنهض ، ونهض الجليس وذهب كل الى فراشه والخليفة أحوج الجميع الى النوم

– ١٣ –

دار الضيافة

أما الجليس فكان أقلهم رغبة فى النوم لما أصابه من الفشل فى المهمة التى كلفه أبو الحسن بقضائها . وكان الجليس شيخا حسن الظن قد استهواه أبو الحسن بدهائه ووعوده ، وأقنعه ببرهانه وزلاقة لسانه أن انتقال ولاية العهد اليه خير للدولة وللجميع .. ولم يكن عند الجليس شك فى أن أبا الحسن قادر على انقاذ الدولة من صلاح الدين . فلما كلفه بهذه المهمة سعى فيها من كل قلبه وصمم على ترغيب العاضد فيها ، وهو يعتقد انه يخدم بها مصلحته

فلما عاد بالفشل أصبح لايدرى كيف يبلغ أبا الحسن نتيجة تلك المهمة ، فأخذ يفكر فى تلطيف الأسلوب حتى لا يثقل الأمر عليه

وكان أبو الحسن نازلا فى دار الضيافة على مقربة من القصر الغربى ، وهى دار كبيرة كانت فى الأصل قصرا للمظفر بن أمير الجيوش ، أقام فيها حتى توفى فجعلت دارا للضيوف برسم الرسل الواردين من الملوك (١) يتولاها نائب يسمى عدى الملك

(١) المقرى ١٦١ – الجزء الاول

ينوب عن صاحب الباب فى لقاء الرسـل الوافدين على مسافة ، وينزل كلا منهم فى دار تصلح له ويقيم له من يقوم بخدمته . ثم صار صـاحب دار الضيوف يسمى فى الدولة التركية مهمندار ولكنه كان فى زمن روايتنا يسمى عدى الملك

وكان عدى الملك كثير العناية بأبى الحسن ، لما رأى من تقربه الى الخليفة ومنزلته عنده ، فأفرد له دارا خاصة ، وأمر الغلمان بخدمته . وكان أبو الحسن قد سحره بمظهره وبما يقصه عليه من اقتـداره وعلو منزلته .. والدولة فى أواخر أيامها تروج فيهـا السفاسف والمظاهر ويتعلق أصـحابها بالأوهام دون الحقـائق وبالقشور دون اللباب .. يصيرون الى ذلك لما يتولى الدولة من الهرم وتتزعزع أركانها وتصبح عرضـة للفاتحين ، فتذهب الثقة أصحابها ويشتغل كل منهم بنفسه ، ويصبح همه الاحتفاظ برزقه ورزق أهله وهو يتوقع زوال الدولة ، فلا يرجو ضمان ذلك فيها ، فتطيش آماله وتتعلق بأضـعف الأسـباب وأوهى المواعيـد . والانسان اذا تولاه اليأس فى أمر صدق كل قول يعيد اليه الأمل ولو كان ذلك القول من المستحيلات . ويتكاثر أهل الدسائس فى مثل هذه الحال للاصطياد فى الماء العكر ، فيزينون القول ويزوقون الأعمال .. فيصبح أكثر ما يعول الناس على المظاهر ..

وكان أبو الحسن من أولئك الصيادين ، وهو من أهل الدهاء والذكاء ، قوى الحجة لايبالى بما قد يرتكب فى سبيل الوصول

الى غرضه ، من قتل أو كذب أو تملق أو تزلف . والذكى الداهية اذا أغضى عن مراعاة الذمة وصدق النية لا يعجزه الوصول الى ما يبغيه من الأغراض . وكان أبو الحسن طامعا فى الخلافة أو فى ولاية العهد على الأقل .. كما تبين لك من حديث الجليس الشريف ، فاتخذ كل وسيلة تحقق له ذلك الغرض .. ومن جملة ذلك طلبه الزواج بسيدة الملك لعلمه بنفوذها على أخيها ، ولأن انتسابه الى العلويين يتأيد بزواجها .. حتى انه يفضل الزواج بها أولا فيسهّل عليه زواجه كل ما يبتغيه ، لكنها لم تكن تحبه ولا تخلص له ولا كانت تعتقد صحة نسبه . وقد خطأت أخاها لأنه سلم بصحة ذلك النسب ولا شاهد له عليه الا دعواه

على انه رأى أن يستعين بالجليس الشريف لما يعلمه من منزلته عند العاضد لكبر سنه ، فكلفه بتلك المهمة وأقنعه بصدق نيتـه فصدقه ووافقه .. لكنه لم يستطع اقناع سيدة الملك فعاد فى ذلك المساء آسفا لفشل مهمته ، وقضى ليلته وهو يفكر فى الأسلوب الذى سيبلغ به نتيجة سعيه لأبى الحسن

وفى الصباح التالى بكر الى أبى الحسن فى دار الضيافة قبل أن يطلبه الخليفة لمجالسته .. وكان أبوالحسن فى انتظاره على مثل الجمر ، لكنه حين جاءه الغلام ينبئه بمجيئه نهض لاستقباله ورحب به ، وأظهر انه لم يكن يتوقع مجيئه واهتمامه الى هـذا الحد ، فابتدره بالسؤال عن صحة الخليفة فقال : « فارقته مساء

أمس أحسن حالا »

قال أبو الحسن : « أرجو أن تكون أعراض الحمى قد زالت بعون الله .. بزوال السبب »

فأدرك الجليس غرضه فقال : « أرجو أن يزول السبب تماما وعند ذلك تتحقق من زوال المسبب »

قال أبو الحسن : « ان السبب لابد من زواله باذن الله .. وهل تظنني أرجع عن هذا الأمر ؟ انى أفعل ذلك لمصلحة أمير المؤمنين.. وأنا أحبه وأحترمه لا لغرض يهمنى »

فأعجب الجليس بطيب عنصره وازداد خجلا من التصريح له بما جرى أمس . ولاحظ أبو الحسن سبب ارتباكه لأنه كان يتوقع رفض الخليفة طلبه ، ويعلم ان سيدة الملك لا تقبله ، من أول طلب ، فتجاهل ونظر الى الجليس وهو يظهر السذاجة وسلامة النية وقال : « انما أرجو أن يطمئن مولانا أمير المؤمنين منذ الآن انه ناج من كل شر ، ليرتاح خاطره ويسترجع صحته .. هل أقنعته بذلك ؟ »

قال الجليس : « أكدت له عزمك ، وهو يؤمن بقدرتك على هذا الأمر لكنه .. » وتشاغل بحك لحيته وقد ارتج عليه

فابتدره أبو الحسن قائلا : « أود انك لم تفاتحه بما كنا تحدثنا به البارحة من حيث ولاية العهد لئلا يظننى أعلق أهمية على هذا الشرط .. انى لم أعن اشتراطه ولا جعلت نجاة الخليفة متوقفة

على انفاذه ، لكننى متى وفقت الى انقاذه لا أظنه الا فاعلا ذلك من تلقاء نفسه .. وأنا أؤكد لك انى اذا فعل هو ذلك أبادر الى رفضه لأن مشاغل الخلافة ثقيلة .. وأفضل أن أكون من بعض المشيرين المقربين و .. »

فلم يصبر الجليس حتى يتم كلامه ، فقاطعه قائلا : « بارك الله فيك وهذا ما كنت أتوقعه من أريحيتك ، ولكننى لم أتمالك أن صرحت بالأمر البارحة و .. »

فأسرع أبو الحسن قائلا : « ولاشك أن الأمر شق عليه .. طبعا لأنه غريب على خاطره ، ولا أستغرب رفضه .. انى منصف .. لا أقول الا الحق ... »

قال الجليس : « لا .. لا .. لم يرفضه ، ولكن .. »

قال أبو الحسن : « هل ذكرت ذلك بينك وبينه فى جلسة سرية ..؟ »

قال الجليس : « لا .. لم أوفق الى ذلك .. ولكن الأحوال قضت أن أذكره له وهو فى دار الحريم و .. »

فقال أبو الحسن مسرعا : « وفى حضور أخته على ما أظن ..»

قال الجليس : « نعم .. هكذا حصل .. »

فقال أبو الحسن : « لابد انها كانت أكثر استغرابا منه .. أنا لا ألومها على ذلك ، كما انى لا ألوم أخاها .. ولعلك ذكرت لهما شيئا آخر غير ولاية العهد .. »

قال ذلك وهو ينظر فى عينى الجليس ويظهر المداعبة

فابتسم الجليس وقال : « نعم ذكرت لهما .. وتكلمت بما يمليه على اخلاصى لك .. » وبلع ريقه

فعلم أبو الحسن ان جوابهـا لم يكن بالرضا ، ولولا ذلك لاتتجه الجليس أسلوبا آخر فى التبليـغ ، فرأى أبو الحسن أن يغطى فشله بالدهاء فقال : « أتمنى أن تكون قد ترددت فى اجابة هذا الطلب أيضا »

فاستغرب الجليس تمنيه وقال : « نعم ترددت قليلا .. أظنهـا أجلت الحكم فى ذلك الى ما بعد انقضاء هـذه الأزمة أو .. لا أدرى .. »

قال أبو الحسن : « قل صريحا يا عماه .. انها رفضت وقـد تكون متعلقة القلب بأحد أو .. فليكن ما تريد .. أنا لا أعتب عليها ولكنى أعتب على أخيها الخليفة فانه مطالب بسيرة أختـه وسمعتها »

فتوجه الجليس بكليته اليه وقال : « أؤكد لك أن أمير المؤمنين حسن الظن بك .. »

فقال أبو الحسن وهو يتشاغل بتمشيط لحيته : « يكفى .. كنت أحسبها عاقلة كما يقولون ولكن يظهر انها لا تعرف مصلحة نفسها ولا لوم على بعد الآن .. لا أعنى أنى أكف عن فداء أمير المؤمنين بدمى .. ولكننى لا أرى وجها للرفض .. اسمح لى أن

أقول ما فى خاطرى — وان خرجت به عن الاحتياط المطلوب — ان سيدة الملك لايطلبها من هو أجدر منى بها .. الا أن تكون مشغولة ببعض الرجال ، فهذا شىء آخر »

قال الجليس : « كلا .. لكنها قالت انها لا تريد الزواج »

فضحك أبو الحسن وهو ينهض من مجلسه وقال : « لا تريد أن تتزوج .. هذا كلام غير معقول .. ولكنها سترى نفسها مضطرة للزواج بغيرى وتندم لأنها لم تقبلنى »

فنهض الجليس لنهوضه ، وصبر ليرى ما يريده .. فقال أبو الحسن : « أظننى أخرتك عن مجالسة أمير المؤمنين ، وقد يكون فى حاجة اليك .. فأرجو أن تؤكد له انى مقيم على ولائه أفديه بروحى .. ولا تذكر له شيئا عن سيدة الملك .. انما أقول سامحها الله لأنها لم تحسن المعاملة .. »

فودعه الجليس وهو معجب بطيب سريرته وعلو همته وسعة صدره ، وعاد الى منزله ينتظر أمر الخلفة

— ١٤ —

عيسى الهكارى

أما أبو الحسن فلما خلا بنفسه رفس الأرض برجله من شدة الغضب ، وقد أخذ الحنق منه مأخذا عظيما ، وتمشى فى الغرفة

ويداه متشابكتان وراء ظهره ، وهو يعمل فكرته ويتلهى حينـا بالنحنحة أو السعال أو بحك ذقنه أو يصلح عمامته . ثم وقف وقال يخاطب نفسه : « رفض العاضد أن أكون ولى العهد بعده . لكنه سيرانى خليفة ــ وأما تلك الملعونة أخته فلا تزال ترفض الزواج بى ــ ان رفضها هذا أشـد وطأة على نفسى من رفض الخليفة ، لكنها ستندم وتعود صاغرة .. متى رأت ما يبلغ من كيدى .. سوف تأتينى صاغرة باكية . وأظنها تحسبنى مغرما بها وانى أريد الزواج بها عن شغف بجمالها . لست ممن يتعلقون بهذه الأوهام .. ليس فى قلبى حب لأحد . لا أحب أحدا . ان حب النساء من الأوهام الباطلة التى تصرف الرجل عن المطالب العالية.. انى أطلب ما يقصر عنه أخوها الخليفة نفسه .. سأقتل صلاح الدين ولكن ليس اكراما لها ولا لأخيها .. سأقتله ليخلو لى الجو .. سأقتله وأقتل العاضد وأقتل كل من يقف فى سبيل وصولى الى الخلافة .. انها حق لى .. وقد اختلسـوها منى .. » قال ذلك وكاد صوته يرتفع من عظم التأثر فانتبه لنفسه وسكت

ثم مشى الى غرفة داخلية أقفل بابها وراءه ، وقال وهو يشير بيده اشارة التهديد : « أما تلك الخائنة فسأذيقها مر العذاب .. سأجعلها تندم ولات ساعة مندم .. »

ثم اشتغل بتبديل ثيابه وهو يعمل فكرته فى تدبير الحيلة لاغاظة سيدة الملك قبـل كل شىء . فلما فرغ من ارتداء ملابسـه أمر

باحضار البغلة فأتته وركب الى حيث يقيم صلاح الدين ووالده ورجال حاشيته .. وفى جملتهم رجل يقال له ضياء الدين عيسى الهكارى من الأمراء الصلاحية ، كبير القدر .. كان صلاح الدين يعول عليه فى الآراء والمشــورات . وكان فى مبدأ أمره يشتغل بالفقه بمدينة حلب ، فاتصل بالأمير أسد الدين عم صلاح الدين، وصار امامه يصلى به الفرائض الخمس . فلما توجه أسد الدين الى مصر مع بهاء الدين قراقوش صحبهما عيسى هــذا ، وكان مخلصا لصــلاح الدين . فلمـا توفى أســد الدين اتحد عيسى وقراقوش على تنصيب صلاح الدين فى الوزارة ، وقد تفننا فى الحيلة حتى بلغا المقصود (١) . فلذلك كان لعيسى دالة على صلاح الدين يخاطبه بما لايقــدر عليه غيره . وكان من الجهة الأخرى علوى النسب ، فكان له مع أبى الحسن صداقة . وكان عيسى يحاسن أبا الحسن ، وفى نيتــه انه سيحتاج الى استخدامه فى مصلحة صلاح الدين .. فكان يكرمه ويرحب به وصلاح الدين لا يعلم ، لأن أبا الحسن كان يتفادى الاجتماع بصلاح الدين .

وكان عيسى الهكارى فى ذلك الحين فى منظـرة اللؤلؤة يجالس صلاح الدين ويباحثه ويرشد أباه نجم الدين الى ما يسهل عليه المهمة التى جاء من أجلها الى مصر

ركب أبو الحسن الى منظرة اللؤلؤة لايريد دخولها ، ولكنه

(١) ابن خلكان ٧٩٧ — الجزء الاول

كان يعلم أن ضيـاء الدين الهكارى يتردد الى هناك فى تلك الأيام ، فتوقع أن يراه فى الطريق .. فيتظاهر بأنه التقى به مصادفة ليهون جره فى الحديث عفوا الى الغرض المطلوب . وكان يعلم أيضا انه يتردد الى دار العلم بجوار القصر الصغير . ودار العلم هذه أنشأها الحاكم بأمر الله وجمع فيها الكتب وجعلها مقصـودا لطلاب العلم للمطالعة أو النسخ . وفيها الحبر والأقلام والمحابر — ووقف على ذلك أماكن ينفق على دار العلم من ريعها — وكان يجتمع فيها العلماء للمناظرة والمجادلة ، فأصبحت فى أيام الأفضل ابن أمير الجيوش مجتمعا للمجادلة الدينية الخطرة ، فأمر الأفضل بابطالها أى منع الجمهور من دخولها منعا لفساد المذهب .. لكنها ظلت تحتوى على كثير من كتب الفقه والتاريخ ، فمن أحب من الخاصة أن يطالع شيئا منها أذن له : فكان الهكارى من جملة المترددين الى هناك

فلما دنا أبو الحسن من منظرة اللؤلؤة سأل بعض الخدم عن الهكارى فقيل له انه ذهب الى دار العلم . فحول شكيمة البغـلة الى هناك وأظهر انه ذاهب لغرض آخر غير لقائه .. فلما وصـل الى الباب منعه البواب من الدخول لأنه لايعرفه ، فلم يعرفه بنفسه بل قال : « أحب الاطلاع على بعض الكتب وأعود »

قال البواب : « ذلك لايجوز ياسيدى »

فقال أبو الحسن : « كيف لايجوز وقد علمت أن رجلا دخل

هذه الدار منذ هنيهة ؟ »

فقال البواب : « هو الفقيه ضيـاء الدين .. »

فأظهر الاستغراب لوقوع هذه المصادفة وقال : « الفقيه ضياء الدين هنا ؟ »

قال البواب : « نعم .. »

قال أبو الحسن : « هو صديقى .. أستأذنه فى الدخول عليه »

قال البواب : « من أقول له ؟ »

قال أبو الحسن : « قل له أبو الحسن يطلب الدخول »

فذهب البواب ثم عاد ومعه ضياء الدين . فلما وقع نظره على أبى الحسن أسرع اليه ورحب به ، فتحول أبو الحسن عن البغلة ودخل معه المكارى وهو يتظاهر بأنه فرح بهذه المصادفة . وكان ضياء الدين يلبس زى الجنود ويعمم بعمائم الفقهاء ، فجمع بين الملبسين ، فلما التقيا قال أبو الحسن مداعبا : « انك قد جمعت بين زى الجند وزى الفقهاء ، فهل أنت فقيه الآن أو جندى ؟ »

قال ضياء الدين : « انى فقيه فى بحثى الآن »

قال أبو الحسن : « أما أنا فقـد طلقت الفقـه ، وانما جئت للمطالعة فى بعض الكتب لغرض علمى » قال ذلك ومشى فدخل ضياء الدين معه وهو يقول : « تفضل ادخل .. لعلك تبحث فى مسألة لغوية »

قال أبو الحسن : « كلا .. انى لا أرى ذلك نافعـا الآن ،

ولكننى أطلب مسـألة تاريخيـة .. أحب الاطلاع على تاريخ السلاجقة فان هؤلاء القوم أشداء ولهم تاريخ مجيد »

فالتفت ضياء الدين اليه وقال : « أظنك تحب البحث عن سبب مقتل نظام الملك .. مسكين .. »

قال أبو الحسن : « لا .. فان قاتله من الاسماعيلية أصحاب شيخ الجبل .. أليس كذلك ؟.. ليس لهذا جئت . ولكننى أريد الاطلاع على أصل هذه الدولة »

قال ضياء الدين : « اتبعنى الى خزانة كتب التاريخ »

— ١٥ —

طغرل بك

فمشى أبوالحسن فى أثره حتى أدخله غرفة فيها رفوف عديدة ، رتبت فيها الكتب حسب الموضوعات والعصور .. وساعده ضياء الدين حتى جمع له بضعة كتب تبحث فى الدولة السلجوقية ومبدأ أمرها . فتناولها أبو الحسن وأخذ يقلب فيها وهو يقول : «فتش معى عن كتاب فيه ترجمة طغرل بك مؤسس هذه الدولة انه كان رجلا شديدا »

وبعد البحث وقف ضياء الدين على كتاب فيه سيرة طغرل بك ،

دفعه اليه فتناوله أبو الحسن وهو يقول : « أظننى شغلتك عما جئت لأجله »

قال ضياء الدين : « كلا .. بل أنا فى غاية السرور من هــذه المصادفة لأنى أحب أن أعرف تاريخ هذا الرجل مؤسس هــذه الدولة التى ملات الدنيا فتحا .. تفضل اجلس » وأشار الى طراحة على مقعد بالقرب منه . فجلس أبو الحسن وجلس الهكارى بين يديه ، وأخذ كتابا آخر دفعه اليه أبو الحسن ، فجعل يقلب أوراقه وعيناه فى الكتاب الذى يقرأ أبو الحسن فيه . فرآه وقف عند صفحة وجعل يقرؤها ويعيد قراءتها ويهز رأسه اعجابا أواستغرابا. ثم قلبها وقرأ غيرها حتى فرغ من الكتاب فوضعه بجانبه وتناول غيره . فاشتاق ضياء الدين الى مطالعة الصفحة التى رأى أبا الحسن يحدق فيها .. فتناول الكتاب وهو يتوهم انه فعل ذلك خلسة وأبو الحسن لايعلم . ففتح تلك الصفحة فاذا هى تبحث فى خطبة طغرل بك لابنة الخليفة القــائم بأمر الله العباسى سنة ٤٥٤ هـ ، وكيف ان السلطان طغرل بك وهو تركى طلب أن يتزوج بابنة هذا الخليفة مما لم يجسر عليه أحد قبله . وان بعض القضاة أخبر الخليفة يومئذ أن غرض السلطان من تلك الزيجة أن يأتيه من بنت الخليفة غلام فيه الدم العباسى .. فيولبه الخلافة بهذه الحجة ، وتتوالى الخلافة فى أعقابه وتخرج من العباسيين ، وان الخليفة انزعج لهذا الطلب واســتعطف الســلطان أن يعفيه من

الاجابة الى طلبه .. فأبى الا أن يجاب بحيث اضطر الخليفة الى اجابته وزوجه ابنته .. لكن طغرل بك مات فى تلك السنة ، ولم يرزق من امرأته هذه أولادا (١)

وكان ضياء الدين يقرأ ذلك وأبو الحسن يظهر انه يقرأ فى كتاب آخر ، وعيناه تختلسان النظر الى المكارى . فلما علم انه فرغ من قراءة ذلك الفصل رفع نظره اليه وقال : « أرأيت شجاعة طغرل بك وكيف انه استطاع بحكمته وتعقله تأسيس هذه الدولة التى لولاها لم يكن صاحب الشام ولا صاحب العراق ولا غيرهما .. »

قال ضياء الدين : « نعم انه رجل ذو بطش غريب ، وأنا أستغرب الآن ما قرأته فى هذه الصفحة عن مطامعه فى الخلافة مما لم يطمع فيه أحد سواه من غير القرشيين فيما أظن »

فتوجه أبو الحسن نحوه باهتمام وقال : « طمع فيها قبله عضد الدولة بن بويه ، فأراد أن يزوج الخليفة الطائع لله بابنته لتلد من الخليفة ولدا فيه من دمه ، فيجعل الخلافة فيه فلم يوفق الى ذلك (٢) ، وأما هذا فانه خطا خطوة أكبر من تلك . أراد أن يتزوج هو بنت الخليفة ليكون ابنها فيه دم العباسيين .. ولكن هل علمت كيف نجا الخليفة من هذا الخطر فحفظ الخلافة فى العباسيين ؟ »

---

(١) تاريخ الدولة السلجوقية (٢) تاريخ التمدن الاسلامى — الجزء الرابع

فقال ضياء الدين : « انه نجا بالمصادفة »

قال أبو الحسن : « أتظن موت طغرل بك كان مصادفة ؟ وهل يموت بالمصادفة على أثر ذلك العقد المغتصب ؟.. لاأشك فى انهم سقوه السم . ولو أحسن الأسلوب لاحتاط لنفسه ونجا من ذلك الخطر ولم يذهب سعيه عبثا »

فقال ضياء الدين : « وكيف يحتاط ؟ »

قال أبو الحسن : « يحتاط بأن لايعرض نفسه للقتل بخطبة ابنة الخليفة فيظهر غرضه . أعنى لو طلب أن يتزوج أخت الخليفة أو احدى بنات أعمامه مثلا لما كانوا قد تنبهوا لغرضه . فاذا ولدت له ولدا ذكرا كان فيه من الدم العباسى ما يكفى لادعاء حق الخلافة ، ولكن ذلك التركى كان قصير النظر .. »

ونظرا لاهتمام ضياء الدين الهكارى بصلاح الدين وشغفه بتثبيت دولته ، كان كلما قرأ تاريخا أو سمع حادثة مهمة طبق مغزاها على حال صلاح الدين لعله يستفيد منها ما يؤيد دولته . فلما سمع كلام أبى الحسن انتبه الى ان صلاح الدين يستطيع أن يفعل ذلك بالزواج من أخت العاضد ، وكان يسمع بجمالها وتعقلها والعاضد أضعف من أن ينكر على صلاح الدين طلبه . وبذلك تصير الدولة اليه .. حتى نور الدين قد يدخل فى سلطانه ، فأشرق وجهه لهذه الفكرة ، وصمم أن يفاتح صلاح الدين فى الأمر فى ذلك اليوم . ولكنه تظاهر انه لم ينتبه لشىء وجعل يتشاغل بقراءة

تفصول أخرى ، وأبو الحسن يظهر من الجهة الأخرى انه يتكلم بكل سذاجة . ثم غير الحديث فسأل ضياء الدين عن نجم الدين ، وهل هو مسرور من الاقامة فى منظرة اللؤلؤة ، فأجابه بما يقتضيه المقام . وأصبح ضياء الدين شديد الرغبة فى انصراف أبى الحسن ليمضى فى مهمته الجديدة

وبعد قليل استأذن أبو الحسن فى الانصراف ، وودع صديقه الهكارى وعاد على بغلته الى دار الضيافة ، وهو يهمهم فى أثناء الطريق ويكاد يخاطب البغلة من فرحته بانطلاء حيلته ، اذ لم يشك أن الهكارى ذاهب حالا الى صلاح الدين ليحرضه على خطبة سيدة الملك . وهو يعلم يقينا ان ذلك سيقع وقوع الصاعقة على رأسها ورأس أخيها ، ولن يجدا سبيلا لرد طلب ذلك الخاطب القاهر الا اذا ادعيا بأن الفتاة مخطوبة لابن عمها أى « هو » فينال غرضه على أهون سبيل

— ١٦ —

سيدة الملك

أما سيدة الملك فانها ذهبت الى غرفتها ، فلقيتها هناك حاضنتها الخاصة وأخذت فى مساعدتها على نزع ثيابها استعدادا للنوم ولم تفاتحها فى شىء من الحديث الذى جرى لها مع أخيها ، برغم شدة

رغبتها فى ذلك .. والخدم من أكثر النـاس ميـلا الى استطلاع الأسرار لفراغ رءوسـهم من المشـاغل المهمة ، مع اطلاعهم على مخبآت تجرى فى منازل أسيادهم ووقوفهم أمامها وقوف المتفرج يتقدون هذا ويمدحون عمل ذاك على ما تسوقهم أغراضهم أو مداركهم ، فليذ لهم التحدث فيما بينهم ، كل واحد عما يعلمه من أحوال مخدومه ، ويندر فيهم من يحافظ على سر مولاه ويغار على سمعته ويسعى فى درء الشبهات عنه . وكانت حاضنة سيدة الملك من هذا النوع النادر واسمها ياقوتة

ربيت ياقوتة فى دار الخلافة وسيدة الملك طفلة ، فكانت لها عناية خاصة بها .. فشبّت سيدة الملك على الاعتماد عليها والثقة بها حتى جعلتها مستودع أسرارها ، فلم يكن يفوتها شىء مما يخالج ضميرها ، وذلك طبيعى فى مثل حال هذه المرأة من الحجاب فى ذلك العصر ، فانها لا تختلط بالناس ولا تجد من تحدثه الا الخدم . وكانت ياقوتة قد علمت منـذ جاء الخليفة انه يشكو انحرافا ، وتلصصت من وراء الستار لتتسمع ما يدور من الحديث على عادة أمثالها من حب الاطلاع ، ورغبة فى خدمة سيدتها . ولم تتوقع أن يدور بين الخليفة وأخته ما دار . فلما جاءت سيدة الملك لنزع ثيابها كانت ترجو أن تسمع منها شيئا جديدا ، ولاحظت عليها تغيرا يدل على قلقها واضطرابها

فلما فرغت سيدة الملك من تبديل الثياب ، جلست على سريرها

وقد حلت شعرها الذهبى ، وأرسلته ضفيرة واحدة الى ظهرها ، وتنهدت الصعداء وأطرقت .. ولاحظت ياقوتة فى عينى سيدتها ما يشبه الدمع ، فترامت على قدميها وأخذت تقبل ركبتيها وتقول: « ما بالك ياسيدتى ؟ لماذا تبكين ؟ ما الذى يبكيك ؟ » وأظهرت انها لم تكن مطلعة على شىء

فرفعت سيدة الملك عينيها وقد ظهر الدمع فيهما .. وتنهدت ثانية ، وقالت : « تسألينني يا ياقوتة عن سبب بكائى ؟ وتستغربين حزنى ؟ ليس حزنى غريبا .. وانما الغريب أن لا أقضى يومى باكية نادبة .. » قالت ذلك وغصت بريقها

فشـاركتها ياقوتة فى البكاء ، لكنها أظهرت التجلد وقالت : « ماذا جرى ياسيدتى ؟ هل حدث شىء جديد ؟ »

قالت سيدة الملك : « ألا يكفى ماجرى مما تعلمينه .. آه وبلاه أنت عاقلة لايخفى عليك شىء . ألا تعلمين حالنا مع هؤلاء الأكراد واستبدادهم فى الدولة . هذا أخى جاءنى اليوم وقد أصابتـه الحمى من شدة الغيظ لما صارت اليه الخلافة .. فكيف لاأبكى؟»

قالت ياقوتة : « لابأس من البكاء ولكن لافائدة منه ، وانما الفائدة فى الصبر والحكمة .. حتى يقضى الله بما يشاء .. لكل أمر نهاية . ولابد لهذه الكارثة من نهاية باذن الله .. وانما .. »

فقطعت كلامها قائلة : « لا .. لا .. ليس لهذه الكارثة نهاية الا بالموت ، من ينقذنا من هؤلاء الأكراد وقد وضعوا أيديهم فى

كل شيء حتى دارنا هذه فان عليها حارسا من رجالهم » وبلعت ريقها ومسحت دموعها وهى تستعد لاستئناف الحديث ثم قالت : « وهذا كله هيّن يا ياقوتة.. كله هيّن سهل بالنسبة الى أمر آخر جاءنا به الجليس الشريف فى هذا اليوم »

فتطاولت ياقوتة بعنقها وقالت : « وما هو ياسيدتى ؟ »

قالت سيدة الملك : « جاءنا بمهمة يزعم انها تنجينا من هـذا الضنك . ولكنها اذا صحت أوقعتنا فيما هو أشد وطأة وأصعب مراسا »

قالت ياقوتة : « وهل أشد وطأة من هذه الحال ياسيدتى ؟»

قالت سيدة الملك : « نعم .. أشد وطأة منها أن يكون ذلك الكهل الوقح وليا للعهد بعد أخى حفظه الله »

فأظهرت أنهـا لم تفهم مرادها ، فأوضحت لها سـيدة الملك شروطه التى تقدم بيانها ثم قالت : « ولنفرض أن فى استطاعة ذلك الشريف الكاذب قتل صلاح الدين .. فان اسناد ولاية العهد اليه بدل ابن أخى أصعب عندى من البقاء تحت سيطرة صلاح الدين»

فقالت ياقوتة وهى تظهر بمظهر الاهتمام : « لا أرى رأيك فى ذلك ياسيدتى بل أعد سعى أبى الحسن هـذا بابا للفرج ، لأنه اذا لم يستطع قتل صلاح الدين لاينال شيئا . وان استطاع فان ولاية العهد لا تصير اليه لأن مولانا أمير المؤمنين شاب فى مقتبل العمر ــ أطال الله بقاءه ــ ومن يعلم المستقبل ؟ »

فلم تعد سيدة الملك تصبر على سماع هذا الرأى ، فنهضت فجأة ونهضت معها ياقوتة وهى تنتظر ما تقوله ، فاذا هى تقول . « ولكنه يشترط أيضا شرطا آخر ، الموت أهون على من قبوله »

وكانت ياقوتة تعلم رغبة أبى الحسن فيها ، فأظهرت انها فهمت مرادها فقالت : « انك تكرهين هـذا الرجل كرها شديدا بلا سبب .. طولى بالك ياسيدتى حتى أتمم كلامى . اذا نظرنا فى مطلبه وشروطه لا نجد ما يبعث على هذا القلق .. ان الرجل من أبناء عمك وهو يعرض أن ينـال أعدى عدو لنا ، وينقذ هـذه الدولة من الخطر الذى لم يقدر عليه أحد سواه .. فاذا صـار وليا للعهد وتزوج بأخت الخليفة ولا أظنك تستنكفين أن تكونى زوجة رجل أنقذ الدولة من الموت ، وهو مع ذلك شريف النسب ، فنبصرى فيما أقول .. » قالت ذلك وأكبت عليها وجعلت تقبّلها وتضمها للتخفيف عنها

فابتعدت سيدة الملك عنها .. وأسرعت بتحويل وجهها عنها نحو ستارة معلقة على الحائط عليها صور عربية وأظهرت انها تتأملها ، ولكنها لم تكن ترى شيئا لفرط اضطرابها وغضبها . وظلت ساكتة فظنتها ياقوتة تستسيغ رأيها فعادت الى الموضوع ، وأحاطت عنق سيدتها بذراعها وهى تقول : « لا تتعجلى ياسيدتى برأيك . فكرى فى الأمر مليا .. ان عليه يتوقف بقاء هذه الدولة ، وزيدى على ذلك انك لا تجدين من أبناء عمك من يستطيع هذا العمل .. فلا

باعث على هذا النفور منه »

فقطعت سيدة الملك كلامها وتحولت نحوها ، وقد ظهر الغضب في عينيها وقالت : « تقولين لاباعث على هذا النفور ؟ »

قالت ياقوتة : « نعم .. أقول ذلك لأنى لا أرى باعثا .. والا فقولى : ماذا يبعثك على رفضه ؟ »

قالت سيدة الملك : « يبعثنى على ذلك انى لا أطيق أن أرى هذا المنافق .. اذا رأيته ارتعدت فرائصى من رؤيته .. تبا له كأن عينيه من نوافذ جهنم .. اذا نظر الى خيل لى أن الشيطان يطل من حدقتيه ويهم أن يأخذ بتلابيبى ، دعينى .. فأنا لا أستطيع أن أتصوره .. »

فهزت ياقوتة رأسها هزة الانكار وقالت : « يا للعجب .. انك تكرهين هذا الرجل عنوا .. أظنك تظلمينه ، لم أر منه ما يبعث على شيء من ذلك .. »

قالت سيدة الملك : « ألا ترين الشر فى سحنته ؟ انى أرى ذلك واضحا يكاد يلمس باليد .. دعينى منه »

قالت ياقوتة وهى ممسكة بيدها ، تجلسها على السرير : « اجلسى ياسيدتى لأخاطبك كما تخاطب الأم ابنتها .. وان كنت لا أستحق هذا الشرف .. »

- ١٧ -

الشكوى

فجلست سيـــدة الملك وهى تنظـــر فى عينى ياقوتة ، فقالت ياقوتة : « انك ياسيدتى شابة فى مقتبل العمر ، وقد منحك الله جمالا وعقلا ولابد من أن تتزوجى بمن هو كفء لك ، وأنا لا أرى أكفأ من أبى الحسن فانه عريق فى النسب العلوى الشريف »

فوثبت سيـــدة الملك من السرير ، وقد تغيرت سحنتها وغلب عليها الغضب وقالت : « ليس الزواج ضروريا لى .. واذا كان لابد منه فلا يهمنى أن يكون ذلك الزوج من النسب العلوى .. » قالت ذلك وتنهدت تنهدا عميقا ، وامتقع لونها ثم احمرت وجنتاها فجأة وظهر الحياء فى عينيها ، فحولت وجهها عن ياقوتة وغطت عينيها بكفيها ، فاستغربت ياقوتة حركاتها ، وأدركت ان ذلك لا يبدو الا من فتاة متعلقة القلب برجل يمنعها الحياء من ذكره . فغيرت لهجتها فى الحديث وضمتها الى صدرها ، وقبلتها بين عينيها وقالت : « فهمت الآن شيئا لم أكن أعرفه من قبل .. أنت متعلقة القلب برجل آخر »

فنفرت سيدة الملك من هذا التعبير الصريح ، وتراجعت وهى لاتزال مطرقة وظلت ساكتة ، فتبعتها ياقوتة وهى تقول : « لعلى بالغت فى التصريح فوقعت عبارتى ثقيلة على سمعك فاعذرينى ،

لكننى أتوسل اليك أن تصدقينى .. هل أصاب ظنى ؟.. أنا معك كل يوم وكل ساعة لا أفارقك ولا يدخل علينا أحد من الرجال غير أخيك وبعض الأطفال من أبنائه ، وأبناء عمك .. فيبعد أن تكونى متعلقة بأحد ، لكننى أرى دلائل الحب فى عينيك .. »

فازداد احمرار وجهها وزاد حياؤها ، وهمّت بالكلام ثم توقفت فقالت ياقوتة : « قولى .. لا تخافى .. هل تحبين أحدا ؟.. ثم نبحث فيمن هو ذلك الواحد .. »

قالت سيدة الملك : « دعينى ياخالة .. دعينى من هذا البحث الآن .. لا فائدة منه غير زيادة الأشجان .. » قالت ذلك وأظهرت انها تميل الى النوم ، فأعانتها ياقوتة حتى استلقت على السرير ، ووضعت الغطاء عليها وجعلت تصلح ما يحيط بها من الملاءة والمخدة ، وهى ترقب ما يبدو منها .. حتى اذا آنست ميلها الى الحديث استأنفته ، والا تركتها تنام

أما سيدة الملك فان ذلك الحديث هاج أشجانها ومالت الى مفاتحة حاضنتها بما يكنه ضميرها ، ولكن الحياء كان غالبا عليها. وكانت تظن ان الحاضنة سوف تلح على اتمام الحديث .. فلما رأت أنها أطاعتها وأعانتها على النوم ، ندمت وأخذت تهيىء مناسبة لاستئناف الكلام .. فأظهرت ضجرها من الغطاء وتنهدت والتفتت الى ياقوتة لفتة أثرت فى أعماق قلبها ، فانحنت فوقها وهى جاثية بجانب السرير وقالت : « ما بالك ياسيدتى

ياحبيبتي ؟.. لماذا تكتمين همك عنى .. »
فقالت ولسانها يتلعثم : « أخاف أن تضحكى منى أو تهزئى بى .. »

قالت : « معاذ الله أن أفعل ذلك ؟ وكيف أفعله ؟ ولماذا ؟ »
قالت : « لأنى أحب رجلا لا يخطر ببالك .. ولو علم أخى به لاستغرب عملى وحسب انى جننت .. وأما أنا فلا .. »
وسكتت وهى تتشاغل باصلاح شعرها تحت رأسها ورفع الغطاء واصلاحه .. »

فوقعت ياقوتة فى حيرة ولم تفهم حقيقة مرادها ، أولعلها أدركت قصدها وتجاهلت لتسمع ايضاحا أكثر ، فقالت : « لم أفهم ياسيدتى مرادك .. من هو الرجل الذى وقع من نفسك هذا الموقع ؟ لابد ان يكون نادرة الزمان »

قالت سيدة الملك : « ألا تعرفينه ؟.. بلى تعرفينه جيدا .. قد رأيته فى هذه الدار كما رأيته . وشهدت أنت نفسك انك لاتعرفين أشرف منه خلقا ولا أكبر همة ولا أعز نفسا ، رأيته وبيده خصلة الشعر التى كان أخى قد بعث بها الى صاحب دمشق يستغيث به باسم نساء قصره .. ان أخى ارتكب بذلك مذلة لم يمحها الا هذا ، فرد لى شعرى بعد أن أنقذ حياتى من الموت ، ونجّى شرفى من الدنس »

فصاحت ياقوتة : « أظنك تعنين الشاب الكردى »

فابتدرتها بلهفة وقالت : « نعم اياه أعنى .. اعنى ذلك الشهم الباسل .. » قالت ذلك وقد عاد اليها نشــاطها وتحمست وظهر الاهتمام فى عينيها

فتقــدمت ياقوتة اليها وهى تبتسم ، وقد شـــاركتها فى ذلك الشعور ، وقالت : « الآن فهمت المراد .. قد عرفت الشاب جيدا ولا أنسى ذلك اليوم .. »

فقالت سيدة الملك : « هل علمت ما اسمه ؟» فأطرقت الحاضنة وأعملت فكرتها كأنها تراجع ذاكرتها ثم قالت : « نعم علمت اسمه .. ولكن هل تعلمين أنت من هو وما هى علاقته بصـــلاح الدين عدونا الألد الذى يشكو أخوك أمير المؤمنين من ظلمه ؟ »

قالت سيدة الملك : « لا .. لا أعلم .. »

قالت ياقوتة : « أنا أعلم .. انه من رجال خاصته .. لا يخطو خطوة الا وهو معه .. »

قالت وهى تبتسم : « فهو اذن قد نال ثمرة تلك المناقب السامية فتقدم عند مولاه .. وما اسمه ؟ » قالت ذلك وعيناها تلمعان

قالت ياقوتة : « اسمه عماد الدين .. وكثيرا ما رأيته واقفا بباب قاعة الذهب فى انتظار صلاح الدين وهو عند مولانا أمير المؤمنين . ألم تشاهديه من نافذة قصرك ؟ »

قالت سيدة الملك : « لم أشاهده هناك ، لكننى رأيته غير مرة واقفا بباب هذا القصر يخاطب الاســتاذ بهاء الدين قراقوش ،

وعيناه لا ترتفعان الى النوافذ ، ولا يلتفت يمينا أو شمالا كأنه لايعرف أهل هذا القصر . وكثيرا ما وددت أن يرفع بصره لعله يلتقى ببصرى .. وربما أقرأ فى عينيه شيئا يدلنى على رأيه فىَّ ، فلم يزدنى ذلك الا شغفا بمناقبه . آه اعذرينى ياخالة اعذرينى . طالما كتمت عنك هذا الحب حياء وخجلا وكنت أرى فى كتمانه لذة . أما الآن فقد بحت به وقضى الأمر »

– ١٨ –

الحب سلطان

فقالت ياقوتة : « انت ياسيدتى تحبين عماد الدين .. خادم صلاح الدين .. بالله ما هذا ؟.. كيف تعلقت به بمجرد النظر اليه مرة واحدة . هذا أمر عجيب .. ان بين أعمامك وفى قصور أخيك عشرات من الشبان أجمل من هذا ، ويقع نظرك عليهم منذ أعوام وكلهم يتمنون نظرة منك فلم تكترثى لأحد منهم .. » قالت ذلك وهزت رأسها هزة الاستغراب

فأجابتها سيدة الملك : «صدقت ياخالة انى أكثر منك استغرابا لما أصابنى من مجرد تلك النظرة.. وهى ليست فى الحقيقة نظرة.. انها ساعة أطول من العمر كله . كنت فيـها بين الحياة والموت فنظرت الى ذلك الشاب وأنا أكاد ألقى وجه ربى أو أتلطخ بالعار.

فمد يده وأنقذنى من الشرين جميعا . فخيل لى انه ملاك هبط علىّ من السماء .. وأكرم به من ملاك »

قالت ذلك وعادت الى الاطراق وقد توردت وجنتاها

فقالت ياقوتة : « اذن أنت تحبين عماد الدين ؟ ! .. »

فأبرقت عيناها رغم ذبولهما من البكاء والانكسار.. وابتسمت ابتسامة لطفت ماتكاثف فى وجهها من الحزن وأومأت برأسها أن : « نعم » وأسرعت الى الغطاء فرفعته الى رأسها استحياء

ووقع قولها عند ياقوتة موقع الاستغراب ، وقالت وهى تزيح الغطاء عن وجهها بلطف : « نعم ياسـيدتى ان عماد الدين شهم نادر المثال ، ولكنه لا يليق بسيدة الملك سليلة المعز لدين الله »

فنهضت وجلست وقد انحل شعرها حتى غطى كتفيها وخديها ونظرت الى ياقوتة نظرة العتاب وقالت : « ان المعز ــ رحمه الله ــ لم يبلغ هذا السؤدد ولا توارث أبناؤه هذا الملك الواسع الا بمناقبه وعلو همته وكرم أخلاقه . ومناقب عماد الدين لا تقل عنها شيئا . انك تعلمين ما أتاه هذا الشاب من المروءة يوم وقعة العبيد.. وكيف تفانى فى سبيل نجاتى ، وحمل الىّ خصلة الشعر وهو لايعرفنى .. ان كنت قد نسيت ذلك فانى لا أنساه .. لأأنسى يوم أتانى ذانك الشقيان وأرادا حملى من هذه الدار فأنقذنى هذا الغريب منهما بغير ثواب يرجوه أو عقاب يخشاه ، وانما فعل ذلك مندفعا بأخلاقه السامية .. فأنا من أجل هذه الأخلاق أحببته ولم

أنظر الى أصله وفصله » . وتوقفت لحظة وهى ترفع شعرها عن عينيها ثم قالت : « أتذكرين ذينك الرجلين اللذين همّا بى فى ذلك اليوم ؟ اذا علمت الآن انهما من أبنـاء الملوك أو الخلفـاء وطلبنى أحدهما .. هل ترضين أن أكون زوجة له ؟ »

قالت ياقوتة : « معاذ الله .. انهما عديما الشرف .. »

قالت سيدة الملك : « اعلمى ان أحدهما يغلب على ظنى انه أبو الحسن الشريف الذى ترغّبوننى فيه .. والآخر خادم له استعان به لاختطافى فى وسط الغوغاء بعد أن علم انى لا أريده ..» قالت ذلك وكأنها ندمت على ما فرط منها فسكتت وأطرقت

فقالت ياقوتة وقد تولتها الدهشة : « هل أنت على يقين مما تقولين ياسيدتى ؟ »

قالت سيدة الملك : « لا أقول انى على يقين .. ولكننى أرجح هذا الظن كثيرا . ومع ذلك فأنا لا أقول هذا ولا ذاك .. وانما أقول انى منذ رأيت عماد الدين وما أتاه من المروءة شعرت بشىء اجتذب قلبى نحوه ، وكنت أتوقع أن أراه مرة أخرى يأتى فيها الى أخى يطلب مكافأة على صنيعه فلم يأت ، فازددت اعجابا به وارتفعت منزلته فى قلبى ، وتحول الاعجاب الى حب شديد » ثم تنهدت وقالت : « ويلاه هل هو يشعر مثل شعورى ؟ » قالت ذلك وخنقتهـا العبرات ، ولم تعد تتمالك عن البكاء والحاضنة تستغرب هذا التعلق بنظرة واحدة ، فأخذت تخفف عنها وتقبلها

وتقول لها : « خففى عنك ياسيدتى .. ارجعى الى رشدك . ان مثلك لايسترسل فى عواطفه الى هذا الحد مع شخص لم يره الا بضع مرات ، ولا يعرف شعوره من جهته .. تجلدى وارجعى الى رشدك . لو فرضنا أنك — وأنت فى هذا الهيام — علمت ان عماد الدين يحب سواك كيف تكون حالك ؟.. تبصرى قليلا .. »

فاستجمعت سيدة الملك قواها واستعادت رشدها .. وأطرقت وهى تفكر فيما قالته حاضنتها ، فرأت أن الحق معها . ولكن الحب سلطان مستبد لايذعن للحق ولا يعرف الصواب .. وانما يلذ له الاستبداد بغير سبب ، والفتك بلا حســاب .. ولا يحلو الحب الا أن يكون مستبـــدا ، ولو أذعن للأحـــكام العقليـــة والمقاييس المنطقية أو الاعتبارات الاقتصادية لصار معلما أو فقيها أو تاجرا .. وانما هو سلطان مطلق لا يقيده دستور ولا يردعه خوف من عقاب . فهو لا يســـأل عما يعمل .. ورعيته راضيـــة باستبداده ، تعد ظلمـــه عدلا وتحسب عسفه رفقا .. ذلك كان شعور ســـيدة الملك فى تلك اللحظة ، لقد كان عقلها يدلها على مكان الخطأ وهى لا تريد أن تراه . فاسترسلت فى عواطفها ونظرت الى ياقوتة والاعتراف على شفتيها والانكار فى عينيها وقالت : « صدقت يا خالة .. ولكننى لا أظنه يفعل ذلك .. لا .. لا .. ولكن مهما يكن .. فانى لا أرى سبيلا الى غير ما ذكرت فدبرينى برأيك .. »

فتحيرت ياقوتة فى الجواب ، ورأت أن الحديث قــد طال ، وتوالت الغرائب التى كشفت لها فى تلك الليــلة .. فعزمت على استغلال الوقت للتفكير على انفراد لعلها تهتدى الى حل يرضى سيدتها ويوافق ضميرها . فترامت على يدى سيدتها تقبلهما وهى تقول : « خففى عنك يامولاتى . انى أمتك أفديك بروحى .. كونى مطمئنة وقد تعبت اليوم من هذا الحديث وآن موعد النوم فتوسدى فراشك . وامهلينى لأنظر فى الأمر ولا بأس عليك على كل حال . فان أخاك ــ حفظه الله ــ لايجبرك على من لا تحبينه . وأنا أعلم منزلتك عنده . لكن لابد من تدبير طريقة لمشاهدة عماد الدين ..توسدى فراشك وها أنا ذاهبــة ، وسأفكر فيك كثيرا الليلة . وأما أنت فلا أظنك تفكرين فى » . وضحكت لمداعبتها ثم قالت : « فكرى فيمن تحبين » فاستلطفت سيدة الملك تعبيرها لأنه كان من أقصى أمانيها أن توافقهــا ياقوتة على اعتقادها ، وتشعر معها بما فى قلبها ، فيهون عليها كل شىء .. فسرى عنها وأطاعت حاضنتها فى النوم ، وذهبت ياقوتة أيضا الى فراشها

ــ ١٩ ــ

خزانة الجواهر

قضت سيدة الملك بقية الليل بين اليقظة والمنام لفرط قلقهــا ،

وأفاقت فى الصباح التالى على صوت المؤذن لصلاة الصبح ، ولم يكن يطلب منها القيام للصلاة .. لكنها لم تعد تستطيع نوما ، فجعلت تتقلب على الفراش وأفكارها تائهــة . وتذكرت أخاها وأحبت أن تعرف كيف حاله بعد ذهابه من عندها ، هل شــفى مما كان فيه .. فنهضت من الفراش ، والتفّت بمطرف من الخز التماسا للدفء ، وخرجت من غرفتها الى دهليز يؤدى الى شرفة تطل على مصلى الخليفة ، فرأت أخاها قد خرج للصلاة فاطمأن بالها عليه .. وعند عودتها الى غرفتها استقبلتها الحاضنة وسألتها عن حالها ، وأخذت تحدثها وتؤانســها ومشت معها الى غرفتها وأعانتها فى لبس ثيابها وأمرت باعداد المائدة ، وجلست اليها وهى تقول : « أطمئنك على صحة سيدى أمير المؤمنين فانه بخير »

قالت سيدة الملك : « عرفت ذلك من خروجه للصلاة وأحمد الله على ذلك .. ولكننى أحب أن أراه .. »

قالت ياقوتة : « سترينه الليــلة بعد رجوعه من قصر الذهب والفراغ من مهام الدولة .. هيا بنا الى الطعام الآن »

فمشت الى غرفة المــائدة ، فتناولت الطعــام وهى تتوقع أن تفاتحها ياقوتة فى الحديث عن عماد الدين ، فلم تفعل .. فاستحيت هى أن تذكره ، وقضت نصف ذلك النهار وهى تتشاغل بشئون مختلفة . وأحست بعد الغداء بميــل الى النوم من فرط تعب أمس ، فتوسدت فراشها فنامت ملء جفونها . وأفاقت وقد هدأت

أعصابها وهان عليها ما هى فيه بالنسبة الى ما كانت عليه من التعب .. لأن تعب الأعصاب يزيد صاحبه قلقا ولا يريه الأمور الا من وجهها الأسود

فنهضت من الفراش وقد أشرق وجهها وعاد اليه ابتسامته ، وصفقت تطلب الحاضنة فأبطأت عليها .. ثم جاءتها وفى وجهها خبر ، فخفق قلب سيدة الملك عند رؤيتها ، ولم تصبر عن الاستفهام عما وراءها فقالت ياقوتة : « ما ورائى الا الخير ياسيدتى .. هلمى بنا »

فأجفلت وقالت : « الى أين ؟ »

قالت ياقوتة : « الى خزانة الجواهر »

فأعرضت عنها اعراض المنكر لما يسمعه وقالت : « أين الجواهر ؟.. انهم لم يتركوا فى الخزانة شيئا »

قالت ياقوتة : « انهم أخذوا كثيرا وتركوا كثيرا . لكننى لا أدعوك بسبب الجواهر ياسيدتى .. وانما أريد ذهابك الى تلك الخزانة للقاء سيدى أمير المؤمنين ، فانه بعث فى طلبك اليه.. على أن توافيه الى تلك الخزانة لسبب لا أعلمه »

قالت بلهفة : « أخى يطلب ذهابى للقائه هناك ؟ »

قالت ياقوتة : « نعم ياسيدتى .. ولا حاجة الى تبديل ثيابك لأنك تذهبين الى ذلك المكان من دهليز يؤدى اليه ، لا تجدين فيه أحدا .. هلمى بنا »

قالت ذلك وأشارت اليها أن تمشى ، فلفت رأسها بملاءة لازوردية اللون ، ومشت وهى تفكر فيما عساه أن يكون الغرض من هذه الدعوة فى ذلك النهار

خرجتا من قصر النساء الى دهليز اخلاه الخدم والجوارى . فمرت سيدة الملك ولم تجد أحدا فى طريقها حتى أتت خزانة الجواهر . وهى غرف عديدة نصبت فيها الخزائن والرفوف ، وأقيمت فيها الأرائك فوق الطنافس .. ولم تكن قد دخلت تلك الدار من عهد طويل . ولكنها كانت تسمع بما تحوى من الذخائر النفيسة ، والمجوهرات الثمينة ، وتعلم انها أخذت فى أيام المستنصر بالله أبى تميم لما غلب على أمره منذ نحو مائة عام . ولم تكن تتوقع أن تجد فيها شيئا من الجواهر يستحق الذكر

وصلت الى الباب فاستقبلها الحاجب وأدخلها ، وأشار الى ياقوتة بالانصراف فانصرفت . أما سيدة الملك فدخلت وعيناها شائعتان تبحثان عن أخيها .. فرأته جالسا فى صدر القاعة الوسطى وحده على مقعد ، وقد تخفف بعمامة صغيرة وبيده مسبحة يعد حباتها وهو مطرق يفكر . فلما أنبأه الحاجب بمجيء أخته رفع بصره اليها ، وهش لها وأخذ يرحب بها ، فترامت عليه وسألته عن صحته فقال : « انى والحمد لله بخير وعافية ، وكيف أنت ؟ »

قالت سيدة الملك : « طالما كان أمير المؤمنين سالما فأنا سالمة ـ أبقاه الله لنا ركنا وسندا ـ قالت ذلك وهى تقرأ فى وجهه

خبرا جديدا . ولكنها تجاهلت وخاطبته وهى تجلس على وسادة بالقرب منه قائلة : « انى لم أدخل هذه الدار منذ سنين عديدة ، وآخر مرة دخلتها كنت طفلة ولا أذكر انى علمت ما فيها و .. »

فقطع كلامها قائلا : « وماذا عساك أن تعلمى ؟ يكفى أن تسمعى بما كان فيها قبل عهد جدنا الامام المستنصر ـ رحمه الله ـ انظرى الى هذا الصندوق »

فنظرت اليه وهو متقن الصنع وعليه نقوش ، فظنته يلفت نظرها الى نقشه فقالت : « انه جميل »

قال العاضد : « لا .. لا أعنى جمال مظهره ، ولكننى أعنى ما كان فيه من الحجارة الكريمة ، أخبرنى والدى ـ رحمه الله ـ انهم أخرجوا منه فى زمن المستنصر سبعة أمداد زمرد قيمتها ٣٠٠٠٠٠ دينار تخاطفها الناس »

فدهشت من ذلك وقالت : « ان ذلك غريب نادر »

قال العاضد : « ولو أردت أن أذكر لك أسماء ما كان من التحف فى هذه الدار لاستغرق سردها عدة ساعات ، وانما أذكر عقدا من الجوهر قيمته ثمانون ألف دينار ، بيع يومئذ بألفى دينار . وأخذوا من خواتم الذهب والفضة فقط نحو ١٢٠٠ خاتم ، فصوصها من الجواهر المختلفة ، فيها ثلاثة خواتم ذهب مربعة على كل منها ثلاثة فصوص ، أحدهما زمرد ، والاثنان ياقوت سماقى ورمانى بيعت بأثنى عشر ألف دينار .. هذا عدا ما أخرجوه من

الجواهر ونحوها ، فانها كانت تحصى بالويبة وتكال بالكيل .. منها ويبة جواهر مشتراة فى الأصل بسبعمائة ألف دينار ، باعوها بعشرين ألف دينار ، وطاووس ذهب مرصع بالجواهر عيناه من ياقوت أحمر ، وريشه من زجاج المينا المطعّم بالذهب على ألوان ريش الطاووس ، عدا التحف المتوارثة عن الخلفاء أو المنقولة الينا من العباسيين وغيرهم (١) ، ورقع الشطرنج أحجارها من الجواهر والذهب والفضة والعاج .. كل هـذه ومئات مثلها ، أخذت فى نكبة المستنصر ولا فائدة من الكلام الآن .. »

فانقبضت نفس سيدة الملك مما سمعته وقالت : « ان مصيبتنا قديمة يا أخى .. ولا فائدة من التذكر الآن » قالت ذلك وهى تتعجل ما فى خاطر أخيها عن سبب استقدامها اليه

فقال العاضد : « صـدقت .. ولكننى أطمئنك ، ان أولئك اللصوص لم يأخذوا كل ما كان لنا ، فان بعض خاصتنـا وأهل بطانتنا المخلصين يومئذ احتفظوا لنا ببعض ما كان من الذخائر ، ولا يزال مخبأ الى الآن » .. قال ذلك ونهض الى خزانة بداخل الحائط لا تلفت النظر اليها .. ففتحها بمفتاح أخرجه من جيبه ، ومد يده فأخرج منها حقا فيه عقد من الجوهر يبهر النظر ، دفعه اليها فتناولته وجعلت تقلبه فقال لها : « خذيه جربيه على عنقك » فتراجعت ، وأعادته الى الحق .. فمد يده وأخرجه وألبسها اياه

(١) المقريزى ٤١٤ — الجزء الاول

فى عنقها وقال : « هذا لك »

فأرادت أن تعيده فمنعها ، وقال : « خذيه انه لا يليق بأحد ســواك .. » وأخرج من حق آخــر خاتما حجارته من الزمرد والياقوت مثل الذى ذكره ، وألبسها اياه فى أصبعها .. فلم يعجبها منه هذا الكرم ، ولاحظ دهشتها فقال : « لا تدهشى لما ترينه ، فان فى هذه الخزائن تحفا أخرى لايعلم بها سواى ، وسأدفعها كلها اليك لئلا تذهب كما ذهبت تلك »

فتوسمت من كلامه شيئا يعنيه لسبب طرأ عليه فقالت : «ماذا تعنى يا أخى ؟ معاذ الله أن يكون ما تشير اليه .. لا يتمتع بهذه الذخائر سواك وسوى أولادك .. » قالت ذلك واختنق صوتها رغم ارادتها ، لكنها تجلدت وهمّت أن تتم كلامها .. فلاحظت فى عينى أخيها شيئا كالدمع ، وهو ينظر اليها نظر المستضعف . ثم قال : « أنت لا تريدين أن تبقى هذه التحف لنا ؟ ! .. »

— ٢٠ —

بين خطيبين

فأدركت ما يشير اليه من امتناعها عن قبول أبى الحسن زوجا لها بعد أن تكفل بقتل صلاح الدين .. فأحست بوخز الضمير ، وأثّر فيها الأسلوب الذى اختــاره أخوها لمعاتبتها .. لكنها لا

تستطيع أن توافقه ، ولا تعتقد أن أبا الحسن يستطيع أن يفى بوعده ، ولم يكن الوقت مناسبا للدفاع فى تلك الساعة ، فقالت : « أنت تعنتنى يا أخى على أمر ليس فى طاقتى .. فأنا قد عاهدت نفسى أن لا أتزوج واذا كان ذلك الرجل يستطيع أن يفعل شيئا فليفعله ، ثم نرى ماذا يكون »

فرأى فى جوابها شبه الرضى فقال : « انما المطلوب قبـل كل شىء أن تظهرى الرضى به ليقدم على العمل .. أليس كذلك ؟ .. كيف يتصدى لهذا الخطر وهو يرى هذا الرفض ؟ » . قال ذلك وهو يبتسـم ويهش ليسترضيهـا ، فكادت تغلب على أمرها ، وأوشك أن يحملها حبها لأخيها على أن توافقه على ما يريد .. لكنها ما لبثت أن تصورت أبا الحسن ، فنفرت منه وتذكرت عماد الدين فاختلج قلبها فى صدرها وتوردت وجنتاها

فظن أخوها أنها تريد اجابتـه ، لكن الحياء يمنعها ، فقال : « ماذا يضيرك لو أجبت طلبى ، وهذا الرجل أكفأ انسان لك .. فضلا عما وعدنا به من الخير .. قولى انك ترضينه خطيبا لك .. واذا كنت تحسبين أن قبوله مصيـبة فانها مصيـبة صغرى .. وأبرقت عيناه كأنهما تنطقان بسر يكتمه .. وتشاغل بعدّ حبات سبحته

فأطرقت سيدة الملك وأعملت فكرتها فى كلام أخيها ، فخافت أن يصح ظنها فقالت : «ماذا تعنى يا أخى بالمصيبة الصغرى ، وهل

هناك مصيبة أكبر منها ؟ »

قال العاضد : « أكبر منها يا أختى أن يطلبك رجل أعجمى من غير أهلك لا قبل لنا برد طلبه .. فهمت ؟ »

قالت سيدة الملك : « ماذا تعنى ؟ من يتجاسر على هذا الطلب ؟ »

قال العاضد : « يتجاسر عليه الذى تجاسر على سلب حقوقنا من أيدينا واستبد بالأمر دوننا ونحن أحياء .. الرجل الذى نخشى سطوته ونحسب لحركاته ألف حساب .. ألا يستطيع هذا الرجل أن يطلب ؟ واذا طلب من يرده ؟ »

فبغتت واستبعدت ما يفهم من كلام أخيها ، فقالت : « صرح بما تقول .. هل تعنى صلاح الدين ؟ »

قال العاضد : « نعم اياه أعنى .. فما قولك ؟ »

فتراجعت وقد اصطكت ركبتاها وارتعدت فرائصها ولم تتمالك عن الجلوس على المقعد ، وقد امتقع لونها وأوشك الدم أن يجمد فى عروقها وسكتت

فجلس أخوها بجانبها وأحاط ذراعه حول كتفيها ليلطف من بغتتها وقال : « انى أزعجتك بهذا الخبر ولكنك أحرجتنى .. ولا تظنى أن الأمر قد نفذ .. انه لم يطلبك صريحا بعد .. ولكن رجلا من خاصته جاءنى فى هذا الصباح وفاجأنى بهذه المصيبة بعد أن مهد الكلام بمقدمات طويلة عريضة الى أن قال : « ان السلطان

صلاح الدين يريد أن يتشرف بهذا القران ، فأحب أن يسألك عن طريقى قبل الاقدام على الطلب .. لعل هناك مانعا »

فقالت سيدة الملك : « وبماذا أجبته ؟ »

قال العاضد : « هممت أن أجيبه بأنك مخطوبة لأبى الحسن لعلمى ان هـذه الحجة تكفى للنجاة من هـذه الورطة ، لكننى استمهلته فى الجواب الى الغد لأسألك ، وقد اخترت هذا المكان للمقابلة حتى لايكون معنا ثالث .. ها أنا قد أطلعتك على جلية الأمر ، فما رأيك .. ألا ترين قبول ابن عمنا أولى ؟ » . ولم يكن العاضد ينتظر منها غير القبول ، فلما أبطأت فى الجواب وهى مطرقة كرر السؤال

أما هى فكانت تفكر فى طريقة للنجاة من هـذه الورطة لأنها تفضل الزواج بصلاح الدين على الزواج بأبى الحسن ، لكنها تفضل أكثر عماد الدين على كليهما .. وحدثتها نفسها أن تصرح له بما يكنه ضميرها ، ولكنها خشيت العاقبة .. فلما كرر أخوها السؤال قالت : « صدقت .. ان الاحتجاج بأنى مخطوبة قد يرجع صلاح الدين عن عزمه .. قل له انى مخطوبة اذا شئت ولا تذكر لمن »

قال العاضد : « لكنه لايصدق الا اذا ذكرنا الخطيب لئـلا يحسبنـا نكذب لنتخلص منه .. سأقول له انك مخطـوبة لأبى الحسن »

فابتدرته قائلة : « كلا .. لا تقل هــذا .. لأن ذلك لا يكون حتما » ولم تتمالك عن هذا التصريح وقد ارتفع صــوتها رغم ارادتها

فبان الغضب فى وجهه وقال : « كنت أجاملك وألاطفك قبــل هذا المشكل . أما الآن فلا أرى لرفضك معنى بعد أن بينت لك السبب .. ليست هذه مشاعر الأخت المحبة لأخيها ، وأنت تعلمين ما وعدنا به أبو الحسن ، ولا سيما الآن بعد أن يعلم أن صلاح الدين منافسه فيك ، فانه يزداد اهتماما بتنفيذ غرضه .. قولى انك قبلته ، والا تزعزع ايمانى بتعقلك وصدق محبتك .. واعلمى مع ذلك أن أمير المؤمنين يخاطبك ويطلب ذلك منك وهو ولىّ أمرك » قال ذلك بشىء من الحــدّة ..

فعظم ذلك التهديد عليها وهبت الحمية فى صدرها ، ورجعت اليها عزة نفسها ، فنظرت الى أخيها العاتب وقالت : « تهددنى بما لك من السلطة على .. وبأنك ولى أمرى ؟ ان هذا لا يغير شيئا من عزمى . واذا شئت أن تستغل هذه السلطة من نفسك فافعل.. وأما أنا فيستحيل علىّ قبول ذلك المنافق المرابى .. وربما فضلت صلاح الدين عليه عند الضرورة . ولكننى لا أريد هذا ولا ذاك »

فدهش العاضد لهذا التصريح وقال : « هل الى هــذا الحد بلغ من جسارتك وتخاطبيننى بهذه القحة ؟.. أظننى أخطأت لأنى شاورتك فى الأمر . وكان لى أن لا أستشيرك لأنى ولى أمرك من

جملة وجوه .. وأنا فاعل ما أرى أنه خير لك ، اذ يظهر لى انك متمسكة بالخطأ لغير سبب أعلمه .. لم يبق الا أن تخرجى للسوق وتختارى لك زوجا من المارة وأبناء السبيل .. ليس ذلك من شأن بنات الخلفاء .. ان العناية الالهية جعلتك من طبقة الملوك وميزتك بالنسب الشريف فلا يجوز لك الزواج بغير الأكفاء . وهذا أبو الحسن ابن عمنا وهو أكفأ انسان لك . يكفى الآن .. » قال ذلك وتحفز للمسير كأنه قال ما لا يقبل نقضا ولا ابراما

أما هى فظلت واقفة وأوشكت أن تسقط على الأرض من التأثر، لأنها لا تستطيع أن تبوح بما فى خاطرها بعد أن رأت أخاها يكبر تفضيلها صلاح الدين ، فكيف لو علم انها تحب خادمه . فرأت أن السكوت فى تلك الحال أولى ، وصممت على أن تفعل ما يحلو لها ولو خالفت الشرع والعرف . فلما رأته يتحرك للمسير مشت بهدوء وسكينة ، ولم تفه بكلمة. فظن أنها شعرت بسلطته عليها فقبلت .. فكتم فرحه وواصل اظهار الغضب والعتاب

وحين خرجت من الباب رأت حاضنتها تنتظرها فى الدهليز ، فرافقتها الى غرفتها .. وقد لاحظت الحاضنة تغيرا ملموسا فى وجهها ، فأصبح همها استطلاع الخبر

أما سيدة الملك فانها صممت على عمل لايخطر لحاضنتها ولا غيرها.. وفضلت البقاء على كتمانه لئلا تحول ياقوتة دون تنفيذه. خطر لها أن تستقدم عماد الدين وتفر معه من قصر أخيها وتنجو

من ذلك الأسر . ولكنها لا تستغنى عن ياقوتة فى البحث عنه واستقدامه ، فعزمت على كتمان ذلك عنها

أما ياقوتة فانها تهيبت من غضب سيدتها . ورغم ما لها من الدالة عليها لم تجسر على مخاطبتها .. فأخذت تتشوق الى استطلاع حالها بالتجاهل ، فحالما دخلت الغرفة قالت لها : « مالى أرى سيدتى غاضبة .. ما الذى أغضبها ؟.. انى أرى فى جيدها عقدا من الجوهر ، وفى أصبعها خاتما من الزمرد والياقوت .. لو كانا لى لزالت عنى هموم الدنيا »

فانتبهت سيدة الملك الى العقد والخاتم ، وكانت قد نسيتهما لفرط قلقها .. فنزعت العقد من عنقها ، والخاتم من أصبعها ، ورمت بهما الى الأرض ، وجلست على السرير وهى تتنهد

فالتقطت ياقوتة العقد والخاتم وهى تقول : « ما بالك ياسيدتى ما الذى أغضبك ؟ اذا كان هذا العقد قد ضايقك ، فأعطينى اياه .. »

قالت سيدة الملك : « خذيه .. بل هاتيه .. » واسترجعته من يدها ووضعته فى جيبها مع الخاتم

فابتسمت ياقوتة على سبيل المداعبة وقالت : « اذا كنت قد غضبت من أمير المؤمنين ، فما هو ذنبى ياسيدتى وأنا أتفانى فى خدمتك ؟ »

فأظهرت الارتياح الى قولها وكظمت غيظها وقالت : « بارك

الله فيك .. دعيني الآن .. »

قالت ياقوتة : « لا .. لا أتركك حتى تقولى ماذا جرى بينك وبين مولانا أمير المؤمنين »

قالت سيدة الملك : « انه مولاك .. وليس مولاى »

قالت ياقوتة : « انه مولانا بحكم الله أطال الله لنا بقاءه »

قالت سيدة الملك : « أطال الله بقاءه لكنه .. » وسكتت وقد شرقت بدموعها

فقالت ياقوتة : « ما بالك قد غيرت عادتك معى ، لماذا لاتشكين الى همك .. لعلّى أستطيع خدمتك فى شىء ، ألم نكن على موعد للنظر فى أمر عماد الدين ؟ »

فلما سمعت اسم عماد الدين سرى عنها وهان عليها الصبر ، والتفتت الى ياقوتة وابتسمت وعيناها تلمعان من الدمع . فأثر منظرها فى ياقوتة وأكبت على يديهـا تقبلهمـا وتقول : « بالله لا تغضبى ياسيدتى .. لا تعاملينى بالجفاء .. افصحى لى عما يكنه ضميرك وأنا أمتك أفديك بروحى .. قولى لا تخافى »

فتنهـدت وهى تتجلد وقالت : « نعم كنا على موعد من أمر عماد الدين ، ماذا رأيت ؟ وماذا دبرت ؟ »

قالت ياقوتة : « لم أر شيئا ان الأمر لك .. وأنا طوع ارادتك ماذا تريدين أن أفعل ، قولى وأنا أفعل حالا »

فنظرت اليها نظرة اخترقت أحشاءها وقالت : « أريد أن يأتى

عماد الدين الى هنا فى هذه الليلة .. »

قالت ياقوتة : « فى هذه الليلة ؟ ولماذا ؟ »

قالت سيدة الملك : « لا تسأليني عن السبب .. انت تقولين انك طوع ارادتى وهذه هى ارادتى . أريد أن أرى عماد الدين هذه الليلة »

قالت ياقوتة : « لك على ذلك .. خففى عنك الآن وارجعى الى رشدك ، واحكى لى عما جرى لك اليوم مع سـيدى أمير المؤمنين »

فلما اطمأن بالها من ناحية استقدام عماد الدين ، خف قلقهـا فجلست ، وأمرت حاضنتها أن تجلس وقصت عليها ما دار بينها وبين أخيها من أوله الى آخره ، فأثر ذلك فى رأيها .. ورأت أن سيدتها قد أخطـأت فى مقاومة الخليفة ، ولكنها لم تجسر على مصارحتها بذلك ، فأظهرت انها ترى رأيها وهى تعتزم أن تعود الى البحث معها فى الأمر بعد قليل ، فطمأنتها أنها سوف تفعل ما تريده ، وغيّرت الحديث وشغلتها بأشياء أخرى

- ٢١ -

عماد الدين

قد علمت من حديث العاضـد وأخته ان صـلاح الدين بعث

يخطب سيدة الملك شقيقها ، وسبب ذلك ان عيسى الهكارى لما خرج من دار العلم سار توا الى صلاح الدين ، وأسرع فى مقابلته على انفراد فى خلوة ، وتطرق فى الحديث الى خطبة أخت الخليفة وأقنعه بما تقدم من الأدلة السياسية .. فاستحسن صلاح الدين رأيه ، واستمهله ليشاور أباه فنهاه عن مشورته .. اذ ربما اقتضى رأيه ملاطفة الخليفة وهم لايرون ذلك . وذكره الهكارى بسعيه فى مصلحته منذ عرفه . فقال صلاح الدين : « اننا قابضون على زمام الدولة نفعل بها ما نشاء ، من عزل وتولية وأموال وغيرها فكيف نطمع فى الخلافة . وهذا لم يقدم عليه أحد قبلنا من غير العرب وأخشى أن نطلب الزيادة فنقع فى النقصان .. »

فقال الهكارى : « لا أعهدك ضعيف العزم يامولاى ، اذا كنت لا تعرف أحدا طلب الخلافة من غير العرب ألا يجوز أن تطلبها أنت .. أو تمهدها لأولادك عن طريق الزواج بأخت الخليفة ؟ وزد على ذلك ان سيدة الملك من أجمل النساء ، فضلا عن ذكائها ودهائها . وأما الخلافة فاذا طلبتها وأحوجنا النسب القرشى فانه ميسور لأن كثيرين من الصحابة القرشيين تفرقوا بالفتح ، ونزل بعضهم فى بلاد الأكراد ، فقد يكون جدك متسلسلا من أحدهم » قال ذلك وهو يظهر الجد . وأدرك صلاح الدين انه يهون عليه ادعاء الخلافة بزواجه بأخت الخليفة ، واذا لزم النسب القرشى انتحل له نسبا فيهم .. ولكنه ظل يتهيب من الاقدام على الخطبة ،

فلما رأى الحاج عيسى قال له : « اذا لم يكن بد من العمل برأيك فاجعل ذلك منك على سبيل الاختبار بلا كتابة منى »

قال الهكارى : « انى فاعل ذلك من عند نفسى ، فأخاطب الخليفة فى رغبتك وأرى ماذا يكون .. »

قال صلاح الدين : « حسنا » وذهب الهكارى فى تلك الساعة الى العاضد وأطلعه على ذلك بأسلوب لطيف ، فاستمهله فى الجواب كما رأيت

أما صلاح الدين فانه بعد ذهاب الهكارى من عنده خلا بنفسه ، وراجع ما دار بينهما فرأى انه تسرع فى الأمر ، وكان ينبغى أن يكاشف أباه قبل الاقدام عليه .. لكنه أجّل ذلك حتى يعود الهكارى بالجواب وهو لايزال فى حل من الأمر . وبعد قليل أتاه غلام يدعوه الى الطعام مع أبيه فى الجانب الآخر من قصر اللؤلؤة فمضى .. وبينما هم على المائدة قال نجم الدين يخاطب ابنه صلاح الدين : « يا يوسف لم أر عندكم اهتماما بميادين السباق . لا ينبغى أن تترك رجالك يرتاحون طويلا .. أنشىء لهم الميادين كى يتسابقوا على الخيول ، فبذلك تتقوى أبدانهم ، ويشتغلون عن الدسائس »

قال صلاح الدين : « صدقت يا أبى ، ونحن لايمضى أسبوع لا نجرى فيه سباقا فمن فاز بالسبق قدمناه وخلعنا عليه . وأحب أن أجرب ذلك بين يديك فى هذه الساعة ، وسأختار من رجالى

أمهرهم فى الركوب » ونادى عماد الدين فأتى مسرعا وخفة الروح ظاهرة فى وجهه ، والشجاعة تتجلى فى عينيه ، والنشاط ظاهر فى انتصاب قامته وامتلاء عضله .. فلمــا وقع نظر نجم الدين عليه استلطفه ، فأطال النظر فيه وصلاح الدين يأمره أن يستعد للسباق مع آخرين سماهم .. فأشار عماد الدين مطيعا وانصرف ، فتحول صلاح الدين الى أبيه وهو يبتسم ابتسام الاعجاب وقال : «كيف رأيت هذا الشاب يا أبى ؟ »

قال نجم الدين : « كنت عازما أن أسألك عنه لأنه وقع من نفسى موقعا جميلا ، وانى أتوسم فيه الشجاعة والبسالة ، ولا أظنه الا بالغا مقاما رفيعا بين رجالك »

قال صلاح الدين : « وكيف اذا رأيت مهارته فى ركوب الخيل وخبرت أخلاقه الحميدة ؟.. يكفى انه يتفانى فى سبيل خدمتى ، انه يحبنى حبا مفرطا .. فلو قلت له ألق بنفسك فى النار ، فعل..»

قال نجم الدين : « احرص عليه وقدمه .. »

قال صلاح الدين : « انى لا أترك فرصة تمر الا أكرمته بها ، وهو الآن من حرسى ويستحق أن يكون من كبار القواد لكنه لايزال صغير السن وسيكون له شأن .. وقد سرنى أنك توسمت فيه ما توسمته أنا وتحققت منه بالاختبار .. »

فقال نجم الدين : « هل زوّجته ؟ »

فقال صلاح الدين : « أردت تزويجه بجارية جميلة فلم أجد

فيه ميلا للزواج »

فهز نجم الدين رأسه وقال : « تلك هى مناقب أصحاب المطامع طلاب السيادة ينصرفون بكليتهم الى تلك المطـامع .. فاحتفظ بالشاب »

وبينما هما فى ذلك اذ سمعا قرع الطبول استعدادا للسباق ، فجلس صلاح الدين مع أبيه على أريكة نصبوها لهما أمام القصر، تشرف على حلبة السباق ، وفوقها مظلة من الحرير الملون . وأطلق الفرسان الأعنة ، وكان عماد الدين على فرس أزرق يمتاز عن سائر الأفراس ، يعرفه الناظرون عن بعد ، ولاحظ نجم الدين انه يفوق سائر الفرسان فى الخفة واللباقة .. ولعبوا ألعابا عديدة وتسابقوا وتراموا .. وكفة عماد الدين راجحة فى كل لعبة وسباق

قضوا فى ذلك بضع ساعات وصلاح الدين جالس مع أبيه تحت تلك المظلة .. ثم أخذ الفرسان يتوافدون للمرور أمام المظلة لالقاء التحية ، وصلاح الدين يثنى على مهارتهم ويكلمهم بما يقتضيه المقام حتى جاء عماد الدين فأمره صلاح الدين بأن يترجل ويأتى الى أبيه ، فترجل ووقف بين يدى نجم الدين وقوف الاحترام . فقال له : « أبشّرك يا عماد الدين بمستقبل عظيم .. ويسرنى انك حائز على اعجاب سلطاننا »

فأكب عماد الدين على يدى نجم الدين يقبلهما وقال : « انى عبد لمولاى السلطان ، أفديه بروحى .. واذا قدر لى أن أكون



« ولاحظ نجم الدين أن عماد الدين يفوق سائر الفرسان بالخفة واللباقة .. ولعبوا ألعابا عديدة وتسابقوا وتراموا وكفة عماد الـــدين راجحة فى كل لعبة وســـباق »

شيئا مذكورا فيكون ذلك من فضله .. لا لاستحقاقى »

فربت على ظهره وتناول خنجرا كان فى منطقته ودفعه اليه وقال: « احتفظ بهذا الخنجر تذكارا منى »

فأكبر عماد الدين هذا الاكرام من والد صلاح الدين ، وهو يعلم ان صلاح الدين نفسه يهابه .. فترامى على يديه يقبّلهما ، وكان صلاح الدين يخاطب بعض الفرسان ، فلما فرغ من خطابه تحوّل الى أبيه ، فوجده يخاطب عماد الدين فانبسطت نفسه لاعجابه بذلك الشاب وقال : « يسرنى انك راض عنه »

فقال نجم الدين : « وهو جدير بذلك وأرى أن تقدمه وتجعله من خاصتك »

قال صلاح الدين : « هو من حرسى ، كما قلت لك »

قال نجم الدين : « أحب أن يلازمك ولا يفارقك ليلا ولا نهارا وأن تكون له دالة الصديق فيدخل عليك بلا اذن »

فالتفت صلاح الدين الى عماد الدين وقال له : « أمر والدى بذلك فأنت من الآن لا تفارقنى فى حلى ولا ترحالى » ونهض ومشى مع أبيه نحو القصر وعماد الدين يتبعهما . وأمر صلاح قيم القصر أن يختص عماد الدين بغرفة قرب غرفته ففعل ، وأصبح عماد الدين لفرط امتنانه لا يجد كلاما يعبّر به عما فى خاطره ، ولكنه أضمر أن يتفانى فى خدمة مولاه .. ويغلب فى صادق المودة والمخلصين فى أعمالهم أن يكون لسانهم قصيرا فيعبرون عن

شعورهم بالعمل دون الكلام

- ٢٢ -

أمر غريب

ولم يكن لهم فى ذلك اليوم شاغل مهم ، فبعد العشاء ذهب كل الى غرفته ، وقضى نجم الدين ساعات فى غرفة ابنه صلاح الدين يتحادثان فى شئون كثيرة تدور حول علاقة مصر بنور الدين .. ثم انصرف الى فراشه

بات صلاح الدين تلك الليلة كعادته وهو يفكر فى أمر مصر ، ومطامعه فيها ، حتى غلب عليه النعاس فنام .. وقد أطفئت مصابيح القصر واطمأن الحراس الا عماد الدين ، فانه شعر بعد أن اختصه صلاح الدين بقربه انه يجب أن يكون أكثر يقظة وسهرا على حياته . فبات وهو يفكر فى ذلك ، فحلم لفرط قلقه ان صلاح الدين يناديه فنهض مذعورا وأصاخ بسمعه فلم يسمع شيئا ، فحدثته نفسه أن ينهض ويتسمع ، فخشى أن يوقظ مولاه وهو على يقين انه سمع ذلك فى الحلم . فعاد الى فراشه وقد طار نومه وكثر تقلبه بين اليقظة والنوم .. واذا هو يسمع وقع خطوات ، فهبّ من فراشه وتسمع فلم يسمع شيئا .. فغلب على خاطره انه يسمع هاجسا . ونظر الى السماء فعلم ان الفجر قريب ، ورأى

انه لم يعد يستطيع النوم فلبس ثيابه . ولما لاح الفجر خرج ليطل على غرفة صــلاح الدين فرآها مقفــلة ، وكل شيء هادىء ، والحراس بالباب كالعادة فعاد الى غرفته

ولم تمض هنيهة حتى سمع صلاح الدين يناديه ، فلبّاه ودخل غرفته فرآه جالسا على سريره بملابس النوم وقد أخذته الدهشة. فأسرع اليه وحيّاه فصاح به صلاح الدين : « ما هذا ؟ » وأشار الى الوسادة عند رأسه . فتقدم عماد الدين فرأى خنجرا مسلولا عليه آثار دم قديم قد ألقى عند موضع رأس صلاح الدين من الوسادة فأجفل وصاح : « من فعل هذا ياسيدى ؟ »

قال صــلاح الدين : « لا أدرى .. لكنى صحوت فى هــذه الساعة فرأيت الحال كما تراها » فأطرق عماد الدين يفكر فوقع بصره على شيء عند قدمى السرير فاذا هو غمــد ذلك الخنجر فتناوله وتأمله ، فلم يذكر انه يعرف صاحبه .. ولكنه اذ دقق النظر رأى فى جوفه بطاقة أخرجها ودفعها الى مولاه ، ففضها وقرأها فبانت البغتة فى عينيه ، ثم دفعها الى عماد الدين وصفق.. فدخل عليه أحد الغلمان فأمره أن ينادى الأمير نجم الدين والده حالا

أما عماد الدين فانه قرأ البطاقة وأعاد قراءتها وتناول الخنجر وتأمله ، وأعاد النظر فيه فقال صلاح الدين : « كيف يدخل الناس

على وأنا نائم داخل هذا القصر والأبواب موصدة ولا يشعر أحد من الحراس ؟ »

فأحس عماد الدين ان التوبيخ موجه نحوه لأنه أقرب الحراس اليه ، فارتج عليه من شدة التأثر ، وهم أن يجيب واذا بنجم الدين قد دخل ، فلما رآهما فى تلك الحال تناول البطاقة وقرأها واذا فيها :

« من أحد مريدى سيد الاسماعيلية الى يوسف صلاح الدين

« اعلم يا يوسف انك وان أقفلت عليك الأبواب .. وأقمت الحراس لا تقدر أن تنجو من القصــاص .. أراك قد بالغت فى القحة وتطاولت واستبددت وظلمت ، ونسيت شيخ الجبل زعيم الاسماعيليين . لو أردت قتلك الليــلة لما أبقيت عليك ، ولكننى عفوت عنك وأنا منذرك أن تصلح من سيرك . ولا تطمع فى أن تعرف من أنا ، فان ذلك بعيــد المنال .. اذ قد أكون أخاك أو خادمك أو حارسك ، وقد أكون خيطا فى عمامتك أو شعرة فى رأسك ، وأنت لا تدرى .. وانما أطلب منك أن تلزم حدك .. والسلام »

فاستولى السكوت على الجميع لحظة .. ثم أشار نجم الدين الى عماد الدين أن يغلق الباب ، وأن يجلسوا فى خلوة لا يدخل عليهم أحد ، ففعل وقلبه يتقد غيظا ، وقد ساءه على الخصوص حدوث هذا الأمر فى الليلة الأولى التى تولى فيها الحراسة الخاصة

وأصابه الجمود لايدرى ماذا يقول ، وأدرك نجم الدين قلقه .. فناداه وابتسم له وقال : « لا تضطرب يابنى ولا يداخلك خوف ، انكم لا تعرفون هؤلاء القوم ولا أظن يوسف يعرفهم »

فقال صلاح الدين : « أذكر انى عرفت عنهم شيئا .. ولكن أى الاسماعيلية هؤلاء ؟ وما هـذه الجسارة ؟ وكيف يستطيعون الدخول علىّ فى غرفة نومى والحرس حولى ؟.. صدقوا انه لم يكن يمنعهم شىء من قتلى .. »

فصاح عماد الدين : « خسئوا .. ان ذلك بعيد عنهم .. انهم لاينالون من مولاى السلطان شعرة قبل أن يقتل زعيمهم اللعين »

فجلس نجم الدين وأمر عماد الدين أن يجلس وقال : « هل تعرف من هو هذا الزعيم ؟ »

قال عماد الدين : « كلا ياسيدى .. ومهما يكن من شأنه .. »

– ٢٣ –

الاسماعيلية

فقطع نجم الدين كلامه وقال : « تمهل ياشاب واسمع ماسأقصه على يوسف من خبر هـذا الطاغية الذى يسمى نفسـه رئيس الاسماعيلية ، وهم فى الحقيقة الحشيشية » . ووجه خطابه الى صلاح الدين وقال : « اعلم يابنى ان الاسماعيلية أو الباطنية أو

الحشيشية طائفة من الشيعة لها بالدولة العبيدية علاقة قل من يعرفها ، ولذلك أحببت أن أفصلها لك .. ان مذهب الاسماعيلية كان مذهب هذه الدولة عند الفتح ، وقد نصروه ولا سيما الحاكم بأمر الله فانه أحيـاه ونشره بمساعدة رجل فارسى اسمه حمزة الدرزى ..

« وفى أيامه ظهر رجل فارسى اسمه حسن بن الصـبـاح ، له حديث طويل مع نظـام الملك وعمر الخيام لا محل له هنا (١) ، فأنشأ حسن هذا جمعية من الفدائيين ، وأقام فى جبـل الأموت قرب قزوين منذ أكثر من مائة سنة . وكان يغرى رجاله على الفتك بمن شاء من كبار الرجال ، ومن جملة الذين قتلوهم نظام الملك وزير السلاجقة ، وكثيرون من القواد والملوك .. كانوا يقتلون وهم لايعرفون من يقتلون .. واذا عرفوا فانهم لا يبالون ، فى سبيل تنفيذ أمر رئيسهم .. »

وكان صـلاح الدين مصغيا لـما يسمعه بكل جوارحه فقال : « كأنى سمعت بشىء من هذا القبيل ، ولكننى لم أكن أصدقه اذ لا يعقل أن يعرض الرجل نفسه للقتل على هـذه الصورة تنفيذا لأمر مولاه فقط »

فاعترض عماد الدين وعينـاه تتقدان وقد هاجت الحمية فى رأسه وقال : « بلى ياسيدى .. هـذا أمر معقول .. ان الرجل

(١) راجع الهلال ٩ سنة ١٩١٩

ليفدى مولاه بروحه اذا كان يحبه ويحترمه »

فأدرك نجم الدين غرضه وقال : « بارك الله فيك يابنى ، لكن مثلك قليل وأكثر الناس يفعلون ذلك طمعا فى شىء .. أما الفدائيون هؤلاء فانما يفعلونه ما يفعلونه لمجرد طاعة رئيسهم . وقد اختلف الناس فى تبرير هـذا التفانى .. فيقول البعض ان حسنا كان يستهويهم بالسحر ، أو يسقيهم الحشيشة التى تسلب العقـل . ولذلك عرفوا بالحشيشية أو الحشاشين ، ومهما يكن السبب فان وجود هذه الطائفة خطر على كبار الرجال

« وكان مقرها فى زمن ابن الصباح هذا فى قزوين ، بعيدة عن هـذه الديار . أما الآن فان مركزها فى جبل السماق من أعمال حلب ، لهم فيه معاقل وحصون ، ولهم دعاة فى الأطراف ، ولهذه الطائفة تاريخ طويل قبل انتقالها الى الشام ، خلاصته ان الرياسة انتقلت بعد ابن الصباح الى غيره وغيره ، وكان رابعهم فى الأموت منذ نحو خمسين سنة يسمى حسنا أيضا ، ويضيفون الى اسـمه قولهم : « على ذكره السلام » . وكانت دعوته قد انتشرت فى الشام والافرنج قد فتحوها ، فقربوا الاسماعيلية واستعانوا بهم على المسلمين فى مواقع كثيرة سرا وجهرا . فأذن لهم ملك الافرنج صاحب حلب أن يقيموا فى جبل السماق (جبل النصيرية) ونزلوا بانياس وزعيمهم يومئذ اسمه بهرام ، وفى أيامه تمكنوا من الفتك بطائفة من الملوك والقواد بمصر والشام ، منهم الملك الأفضل أمير

الجيوش بمصر ، يقال انهم فعلوا ذلك به لأنه استبد بالآمر بأحكام الله . وبلغنى ان الآمر تغلب على بهرام وقتله لسبب لا أعلمه ، لعله ساءه قتل أمير الجيوش ، وان كان قتله دفاعا عنه — وطافوا برأس بهرام فى شوارع القاهرة هذه — وقتلوا أيضا كثيرين من الافرنج بحجج مختلفة منهم : ريمون صاحب طرابلس ، ولهم بجبل السماق عدة قلاع حتى الآن منها مصياف ، ومرقب ، وعليقه ، والرصافة ، وغيرها ، يعتصمون بها . أما زعيمهم الآن فأظنه أدهى الرؤساء جميعا واسمه راشد الدين سنان بن سليمان أصله من البصرة . خدم رئيس الاسماعيلية فى الأموت .. وتفقه فى العلم والفلسفة ، ثم انتقل الى الشام وأقام فى حلب وهو أعرج . وتظاهر بالتقوى والتدين فاجتذب العامة بذلك .. ولا تجد شيئا يستهوى العامة مثل الدين . وبلغنى من بعض رجالنا هناك أن سنانا هذا كان يجلس على صخر يعظ وهو جامد كالصخر فكثر دعاؤه ، وكانت دعوته لهم أن يتعاونوا ، فتغلب على عقولهم بالدهاء أو السحر لا أعلم ، حتى جعلوا أموالهم مشتركة بينهم .. حتى النساء والبنات . ثم منعهم من ذلك

« وبلغ خبره الى رئيس الاسماعيلية يومئذ فى جبل السماق ، واسمه أبو محمد فاستقدمه اليه . وبعد قليل خلفه واستلم زعامة هذه الطائفة منذ بضع سنوات فقط . وقد سمعت خبره قبل سفرى بقليل وهو الآن صاحب السطوة والكلمة النافذة ، وقد التف

حوله ألوف من الدعاة الفدائيين ، وهم يفدونه بأرواحهم . اذا أمر أحدهم بقتل أمير أو ملك تنكر ودخل فى خدمة ذلك الأمير أو الملك بصفة سـائس ، أو خادم ، أو حارس . ولا يزال يترقب الفرص حتى تسنح له ويغمد خنجره فى صدره .. فالحمد لله انهم لم يفعلوا ذلك هذه المرة ، ولكن تهديدهم هذا أثقل وقعا من القتل »

- ٢٤ -

التبرع

وكان صلاح الدين فى أثناء سماع الحديث مطرقا يفكر ، وعماد الدين يرقب حركات نجم الدين بعينيه ، ويتلقف ألفاظه بأذنيه ، وقد هاجت أريحيته وجاشت الحماسة فى صدره . فلما فرغ نجم الدين من الكلام نظر الى عماد الدين ، فرأى عينيه يكاد الشرر يتطاير منهما فتجاهل

أما صلاح الدين فقال : « لابد من وسيلة نتخذها لنتجنب شر هذه الطائفة .. اننا غير متفرغين لمراقبتها »

فتصدى عماد الدين قائلا : « ان مراقبتها لا تفيد شيئا ولا بد من قطع دابرها » . قال ذلك وعيناه تدلان على ما يعنيه من العزم الأكيد

فأجابه نجم الدين : « ماذا تعنى ؟ »

قال عماد الدين : « اذا أذن لى بابداء الرأى فعندى أن أحسن دواء لهذا الداء أن يقتل رئيس هذه العصابة فتتفرق عصابته »

فقال نجم الدين : « هذا أمر شاق لا سبيل اليه ، لأن القوم معتصمون فى الجبال الوعرة ، وعيونهم مبثوثة فى كل مكان . وقد علمنا الآن ان منهم أناسا فى هـذا القصر ، فكيف يتأتى الوصول الى رئيسهم وقتله ؟ »

قال عماد الدين : « ان من يحب مولاه يتفانى فى خدمته كما قلت ياسيدى .. فكما يستطيع هذا الاسماعيلى الملعون أن يدخل غرفة السلطان صلاح الدين ويعمل ما عمله ، فيمكن لسواه أن يدخل على زعيم الاسماعيلية ويغرس هذا الخنجر فى صدره . واذا قتل بعد ذلك فقد أدى واجبا لينقذ نفوسا شريفة من الفتك . لأن هذا اللعين لا يتعمد الا قتل العظماء ، فالتفانى فى سبيل قتـله أمر يسعى اليه كل أبى النفس »

فأحس نجم الدين أن الشاب يعنى أن يذهب هو نفسه فى هذه المهمة ، فأراد أن يثنيه عن عزمه حرصا على حياته لاعتقاده بالخطر الذى يهدده فقال : « ان هذا الأمر لايقدم عليه الا مجنون .. ولكننا لا نحرم وسيلة أخرى لاسترضائهم بالمال ، فانهم كثيرا ما يرتكبون القتل طمعا فى المال .. اذ يغريهم بعض رجال السلطة على قتل أعدائهم مقابل أموال طائلة .. »

فقال عماد الدين : « صدقت ياسيدى .. قد يسترضون بالمال ، ولكن هذا لا نهاية له . وأما اذا قتل زعيمهم فانهم ينفضون من حوله »

فقال نجم الدين : « ليس هذا بالرأى الصواب لأنه صعب .. ولا تجد من يقدم عليه اذا عرف خطره »

فقال عماد الدين وهو يشير بيده الى صدره وعيناه تلمعان حماسة : « هذا عبدك عماد الدين يقدم نفسه للقيام بهذه المهمة من هذه الساعة ، وأرجو أن لا ترد طلبى »

فقال نجم الدين : « بارك الله فيك .. انها حمية يندر مثلها .. ولكننا فى حاجة اليك هنا »

فقال عماد الدين : « وما الفائدة من وجودى هنا ، وهذه أول ليلة من حراستى ، أوشك مولاى السلطان أن يقتل فيها . أما ذهابى فأرجو أن يكون قاطعا فاصلا . أستحلفك برأس مولانا السلطان صلاح الدين أن تأذن بانصرافى فى هذا السبيل وهذا شرف كبير لى »

وكان صلاح الدين فى أثناء هذا الجدال غارقا فى التفكير عن سبب وقوع هذا الأمر فى هذه الليلة ، فلما سمع اسمه انتبه لما يقوله عماد الدين فأجابه : « ان هذه المهمة خطرة جدا ونحن فى حاجة اليك هنا »

قال عماد الدين : « أقسمت برأسك أن أذهب ، فاذن لى .. »

فالتفت صلاح الدين الى أبيه كأنه يستشيره ، فقال نجم الدين : « أطعنى ودع عنك هذا الخطر »

قال عماد الدين : « انى عبد مطيع ، ولكننى أقسمت برأس مولاى انى ذاهب فى صباح الغد ، ويجب أن يكون ذهابى سرا عن كل انسان لايعلم به سواكما لأننا أصبحنا لا نعرف صديقنا من عدونا ، فلا ينبغى أن يعلم أحد بسبب ذهابى .. »

فقال صلاح الدين : « اذا لم يكن بد من ذلك فامض ــ وفقك الله ــ لما تريده ، ولكننى كنت وأنتما تتباحثان أفكر فى السبب الذى أوجب وقوع هذا الأمر الليلة فلم أهتد .. ولكننى .. » وتذكر خطبة سيدة الملك على يد الهكارى ، فترجح له ان هذا الأمر هو الذى بعث على تحمس أحد الاسماعيلية المستترين . ولكنه لم يجد هذا التعليل معقولا فسكت

فلاحظ أبوه تردده ، فقال له : « ما بالك يا يوسف ؟.. قل ما يخطر لك .. لعلك تتفادى التصريح أمام عماد الدين الذى يفديك بروحه ؟ »

فقال صلاح الدين : « كلا يا أبت .. ولكننى فكرت فى سبب ما حدث الليلة فلم يستقم حكمى ، ففضلت السكوت »

قال نجم الدين : « قل ماذا خطر لك ؟ »

قال صلاح الدين : « أعترف لك يا أبى انى ارتكبت خطأ فى صباح أمس ساقنى اليه تسرعى باغراء صديق لى حميم . وذلك

انى قمت بأمر كان ينبغى قبل القيام به أن أستشيرك فيه ، وها أنا الآن ألاقى عاقبة تسرعى »

قال نجم الدين : « ما هو ذلك ؟.. قل .. »

قال صلاح الدين : « أتانى صديقنا عيسى الهكارى وأنت تعلم صدق مودته لى ونصحه اياى ، فاقترح علىَّ اقتراحا يرى فيه خيرا كبيرا لى فأطعته ، ولكننى لم أكتب فيه كتابة بل تركت الأمر مبهما ريثما أستشيرك »

فلم يعد نجم الدين يستطيع صبرا على فهم مراده ، فقال : « وما هو هذا الاقتراح ؟ »

قال صلاح الدين : « عرض على أن يخاطب الخليفة العاضد فى أمر أخته سيدة الملك أن تكون زوجة لى .. »

فبانت البغتة فى وجه نجم الدين وصاح فيه : « وهل وافقته على ذلك ؟ »

قال صلاح الدين : « ترددت كثيرا ، وأخيرا رضيت أن يكتفى بالسؤال الشفهى من عند نفسه »

قال نجم الدين : « لا تزال تقدم على أمور لا تليق بالسلاطين.. ما لنا ولهذا الرجل ولأهل بيته .. لماذا نعرض نفسنا للفشل ؟.. هل تعرف الفتاة ؟.. »

قال صلاح الدين : « قيل لى انها بارعة فى الجمال جدا .. »

وكان عماد الدين يسمع الحديث ساكتا ، فعلم انهما يتكلمان

عن سيدة الملك ، وكان قد رآها يوم وقعة العبيد وأرجع اليها خصلة الشعر كما تقدم ، وقد استلطفها ، لكنه لم يحلم بالظفر بها . ولذلك فانه حين سمع طلب مولاه شعر بلذة ممزوجة بالغيرة .. لذ له أن تكون تلك الفتاة الجميلة لسيده أفضل من أن تكون لسواه .. لكنه حين تصور ذلك أحس بالغيرة منه .. ولاحظ نجم الدين في وجهه ما يدل على التفكير ، فقال له : «هل تعرف الفتاة يا عماد الدين ؟ »

قال عماد الدين : « أتيحت لي فرصة رأيتها فيها ، وهي في أشد الاضطراب ، أعني يوم وقعة العبيد ، يوم أمر مولاى النفاطين برمى النفط على القصر ، ثم أمرهم أن يكفوا عن رميه ، وكنت في جملة من دخل القصر فرأيت الفتاة في ضيق أنقذتها منه ، ولا أزال أذكر وجهها الجميل وشعرها الذهبي .. انها تليق بسيدى صلاح الدين .. وهل هي تتوقع من هو خير منه ؟ »

فقال نجم الدين وهو يظهر انه واثق مما يقول : « ما لنا ولها ؟ أشك في أن يوسف لم يطع الهكارى الا حياء » ووجه كلامه الى صلاح الدين قائلا : « هل أتاك الهكارى بجواب من الخليفة ؟ »

قال صلاح الدين : « أتانى انه خاطب الخليفة فاستمهله في الجواب .. ولا ندرى ماذا يكون .. »

فهز نجم الدين رأسه هزة الانكار وقال : « لا يسهل عليه الجواب في هذا الأمر ، لأن هؤلاء المساكين شديدو التمسك

بهذه البقية الباقية من سيادتهم . أعنى تمسكهم بمجد الأسلاف وانهم من سلالة بيت الرسول ، واننا لسنا أكفاء لبناتهم لأننا من الأعاجم » قال ذلك وضحك ملء فمه ، والتفت الى صلاح الدين فرآه مطرقا يفكر ، وقد تذكر قول الهكارى انه اذا كان لابد من نسب عربى ، وضعه له .. عدا ما يتوقعه من صيرورة الخلافة اليه أو الى أولاده بسبب ذلك الزواج فلما التفت أبوه اليه استأنف الكلام قائلا : « ألا يحق لهم الافتخار بذلك النسب الشريف ؟ »

قال نجم الدين : « كيف لا ؟.. ولذلك قلت انهم ضنينون به لايفرطون فيه ، فكيف ترجو قبول طلبك وأنت كردى ؟ » وضحك

فرأى صلاح الدين أن يقطع الحديث ليرى ما يأتى به الغد ، فقال وهو يتحفز للنهوض من الفراش : « متى أتانا جواب الخليفة ننظر فيه » ولما نهض كان الخنجر لايزال ملقى على الفراش ، فأسرع عماد الدين اليه وتناوله وهو يقول : « هل يأذن لى مولاى بهذا الخنجر ؟ »

فقال صلاح الدين : « أليس عندك خنجر ؟ »

قال عماد الدين : « عندى .. لكننى أود أن أغمده فى صدر ذلك الطاغية الذى هددنا به »

قال صلاح الدين وهو يلبس ثيابه : « ألا تزال مصمما على قتله ؟ »

قال عماد الدين : « أقسمت برأس مولاى أن أقتله اذ لاسبيل

الى الراحة منه الا بذلك . فأرجو أن لا تراجعنى وألتمس من مولاى الأمير نجم الدين أن يزودنى برضاه ودعائه ، وقد أقسمت أن لا تطلع شمس الغد الا وأنا خارج القاهرة »

فابتسم نجم الدين وهو ينظر الى عماد الدين نظرة العطف والاعجاب وقال : « يسرنى ما أراه فيك من الحمية والغيرة على يوسف ، بل هى غيرة على المسلمين كافة ، لأن هذا الاسماعيلى الشيطان قد أقلق العالم بدسائسه .. فاذا تمكنت من قتله ، فأنت أمير كبير وقائد عظيم لايتقدمك أحد من رجال هذه الدولة غير ابنى يوسف هذا »

فأكبر عماد الدين هذا الوعد الصريح بالمكافأة الكبرى ، فازداد تمكنا من عزمه ، ولكنه أطرق خجلا . فعاد نجم الدين الى اتمام حديثه فقال : « ولكن هل تعرف الطرق وما يعترض عملك هذا من المخاطر ؟ »

قال عماد الدين : « هب انى لا أعرف شيئا الآن ، فلا يعجزنى أن أعرفه »

قال نجم الدين : « فتبقى هنا بضعة أيام لأجل الاستعداد »

قال عماد الدين : « قد أقسمت على الخروج الليلة من هذا البلد .. وانما ألتمس أن لايعلم أحد بجهة مسيرى ولا الغرض منه »

وكان صلاح الدين قد أتم لبس ثيابه فقال : « بورك فيك »

ونظر الى أبيه فرآه ينظر الى عماد الدين وهو يقول له : « وفقك الله فى أمرك ، كن شجاعا واثقا بنفسك . واعلم انك اذا وفقت الى ما تريد أتيت عملا لم يستطعه سواك ، فتنال ما لم ينله أحد »

فهمّ عماد الدين بتقبيل يد نجم الدين ، ثم يد صلاح الدين ، وقال : « أستأذنكما فى تدبير شئونى اليوم ، وربما لا تريانني بعد الآن لأنى أحب أن أخرج من هذا البلد خلسة »

قال نجم الدين : « افعل ما بدا لك .. »

— ٢٥ —

الرسالة

فخرج عماد الدين لتدبير سفره واعداد ما يلزمه ، وقد أخذت مهمته تتجلى له بما يحدق بها من الخطر العظيم ، ولكنه صمم عليها ولا سيما بعد ما سمعه من الوعد بالمكافأة

قضى معظم النهار فى منظرة اللؤلؤة وهو يتهيأ للسفر حتى أعد كل ما يحتاج اليه ، وقد مالت الشمس الى الأصيل .. فانفرد فى غرفته يفكر فى مهمته ، واذا بطارق يطرق بابه فأجفل لأنه لايطرق بابه أحد ، لاسيما وهو على أهبة السفر . فنهض وفتح البـاب فرأى غلاما صقلبيـا يظهر من ثوبه وشكله انه من غلمان قصر الخليفة . فاستغرب ذلك فدخل الغلام وقال : « لعلى فى حضرة

الفارس عماد الدين ؟ »

قال عماد الدين : « نعم .. ما وراءك ؟ »

فمد الغلام يده الى جيبه ، وهو يشير الى عماد الدين أن يغلق الباب خوفا من أن يراه أحد ، وأخرج لفافة دفعها اليه . فتناولها ولم يتم فضها حتى اقشعر بدنه لأنه رأى فيها خصلة الشعر الذهبى التى كان قد أرجعها الى سيدة الملك ، فظهرت البغتة فى وجهه ، لكنه تجلد وأخذ يتفرس فى الكتاب ، فاذا هو رسالة مختصرة بلا توقيع . فأغلق الباب وتحول نحو الداخل وهو يقرأ .. وهذا نص الكتاب :

« الى البطل الباسل عماد الدين ..

« اعلم ياسيدى انك نجيت نفسا شريفة من القتل والعار. وهذه النفس تحتاج الى رؤيتك لتكافئك على صنيعك . وقد كلفنى أن أرسل اليك العلامة التى ينطوى عليها هذا الكتاب لتتأكد من صدق قولى .. فأسرع الينا على عجل فاننا فى حاجة اليك ، وقد لبثنا من قبل دون أن نستدعيك .. وحامل هذا الكتاب يرشدك الى الطريق »

فرغ من تلاوة الكتاب وهو يحسب نفسه فى حلم ، فظل هنيهة كالغائب يفكر فيما يعمله .. أيجيب دعوة الداعى وهو على أهبة السفر ؟ أم يعتـذر وهى تستصرخه . وأحس عند رؤية الشعر بجاذب يدعوه الى الاجابة . وتذكر ما بعثه على حمل تلك الخصلة

من دمشق الى القاهرة ، حتى دفعها الى صاحبتها حرصا على كرامتها بدون أن يعرفها فكيف تدعوه ولا يذهب اليها ؟

وكان الغلام فى أثناء ذلك واقفا ينتظر الجواب ، فلما استبطأه خطا خطوة نحو عماد الدين ، فانتبه هذا لنفسه فالتفت الى الغلام وقال : « ما وراءك غير هذا الكتاب ؟ »

قال الغلام : « هذا كل ما لدى .. ولكننى أُمرت اذا سألتنى عن الطريق أن أرشدك اليه »

قال عماد الدين : « وكيف ذلك ؟.. هل يجهل أحد الطريق الى قصر الخليفة ؟ »

فابتسم الغلام وخفض صوته وقال : « ليس القصر مجهولا ، ولكن صاحب هذه الرسالة فى قصر النساء ، ولا سبيل لرجل الى هناك ولا سيما بعد أن جعلتم الأستاذ بهاء الدين قراقوش قيّما عليه ، فأصبح أمنع من عقاب الجو »

قال عماد الدين : « اذن كيف يمكن الوصول الى المكان المقصود ؟ »

قال الغلام : « اذا كنت قد صممت على الذهاب فانى أدلك على طريق توصلك الى داخل قصر النساء ولا يشعر بك أحد »

فاستغرب قوله وقال : « أظنك تعنى أن أتنكر فى ثوب جارية »

قال : « كلا .. فان هذا لايغنى شيئا .. اذ لايستطيع أحد المرور من الباب ان لم يعرفه الحاجب باسمه ولقبه »

قال عماد الدين : « كيف اذن ؟.. قل .. »

قال الغلام : « أعرف طريقا سريا فى سراديب تحت الأرض بين هذه المنظرة وقصر الخليفة لايعرفها الا القليلون »

قال عماد الدين : « سراديب تحت الأرض ؟ »

قال الغلام : « نعم يامولاى .. لما بنى الخلفاء الفاطميون قصورهم أرادوا أن يكون لنسائهم طريق يخرجن منه الى الحدائق والبساتين ، أو الى المناظر القائمة على ضفاف هذا الخليج . فأنشأوا لهن سراديب تحت الأرض ، ينزلن اليها من وسط القصر ويمشين فيها بلا حجاب حتى يخرجن الى البساتين . وفى جملتها السراديب المؤدية الى هذه المنظرة ، فانها كانت مطروقة أكثر من سواها لكثرة تردد الخلفاء واقامتهم هنا .. حتى ان ثلاثة منهم ماتوا فى هذه المنظرة ، وحملوا فى هذه السراديب الى القصر ، وهم : الآمر بأحكام الله ، والحافظ لدين الله ، والفائز (1) . ثم أهمل أمرها بعد نزول غير الخلفاء فى هذه المنظرة .. ونسى أمرها منذ عدة سنوات ، ولكننى أعرفها .. فاذا أحببت أن أسير فى خدمتك فعلت »

---

(1) المقريزى ٤٦٩ — الجزء الاول

- ٢٦ -

السراديب

فتحير عماد الدين فى أمره واستغرب وجود هذه السراديب ، وأعمل فكرته فى هل يجيب الدعوة أم يعتــذر لأنه على وشك السفر . والتفت الى نافذة الغرفة يتطلع الى الشمس ، فرآها قد دنت من المغيب وهو لابد له من مغادرة القاهرة فى تلك الليلة كما أقسم ووعد ، فنادى الغلام اليه وقال : « كم يلزم من الوقت لنصل الى القصر ؟ »

قال الغلام : « لايستغرق سيرنا الا دقائق معدودة »

فقال فى نفســه : « أجيب الدعوة وأعود سريعا فأســافر » والتفت الى الغلام وقال : « هلم بنا »

قال الغلام : « تمهل ريثما تغيب الشمس فنذهب فى الظلام لئلا يشعر بنا أحد من أهل هذا القصر »

فتصور عماد الدين الخطر المحدق به فى هذه المهمة ، لكنه أكبر أن يتخوف أو يحسب للمخاطر حسابا وهو الذاهب لقتل زعيم الاسماعيليين . فقال : « انتظرنى اذن خارج هذه المنظرة فألاقيك هناك بعد الغروب »

قال الغلام : « حسنــا .. سأمكث فى انتظارك تحت هــذه الجميزة بجانب الخليج ، فاذا رأيتك قادما تقدمت نحوك ومعى

الرداء الذى ينبغى أن تلتف به فى أثناء الطريق وعند الوصــول الى القصر ، لئلا ينكر أحد من أهل القصر هذا الملبس » قال ذلك وخرج وترك عماد الدين على مثـل الجمر من القلق . فلما خلا بنفسه استأنف النظر الى ذلك الكتاب وأعاد قراءته ، وتذكر المرة الأولى التى شاهد فيها صاحبة ذلك الشعر ، وما سمعه عنها أمس من أمر صلاح الدين ، فرأى انه قد يستطيع خدمة مولاه باجابة سؤالها فيحرضها على قبوله . ولما تصور ذلك هبت الغيرة فى قلبه ، ولكنه تعمد الاغضاء عن هذا الشعور حبا فى مصلحة مولاه

ولما أسدل الليل نقابه خرج بأخف ملابسه وسلاحه حتى دنا من الجميزة ، فرأى شـبحا كأنه امرأة قادما نحوه فتقـدم اليه وتفرس فيه فاذا هو الغلام قد التف بملاءة كالازار أو المطرف ، ودفع اليه ملاءة التف بها عماد الدين . ومشى الغلام بين يديه فى البستان لايريان شـيئا غير أشباح الأشجار تتراءى بينهما وبين الأفق .. مشيا مدة لايتكلمان ، ثم التفت الغلام الى عماد الدين وأمسك بيده كأنه يقوده .. ثم نزل معه الى حفرة ، ومد الغلام يده الى أعشاب يابسة أزاحها فوصل الى باب من حديد فيه حلقة قبض عليها وأعانه عماد الدين ففتحا الباب ، فشعر عماد الدين بريح فيها رطوبة وعفونة ، فعلم انها أتت من ذلك السرداب . فقال له الغلام : « اتبعنى ياسيدى .. تابع خطواتى »

فتبعه وأحس انه يمشى على أرض مرصوفة بالحجارة . ولكن

الظلام كان شديدا جدا ، وأخذت رائحة العفونة تشتد كلما تقدما فى السرداب .. فخشى عماد الدين أن يكون قد أخطأ فى الاذعان لهذا الغلام ، فقال : « هل أنت على ثقة من أمر هذا الطريق ؟»

قال الغلام :« نعم .. وقد جئت فيه اليك اليوم »

فاطمأن خاطره وسكت وهو يخطو ويتلمس الجدران . ثم سمع وقع أقدام فوق السرداب فقال له الغلام : « نحن الآن تحت القصر الصغير وبعد قليل نمر تحت الميدان وليس بعده الا قصر الخليفة ، فقصر النساء »

ولما أحس الغلام انهما تحت قصر النساء أشار الى عماد الدين أن يقف فوقف .. فتقدم حتى رفع باب السرداب ، فأبصر عماد الدين نورا ، وبعد قليل أتاه الغلام وأمسك بيده وأشار اليه أن يخرج . فصعد بضع درجات فاذا هو فى غرفة فيها مصباح ، فنظر الى نفسه والى رفيقه على النور بعد هذه الرحلة فى الظلام .. فرأى عليهما التراب ونسيج العنكبوت . فنفض الرداء ونظر الى الغلام وأشار بيده يستفهم عما يعمله ، فأومأ اليه أن ينزع الملاءة ويتبعه ، ففعل فدخلا حجرة مفروشة بأحسن الرياش ، فتحقق انه فى قصر الخليفة فأشار اليه الغلام أن يجلس وينتظر وخرج هو فجلس وقلبه يخفق تطلعا لما سيراه فى تلك الليلة ، وتذكر مجيئه الى هذا القصر من عهد غير بعيد .. وكيف رأى سيدة الملك .. وطال انتظاره حتى تولاه القلق .. واذا بالغلام قد عاد ومعه ياقوتة

الحاضنة ، فحالما وقع نظره عليها تذكر انه رآها قبل ذلك الوقت أما هى فأسرعت اليه وحيته وأشـارت الى الغلام أن ينصرف فانصرف ، وظلت ياقوتة وحدها مع عماد الدين فقالت : « لقـد أتعبناك ياسيدى وأتينا بك فى هذا الليل »

فقال عماد الدين : « لابأس ياسيدتى وانما أرجو أن لا يكون لاستقدامى سبب يوجب القلق »

فتنحنحت وقالت : « لا والحمد لله .. ألا تذكر انك رأيتنى ياعماد الدين ؟ »

قال عماد الدين : « بلى أذكر ذلك جيدا »

قالت ياقوتة : « أما أنا فلا أنسى قـدومك فى ذلك اليـوم العصيب .. وما أتيته من الأريحية والنخوة فى انقاذ مولاتى سيدة الملك من خطر الموت .. انها لا تنفك تذكر ذلك الفضل لك ، وكثيرا ما تمنت أن تراك لتكافئك على صنيعك ، ولكنك لم تعد»

فقال مسرعا : « لأنى لم أفعل ما فعلته لأجل المكافأة .. وأنا غنى عن ذلك بفضل مولاى صلاح الدين »

قالت ياقوتة : « طبعا .. ولكن المكافأة لا تعطى دائما للحاجة اليها بل هى تدل على امتنان المعطى نحو المعطى له .. وعلى كل حال فليس ذلك من شأنى بل هو يرجع اليك واليها ، فاذا التقيتما صرت أنا غريبة . أليس كذلك ؟ » قالت ذلك وضحكت وفى عينيها وغنة صوتها معنى لا يعبر عنه بالكلام ، فتوسم عماد الدين فى

كلامها معنى اختلج له قلبه . ولم يصدق نفسه لما يعلمه من البون البعيد بينه وبين سيدة الملك ، وهى أخت الخليفة أعظم نساء المسلمين بمصر . فقال وهو يتجاهل مرادها : « كيف مولاتنا سيدة الملك .. أرجو أن تكون بخير وعافية ؟ »

قالت ياقوتة : « ألم تصلك رسالتها ؟ »

قال عماد الدين : « كيف لا ؟ .. وما الذى أتى بى فى هذا الوقت ؟ »

قالت ياقوتة : « وخصلة الشعر ؟ »

فمد يده وأخرجها من جيبه وقال : « هذه هى .. »

قالت ياقوتة : « ألا تريد أن تردها اليها كما رددتها فى المرة الماضية ؟ »

قال عماد الدين : « بلى .. وأنا جئت اجابة لدعوتك لأنك قلت ان سيدة الملك تستصرخنى فهل هناك باعث هام ؟ »

قالت ياقوتة : « انما بعثها على ذلك رغبتها فى مكافأتك . وقد كلفتنى أن أدفع اليك هذا العقد » وأخرجت عقدا من اللؤلؤ لم يقع بصر عماد الدين عليه حتى دهش . وقدمت العقد اليه فتناوله ولم ينظر اليه بل أعاده اليها وهو يقول : « شكرا لمولاتى .. انى فى غنى عن ذلك ، لأنى لم أفعل ما فعلته طمعا فى المكافأة »

فاستعظمت هذه الانفة منه وقالت : « انى مأمورة بايصال هذه الهدية اليك ، فاذا كنت لا تقبلها فانى أدعو صاحبتها لتقدمها

بنفسها .. ولكن احذر أن تكون قاسيا يا عماد الدين »

فزاده هذا التعبير بيانا لما توسمه فى عبارتها الأولى ، فسكت وقد ارتبك فى أمره

– ٢٧ –

اللقاء

أما هى فنهضت وخرجت وتركت العقد فى مكانها على البساط، وظل عماد الدين وحده وهو مرتبك لايدرى ما يقول أو يعمل . ثم عادت ياقوتة وسيدة الملك وراءها وقد التفت بالنقاب حتى لايظهر الا عيناها وبعض جبينها ، فلاحظ فى عينيهـا ذبولا وقد تغيرت عن ذى قبل . فلما رآها قد دخلت وقف لها وتأدب وأطرق، فتقدمت اليه وهى تتماسك وقالت : « اجلس يا عماد الدين .. انك ذو فضل على حياتى وشرفى ولا حاجة الى الوقوف لى .. اجلس .. قد أتعبناك بهذه الدعوة الليلة وأزعجناك فضاعفت فضلك علينا » قالت ذلك وهى تجلس وتشير اليه أن يجلس فجلس وظلت ياقوتة واقفة وهى تتناول العقد عن البساط ، ثم دفعته الى سيدة الملك وقالت : « هذا العقد دفعته اليه حسب أمرك فلم يقبله » فتنــاولته واتجهت نحو عماد الدين وقالت : « أترفض هدية صغيرة قدمتها اليك وأنت قد أهديتنى حياتى ؟ »

ومدت يدها نحوه والعقد فى كفها وهى تتوقع أن يمد يده فيتناوله منها . فلما أبطأ تصدرت ياقوتة للكلام قائلة : « بماذا أوصيتك يا عماد الدين .. ألم أقل لك لا تكن قاسيا ؟ »

فخجل ومد يده وتناول العقد وهو يقول : « انى أقبله هدية لا مكافأة ، ولما مد يده ليتناوله لمست أناملها كفها فأحس ببردها وارتعاشها ، وأحست هى برعشة كهربائية سرت فى عروقها . وبان البشر على محياها ، فجلست ياقوتة وهى تضحك وتقول : « ها قد قبله منها ولم يقبله منى »

فقطع كلامها قائلا : « لأنك أردت أن آخذه مكافأة على خدمة فلم أقبله طبعا ، لأنى اذا كنت قد فعلت خيرا فلم أفعله طمعا فى المال .. و .. »

فقطعت ياقوتة كلامه قائلة : « طمعا فى ماذا اذن ؟ يظهر انكما تعارفتما قبل ذلك اليوم .. و .. » وضحكت

فاستغرب تعريض هذه الحاضنة بحب متبادل بينهما ، وهو لايعلم بشىء من ذلك ، وانما يعلم انه استلطفها ومال اليها ولم يحلم انها استلطفته أو مالت اليه . ولذلك لم يفكر فيها لاعتقاده بأنه يستحيل الظفر بها .. فلما سمع ذلك التعريض تحرك قلبه وأوشك أن يشعر بالأمل ، فاعترض أفكاره صلاح الدين وما سمعه فى ذلك اليوم من خطبته اياها ، فأنكر على نفسه أن يتصدى لأمر يخص مولاه وهو يفديه بروحه . وأصبح يعد حديثه معها

خيانة ، لكنه لم يجسر على التصريح بذلك فتجاهل، وقال : «انما فعلت ما فعلته يومئذ مدفوعا بما تفرضه على المروءة .. من يستطيع أن يرى سيدة الملك بين يدى الأشرار يريدون أن يلحقوا بها الأذى ولا يفديها بروحه ؟ »

فالتفتت سيدة الملك نحوه وقد ضايقها النقاب ، وخافت أن يمنعها عن الكلام فأزاحته عن فمها وقالت : « لابأس من كشف هذا الوجه بين يديك فانك صاحب الفضل فى بقائه .. انك تستغرب وجود رجل يستطيع أن يرانى فى ذلك الخطر ولايفدينى بروحه . لا تستغرب ذلك يا عماد الدين فقد كان فى قصرى عشرات من أهلى وعشيرتى لم يتقدم أحد منهم على ما أقدمت أنت عليه . وكأنك كنت على موعد مع تلك الساعة .. فدفعت الىَّ خصلة الشعر صيانة لها ولى .. فهل ألام اذا نظرت اليك نظرى الى ملاك هبط من السماء لانقاذى . أما أنت فلا أعلم كيف كان شعورك فى تلك الساعة .. »

فرأى فى اطرائها اشارة الى حبها ، لكنه كذب نفسه وعاد الى الانكار فقال : « أما شعورى فهو انى وأنا فى خدمة مولاى السلطان صلاح الدين ، وقد أمرنا أن نكف عن رمى النفط ، وقع بصرى على زجاجة نفط سقطت فى هذه الدار ، وأنا على يقين انها ليست من عندنا فاستغربت وقوعها . ثم رأيت نذلا ملثما اغتنم اشتغال أهل القصر بأنفسهم ودخل كالذئب الكاسر ومعه أناس

أرادوا القبض عليك ، فلم أتمالك عن الوثوب عليهم ولم أكن أعلم انهم يريدونك ولا أنك سيدة الملك أخت الخليفة . فلما وقع نظرى عليك ورأيت هذا الشعر الذهبى علمت انك هى . وكانت تلك الخصلة فى جيبى فدفعتها اليك .. »

فلما سمعت اسم صلاح الدين أجفلت ، لكنها مالت الى معرفة قصة خصلة الشعر فقالت : «من أين وصلت هذه الخصلة اليك ؟»

فتوقف عن الجواب حتى خشى أن يرتاب منه ، ثم قال : « أتيت بها من دار السلطان نور الدين صاحب دمشق .. ما لنا ولهذا ؟.. وقد سألتنى عن شعورى فى تلك الساعة ، فأقول انى شعرت بحمية لم أستطع دفعها ووثبت لمقاومة أولئك الأشرار وأنا لا أعرفهم ولا أعرف على من هم واثبون . فلا فضل لى على سيدة الملك لأنى لم أكن أعرف أنها هى المقصودة بالأذى ، وانما فعلت ما فعلته مدفوعا بالمروءة »

- ٢٨ -

التلميح

وكان يتكلم وهى تنظر اليه وتكاد تتلقفه بعينيها ، فلما وصل الى ذكر المروءة صاحت فيه : « ومن أجل هذه المروءة شعرت بهذا الشعور ورغبت فى استقدامك لأعترف بجميلك »

فخجل من هـذا الاطراء وقال : « العفو ياسـيدتى ان مثلى لايستحق هذا الاطراء من أخت أمير المؤمنين لأننا عبيد ، ويجب علينا التفانى فى الدفاع عن صاحب هذا المقام السامى »

فابتدرته قائلة : « اسمع يا عماد الدين .. لست عبدا .. لا .. لو انك اندفعت الى هذه المروءة لأجل أخت الخليفة لقلنا انك فعلت ذلك تقربا من أمير المؤمنين .. ولكن دفعك اليهـا نفس أبية وهمة عالية وأريحية ومروءة لا نعهد مثلها فيمن نعرفهم بين أظهرنا من الأمراء ، وأبناء الخلفاء . فهذه الخصال رفعت قدرك وجعلتك فى مصاف الملوك . لا تقل انك عبد معاذ الله . بل أنت أمير من أعظم الأمراء وستكون كذلك قريبا اذا شئت .. » وظهر فى عينيها معنى لم يترك لعماد الدين سبيلا للتجاهل . وأعجبـه قولها انه سيكون أميرا وهو فى ذلك اليوم أوشك أن يصير من الأمراء بما آنسه من اعجاب نجم الدين به وتقديمه . وتذكر المهمة التى هو ذاهب فيها وما وعده به نجم الدين اذا فاز بها . فتفاءل من مطابقة قولها قول نجم الدين انه أمير وسيصير أميرا عن قريب ثم انتبه فجأة الى انه قد مضى هزيع من الليل ، فخاف أن يطول الكلام فى تلك الجلسة ولم تعجبه مقدمات الحديث لعلمه بما طلبه صلاح الدين من أخيها . وخيل له انها استقدمته لأمر يتعلق بذلك الطلب ، اذ ظل يستبعد أن يكون هو المقصود به ، فأراد أن يتحقق من ظنه فقـال : « اذا صرت شيئا مذكورا فانما يكون

الفضل فيه لمولاتي سيدة الملك لأنها أحسنت الظن بعبدها فقدمه مولاه السلطان صلاح الدين فى مســاء أمس حتى جعله أقرب أعوانه اليه »

فلما سمعت ذكر صلاح الدين للمرة الثانية أجفلت وانقبضت نفسها ، وتذكرت ما جرى لها بسببه ولم يعجبها اقتران اسـمها باسمه فى هذا الموضوع ، لكنها سـُرت لقوله ان صلاح الدين قدمه فقالت : « لا غرابة فى تقديمك فأنت أهل لأكثر من ذلك . انك أمير وسيد وستنال مقاما لم ينله صلاح الدين ، ولن يناله هو ولا غيره من السلاطين أو الأمراء . هـذا اذا شئت .. » وتلعثم لسانها وغلبت على أمرها وأبرقت عيناها وبان الحياء فى محياها فأطرقت .. وكأنها ندمت على ما فرط منهـا ، فجعلت تتشـاغل بتثنية طرف جديلتها المرسلة على صدرها من تحت النقاب

أما هو فلم يبق عنده شك فيما تعنيه واستعظمه منها ، وهاجت عواطفه وأحس بعطف جديد نحوها بعد أن سمع تصريحها انها تحبه ، وانها تفضله على صـلاح الدين . لكنه تذكر ان مولاه صلاح الدين يريدها مع انه لا يرجو أن ترضى به ، فاستنكف أن يقوم مقامه أو يقف فى سبيله أو يعتدى عليه وهو صنيعته ، وقد صمم أن يفتديه بروحه . فلم يتمالك عن النهوض وقال : « ان سيدتى بالغت فى اطراء عبدها كثيرا فأنا صنيعة مولاى السلطان ولا أخفى عنها انى ذاهب الليلة فى مهمة تخصه ، وأخاف أن

أتأخر عنها اذا أطلت المقام هنا »

فأمسكت بيده وأجلسته ، وقد ظهرت انفة الملوك فى وجهها ، وقالت بصيغة الأمر : « لا .. لست عبدا لأحد ولا صنيعة أحد .. وقد قلت لك انك أمير وسيد .. لا .. لاينبغى أن تذهب فى خدمة أحـد ، انى فى حاجة اليك وقد استصرختك .. أين حميتـك ومروءتك ..؟ »

فلما قبضت على يده سرت الرعشة فى أعضائه وجلس بالرغم منه . لكنه لما سـمع كلامها خاف أن يغلب على أمره فقال وهو يتحفز للنهوض : « ان هذه المروءة نفسها تحملنى على الذهاب الآن لأنى تعهدت بأمر لابد من الذهاب فيه وهو يخص مولاى صلاح الدين .. واذا كانت مولاتى ترى فتًى هـذه المناقب وأنا صنيعة صلاح الدين وخادمه ، فكيف لو عرفته هو ؟ »

فنفرت من هـذا الجواب وكانت لا تزال قابضـة على يده فتركتها .. وأعرضت بوجهها ، وهى تظهر الغضب ، فتصـدت الحاضنة ياقوتة وقالت : « ما بالك يا عمـاد الدين ؟ تخاطبـك مولاتى من الشرق فتجيبها من الغرب .. ألم تفهم مرادها ؟ ! »

قال عماد الدين : « نعم .. فهمت وسرنى رضاها عنى وقـد غمرتنى بفضلها وانعامها . ولكننى صنيعة السلطان صلاح الدين وأنا ذاهب فى خدمته » وتحوّل نحو سيدة الملك وقال : « لماذا غضبت منى ياسيدتى ؟.. انما ألتمس رضاك »

فسرَّها عتابه فالتفتت نحوه وعيناها تعاتبانه وقالت : « لأنى أخاطبك وأطلب الجواب عن نفسك فتجيبنى عن صلاح الدين ما لنا وله ؟.. دعه فى سلطانه ، انه لا دخل له فى هذا الحديث .. ألم تفهم ؟ »

فتحير عماد الدين فى أمره وارتج عليه ، وعلم انها لا تريد صلاح الدين وأوشك أن يغلب على عقله .. ومن يقف هذا الموقف ولا يغلبه الهيام ويتسلط على قلبه ؟ لكن عماد الدين كان قوى الارادة شديد الاحترام لصلاح الدين ، وكان تلك الليلة فى شاغل عن كل شىء بأمر زعيم الاسماعيلية وسفره ، فتجلد ونهض بلطف وهو يقول : « فهمت ياسيدتى على قدر امكانى ، واذا لم أفهم فلأنى أرى نفسى لا أستحق هذه النعمة . ولا أزال أرى مولاى صلاح الدين أحق بها .. لا تغضبى ياسيدتى ان صلاح الدين لم تعرفيه ولو عرفته لضربت بعماد الدين عرض الحائط .. ومع ذلك فانى طوع أمرك ولكن .. »

فقطعت كلامه وتوجهت نحوه وهى تبتسم ، والدمع يتلألأ فى عينيها وقالت : « لا تقل ولكن .. بل قل انك تطيعنى فيما أطلبه »

قال عماد الدين : « أطيعك فى كل شىء ، ولكن بعد رجوعى من هذا السفر .. ان سفرى لابد منه ، وقد أقسمت أن أكون فى صباح الغد خارج هذا البلد .. ومضى جانب من الليل وأنا لم أتحرك من مكانى .. فبالله اسمحى لى بالانصراف الآن .. »

فقالت والدهشة ظاهرة فى وجهها : « تنصرف الآن؟ الى أين؟ »
قال عماد الدين : « الى منظرة اللؤلؤة ، ومن هناك أركب حالا وأسافر .. »
قالت سيدة الملك : « تسافر ؟ ويلاه .. الى أين ؟ »
قال عماد الدين : « فى مهمة تخص مولاى السلطان .. »
فأطرقت وهى لا تدرى ما تقول .. فخشى أن يتطور الحديث الى ما لايستطيع دفعه .. وقد أحس ان الحب كاد يستولى على ارادته وهو حريص على القيام بوعده ، ولا سيما بعد أن أقسم وصمم فقال : « اسمحى لى ياسيدتى بالانصراف ، واعلمى انى رهين أمرك .. ولولا ما سبق من تعهدى بأمر السفر لما خالفتك فى شىء ، ولكننى سأعود سالما ان شاء الله .. وعند ذلك لا ترين منى الا ما يرضيك .. استودعك الله الآن »

— ٢٩ —

المباغتة

قال ذلك ومد يده لمصافحتها ، فلم تمد له يدها رغبة فى استبقائه لتتم حديثها ، أو لعلها تثنيه عن السفر .. واذا هى تسمع وقع أقدام مسرعة خارج باب الغرفة ، فنظرت الى ياقوتة فرأتها قد امتقع لونها وتحفزت للنهوض . ولم تكد تقف حتى رأت

غلامها الذى جاء بعماد الدين داخلا والبغتة على وجهه مع الخوف فصاحت فيه : « ما وراءك ؟ ويلك .. »

فقال وصـــوته يرتجف : « ان الاستاذ بهاء الدين قراقوش يطلب أن يراك ! »

فأجفلت عند ذكر اسمه ، وقالت : « ولماذا ؟ وكيف ؟.. ما له ولنا ؟ »

قال الغلام : « كنت ســاهرا لمراقبة كل حركة كما أمرتنى الخالة ، أطل على القصر من شرفة الايوان .. فرأيت شبحا قادما من الخارج نحو باب هذا القصر لم أعرفه لأنه ملتف بعباءة كبيرة كأنه جاء متنكرا . فجعلت أراقبه حتى وصل الى باب القصر ، وطلب مقابلة الأستاذ بهاء الدين . فجاء لمقــابلته ، ودار بينهما حديث لم أفهمه ، ولكننى لاحظت ان القادم ألح عليه أن يفتش داخل القصر وتأكد لى ذلك حين رأيت الأستاذ بهاء الدين دخل القصر بسرعة ورجع ذلك الرجل كما جاء .. وسمعت بهاء الدين يأمر أحد الخصيان بالذهاب الى سيدتى فأسرعت لأخبرك بذلك»

فاستولت الدهشة على الجميع وظلوا سكوتا الا سيدة الملك فقالت : « تبا لذلك الخائن .. لا أعلم كيف اطلع على مجىء عماد الدين الى هنا .. حتى وشى بنا الى الاستاذ »

فقالت ياقوتة : « أتظنين مجىء بهاء الدين يتعلق بعماد الدين »

قالت سيدة الملك : « لابد من ذلك ولكنه سيعود خائبا »

فقال عماد الدين : « لا تخافى ياسيدتى ان روحى فداك ، ماذا جرى ؟ »

قالت سيدة الملك : « لم يجر شيء .. ولكننى سآذن بذهابك رغم ارادتى .. وهــذا يسرك ، ولكنه يسوءنى » والتفتت الى الغلام وقالت : « ياغلام عد بعماد الدين من هذا السرداب كما جئت به منه » والتفتت الى عماد الدين وقالت : « أرجو أن تبقى على وعدك وأن تذكرنى فى أثناء سفرك .. واعلم ان صاحبكم بهاء الدين هذا قد قطع كلامى وحال دون اتمامه وأنا لا أزال فى أوله لكننى أترك فهم الباقى الى فطنتك وما يدلك عليه قلبك . ولعلنى عبَّرت عن مرادى بملامحى أكثر مما فعلت بلســانى .. كنت قبل استقدامك فى يأس شديد ، وكنت أرجو أن يزول كل يأس بحضورك .. فاذا أنت على سفر ، وجاء هــذا الأستاذ فلم أتمكن من اتمام شكواى ، فأقول لك بالاختصار انى أفكر فيك دائما وأنا سجينة فى هذا القصر .. وياحبذا لو انى أخرج منه الساعة معك .. » قالت ذلك وشرقت بدموعها

فكان لذلك وقع شديد على قلب عماد الدين ، وهو شاب فى مقتبل العمر ، وبين يديه أشرف نســاء مصر وأجملهن تشكو له حبها وتدعوه الى قربها ، فهاجت عواطفه وكاد يغلب على أمره وينسى مهمته ، وانما عصمه أدب نفسه وعلو همته واحترامه لمولاه فتجلد وسكت .. لكنه أشار برأسه وعينيه انه رهين أمرها بعد

عودته ، وأرادت أن تستزيده ايضاحا فتصدت الحاضنة بلهفة قائلة : « يكفى ياسيدتى .. يكفى .. ان بهاء الدين يطلب مقابلتك بالحاح ولا أستطيع استمهاله » وتقدمت الى عماد الدين فأمسكت بيده وجرَّته حتى خرج من تلك الغرفة الى باب السرداب .. وكان الغلام فى انتظاره هناك ، وقد فتح الباب فالتف كل منهما بردائه وذهبا وأغلق الباب ، وعاد كل شيء الى أصله .. وسارت سيدة الملك الى غرفة الاستقبال فرأت قراقوش فى انتظارها هناك. فأظهرت الدهشة من طلبه مقابلتها فى تلك الساعة

فقال : « بلغنى ان رجلا غريبا دخل هـذا القصر الليلة .. أين هو ؟ »

فقالت سيدة الملك : « تسألنى سؤالا أنت أولى بالجواب عليه لأن مفاتيح القصر بيدك ، وقد سددت علينا الطرق والنوافذ .. فاذا دخل غريب علينا فأنت المسئول »

قال قراقوش : « لم يدخل أحد من باب القصر.. »

قالت سيدة الملك : « هل هبـط من السماء ؟ » قالت ذلك بغضب

فقال قراقوش : « لا تغضبى ياسيدتى .. انى انما أتصدى للسؤال حرصا على كرامة سيدة الملك وعملا بأمر أمير المؤمنين »

فضحكت ضحكة استهزاء وغضب وقالت : « ما أحرصكم على

أوامر أمير المؤمنين وكرامة أخته .. من أنبأك بدخول الرجال الينا خلسة ؟ »

فخجل بهاء الدين من هـذا التوبيخ وندم على تسرعه وقال : « لم أقل انكم تفعلون ذلك عنوة ياسيدى .. ولكننى أقول ما بلغنى ولم أسمع من رجل حقير أو جاهل »

فقطعت كلامه وقالت : « مهما يكن من أمر الذى قال لك ذلك ، فانه نذل كاذب .. هذا هو قصرى ابحث فيه عمن شئت » قالت ذلك وتحولت من القاعة نحو غرفتها ، والحاضنة تهرع فى أثرها وقلبها يرقص فرحا للنجاة من تلك التهمة الشنيعة

— ٣٠ —

سلطان الحب

فلما خلت ياقوتة بسيدة الملك فى غرفتها ، أكبت عليها وجعلت تقبلها وتداعبهـا ، وهى ساكتة وقد عادت اليها هواجسها ، ثم تخلصت من بين يديها ، وقالت : « دعينى يا ياقوتة .. دعينى وشأنى ، انى تعسة شقية .. ويلاه ما هذا البلاء .. لم أكد أتوسم بابا للفرج حتى أقفلت علىَّ الأبواب ، وسُـدَّت من دونى السبل .. » وأخذت فى البكاء

فعملت ياقوتة على التخفيف عنها وقالت : « لا تنكرى نعمة

الله .. ألم تطمئنى انه يحبك وهذا ما كنت تطلبين معرفته .. و ..»

فقطعت كلامها بغضب وقالت : « يحبنى ؟ هل فهمت من قوله انه يحبنى .. ألم تريه كيف كان مرتبكا فى أمره ، وكلما ذكرت له ما فى نفسى حوّل الموضوع الى مولاه صلاح الدين .. انه يحب مولاه فقط .. » قالت ذلك ومسحت عينيها بمنديلها وهمت أن تعود الى الكلام

فسبقتها ياقوتة قائلة : « ولكن حبه هذا مبنى على همة عالية وأريحية و .. »

قالت سيدة الملك : « وماذا يفيدنى اذا كانت هذه المناقب فيه وهو لايحبنى ؟ ! .. وزيدى على ذلك انه مسافر فى مهمة فى خدمة مولاه ، ولم يشأ أن يتأخر ساعة لأجلى ، وأنا تركت حسبى ونسبى وعرّضت نفسى لغضب أخى وسائر أهلى من أجله ، فهل يدل هذا على حبه ؟ »

قالت ياقوتة : « لاشك انه يحبك وقد توسمت ذلك فى عينيه ، لكنه شهم اذا وعد أوفى . وقد أقسم أن يسافر الليلة فلا يريد أن يحنث بيمينه . وأؤكد لك انه لو طال جلوسنا برهة لرأيت منه كل ما يسرك لأنه لم يكن فى أول الحديث يصدق أنك تحبينه ، ولم يكن يحلم بهذه النعمة . فلما دنا من الموضوع جاء هـذا الطواشى وكدر علينا أمرنا .. ولكن كونى مطمئنة من انه سيعود اليك .. »

فغلب عليهـا الأمل ــ والمحب كثير الشـكوك ، لكنه سريع التصديق قريب الأمل ــ فلما سمعت قولها انه يحبها وانه سيعود اليها ، أشرق وجهها وظهر الابتسام حول شـفتيها .. وأقبلت بوجهها نحوها وقالت : « صحيح ؟ هل أنت على ثقة مما تقولين؟ هل هو يحبنى ؟ » ثم أطرقت كأنها ثابت الى رشدها ، وضمّت خديها بين كفيها وصاحت : « ويلاه ؟ ماذا جرى لى ؟ من أنا ؟ ألست سيدة الملك العاقلة الحازمة ابنة أمير المؤمنين وأخت أمير المؤمنين سلالة فاطمة الزهراء بنت الرسول؟ ما الذى أصابنى حتى صرت كالمجنونة وأصبح قلبى أسيرا بين يدى شـاب غريب لا حسب له ولا نسب ، أتسقّط ما يجود به علىَّ من كلمة عطف أو تودد .. وهؤلاء أبناء عمى الشرفاء يتمنون منى لفتة رضى .. تة ما أشد وطأة الحب وما أقوى سلطانه .. »

فلما سمعتها ياقوتة تقول ذلك توسمت منهـا الرجوع الى الصواب ، لعلها تنجو من لواعج الحب .. فبادرتها قائلة : « ألم أقل لك ياسيدتى ؟.. قد كنت فى نعيم وراحة قبل أن .. »

فأسرعت سيدة الملك فوضعت كفها على فم ياقوتة تعجيلا فى اسكاتها وقالت : « ومع ذلك فان الحب يعزينى عن كل شىء .. يكفى ما رأيته من اقتناعى بكلمة من عماد الدين لو قالها لنسيت كل شىء . ومع ذلك فان أملى بأن أسمعها منه أنسانى القصور والخلافة والنسب الشريف . أنسانى كل شىء .. ذلك هو الحب

يا ياقوتة . ليس فى الدنيا ألذ منه اذا كان متبادلا .. بيننا ان شاء الله .. أليس كذلك ؟ »

فعادت الى مسايرتها وقالت : « هذا ما قلته لك ياسيدتى .. فتوكلى على الله واصبرى .. فان الفرج قريب »

فأحبت سيدة الملك أن تختم الحديث بهذا الوعد ، فأخذت تهتم بالذهاب الى الفراش وياقوتة تساعدها

أما عماد الدين فانه دخل السرداب مرغما ، ولم يكن يريد الرجوع هاربا من وجه قراقوش أو غيره . ولكنه فعل ذلك صيانة لكرامة سيدة الملك وفرارا من التأخير عن المهمة التى هو سائر فيها .. مرّ فى السرداب يتلمس الطريق ، والغلام يسير بين يديه حتى وصل الى الطرف الآخر عند منظرة اللؤلؤة . فخرج وعاد الغلام الى القصر . مشى عماد الدين بين الأشجار يطلب غرفته واذا هو يسمع المؤذن يدعو الناس لصلاة الفجر فأجفل . ولم يكن يظن نفسه قد تأخر بهذا المقدار فأسرع الى غرفته وأمر باعداد جواده واستعد للسفر ، وهمّ بالخروج قبل طلوع النهار حسب وعده . واذا بصلاح الدين يناديه من غرفته ، فأسرع ملبيا فرآه جالسا فى فراشه فأكب على يده يقبّلها فقال له : « انت مسافر يا عماد الدين ؟ »

قال عماد الدين : « نعم ياسيدى .. وقد أبطأت قليلا ، ولكن لا تطلع علىّ الشمس الا خارج القاهرة كما قلت »

قال صلاح الدين : « كنت أحب أن أراك قبل الآن وقد سألت عنك مرارا فلم يجدوك فى حجرتك .. أحببت أن أراك لعلى أثنيك عن عزمك وأنت سائر فى مهمة يمكن الاستغناء عنها ، وربما كنا أحوج اليك هنا مما فى الخارج »

قال عماد الدين : « انى طوع أمر مولاى .. لكننى قد تأهبت للذهاب فادعُ لى بالنجاح ، واذا فزت فببركة سلطانى ومولاى.. واذا مت فان روحى فداه » قال ذلك ووقف ينتظر الأمر فأجابه صلاح الدين : « سر فى حراسة الله ولا أوصيك بالشجاعة فانك شجاع ، ولكننى لا أحب أن تلقى بنفسك فى التهلكة فانك عزيز علينا .. سر فى حراسة الله »

فعاد وقبّل يد صلاح الدين وخرج ، فركب جواده وسار .. ولم تمض دقائق قليلة حتى صار خارج القاهرة وهو عليم بالطرق ومسالكها . ولما خلا بنفسه عادت اليه هواجسه فيما لاقاه من الغرائب المدهشة فى الليلة الماضية .. وحين أشرقت الشمس ، توهَّم أن ما مرَّ به من ذلك حلم رآه أثناء النوم .. اذ استبعد وقوع ما لقيه من الحفاوة والتقرب من سيدة نساء مصر . لكنه ما لبث أن جس جيبه فوجد العقد فيه حتى تحقق أن ذلك حدث فى اليقظة . فلنتركه فى هواجسه ولنعد الى أهل القاهرة

- ٣١ -

الهكارى وقراقوش

تركنا قراقوش بعد مفارقة سيدة الملك وقد استغرب ما سمعه . لكنه ظل يتوقع أن يجد أحدا فى القصر لأن أبا الحسن أكد له وجود رجل غريب . فعاد الى التفتيش فى كل مكان فلم ير أحدا . فعاد الى غرفته قرب باب القصر ، فرأى أبا الحسن فى انتظاره على مثل الجمر . وكان ينتظر أن يراه قادما اليه ومعه عماد الدين يرسف فى القيود ، فلما رآه وحده صاح به : « أين الرجل ؟ »

وكان قراقوش يحترم أبا الحسن لما يعلم من نفوذه عند الخليفة فأجابه بلطف قائلا : « لم أجد أحدا ياسيدى »

قال أبو الحسن : « يا للعجب .. كيف لم تجده ؟.. أنا على يقين من دخوله هذا القصر .. وأنت تعرفه »

قال قراقوش : « من هو ؟ »

قال أبو الحسن : « عماد الدين خادم السلطان صلاح الدين »

قال قراقوش : « عماد الدين .. لا يعقل دخوله هنا .. ان هذا الشاب من رجالنا ولا يجسر على المجىء .. وكيف يمكنه أن يدخل هذا القصر ويخرج منه ولا أراه ، وأنا ساهر لا تفوتنى حركة من حركات أهله والمفتاح بيدى ؟ وأى غرض له من المجىء ؟.. لابد من خطأ فى الخبر الذى بلغك »

قال أبو الحسن : « أنا على يقين يا أستاذ ، ان عماد الدين دخل هذا القصر . وأما غرضه فيه فلا أدرى ما هو .. لكننى سمعت من بعض غلمان القصر أن لهذا الشاب معرفة بأهل هـذا القصر قبل أن يصير الأستاذ بهاء الدين هو المشرف عليه ، وهو الآمر الناهى فيه .. بلغنى انه دخل اليه فى يوم وقعة العبيد و .. »

فاستغرب قراقوش هذا الحديث فقال : « قل لى من أنبـأك الآن بدخوله هنا ؟ »

قال أبو الحسن : « خادمى وهو من العارفين بدخائل القصر ، واذا شئت دعوته اليك »

قال قراقوش : « ادعه ، أين هو ؟ »

فوقف أبو الحسن بالباب ونادى : « ياغلام »

فلما دخل الغلام ، تذكر قراقوش انه من الغلمان القدامى فى قصور الخلفاء فقال له : « كيف تقول بدخول الرجال هـذا القصر ؟ ومن أنبأك بذلك ؟ »

فالتفت الغلام الى أبى الحسن وقال : « هل أقول ما أعرفه ؟ »

قال أبو الحسن : « قل .. »

فالتفت الى قراقوش وقال : « علمت بدخوله لأنى رأيته داخلا القاعة الكبرى »

فصاح فيه : « رأيته بعينيك ؟ »

قال الغلام : « نعم ياسيدى .. وقد مكث هناك مع سيدة الملك

وحاضنتها مدة »

قال قراقوش : « ولماذا لم تخبرنى ؟ »

قال الغلام : « لم أتجاسر خوفا من سيدتى .. فبلغت الأمر الى مولاى أبى الحسن ليبلغك اياه ، وهو من أقرباء أمير المؤمنين وله دالة ونفوذ .. وقد فعل »

قال قراقوش : « هذا لايمكن .. لايمكن أن يدخل أحد هذا القصر ، ولا أعلم به ، وليس للقصر باب آخر غير هذا ــ الا أن يدخل من الدهليز الذى يمر به الخليفة من قصر الذهب ، وهذا عليه الحراس يمنعون أيا كان من المرور .. فكيف يتيسر لهذا الرجل الدخول ؟ »

قال الغلام : « ان سيدى الأستاذ حديث عهد بهذا القصر ، وهو لايعرف دخائله وسراديبه ودهاليزه .. وفى جملتها سرداب بينه وبين منظرة اللؤلؤة ربما جاء عماد الدين منه .. »

فلما سمع ذكر منظرة اللؤلؤة أجل البحث الى وقت آخر ، وختم الحديث بقوله : « وعلى كل حال فان هذا القصر ليس فيه أحد من الرحال الغرباء الآن ، واذا كان فيه أحد فانه لا يفلت منه ، وسينال جزاءه .. لأن مولاى السلطان أوصانى خيرا بالقصر وشدد علىَّ بالمحافظة عليه لصيانة أهله .. وانى شاكر للشريف أبى الحسن على غيرته »

فقطع أبو الحسن كلامه قائلا : « انى أفعل ذلك غيرة على

النسب الشريف الذي يجمعني بأهل هذا القصر .. ولكن لابأس ، سيظهر الحق » ثم خرج وهو يقول : « لقد أزعجناك الليلة بلا طائل » وانصرف

فلما خلا قراقوش بنفسه عاد الى التفكير ، واستعاد ما سمعه من ذلك الغلام عن وجود الدهاليز والسراديب .. وبعد اعمال الفكرة ترجح له صدق التهمة ، فرأى أن يرفع الأمر الى صلاح الدين .. فلما كان الضحى ركب الى منظرة اللؤلؤة ، ولكنه رأى أن يلقى صديقه ضياء الدين الهكارى ليستشيره فى الأمر قبل الدخول على صلاح الدين ، لأنه أصبح فى تلك الأثناء أكثر مخالطة له منه . فلما وصل الى المنظرة سأل عن الفقيه عيسى الهكارى فقيل له انه منفرد فى غرفته . وهمّ الحراس يرحبون بقراقوش ويبلغون خبره الى صلاح الدين ، فأشار اليهم أن لايفعلوا ، وتحوّل عن فرسه وطلب غرفة الهكارى فى أحد أطراف البستان..

فلما علم الفقيه بقدومه وقف له ورحب به ، وكانا صديقين تعاونا فى خدمة صلاح الدين .. وبذلا جهدا فى اسناد الوزارة اليه بعد عمه كما تقدم .. وهما يتفانيان فى مصلحته

رحب الهكارى ببهاء الدين قراقوش ترحيبا كثيرا وقال له : « ماذا جرى ؟ انى لم أشهدك من عهد بعيد ، شغلوك بحراسة النساء وما أجدرك بقيادة الرجال .. » وأشار اليه أن يجلس على وسادة فوق الطنفسة

فجلس بهاء الدين وهو يقول : « ان حراسة النساء أصعب مراسا من قيادة الجند لأنها تنطوى على حراسة النساء من الرجال وأنت ماذا تعمل ؟ هل دبرت شيئا جديدا فى خدمة هذا السلطان العظيم .. انى لا أذكر اسمه الا ويتهلل قلبى فرحا .. »

فقطع الهكارى كلامه قائلا بصوت خافت : « وخصوصا حين تتذكر اننا استطعنا أن نضعه فى هذا المنصب كما تعلم »

فابتدره بهاء الدين قائلا بلهفة : « احذر يا صاح أن تقول هذا ويسمعك أحد ، اذ ليس على الملوك أثقل وقعا من الأمانى .. والآن ماذا تفعل ؟ »

فضحك الهكارى وقال : « أنا ساع الآن فى أمر لا أستغنى فيه عن معاوتتك .. واذا نجحنا فيه حق لنا أن نفاخر بما أديناه من الخدمات الجليلة للسلطان صلاح الدين »

فتطاول بهاء الدين بعنقه نحوه وقال : « وماذا عسى أن نفعل فوق ما فعلناه ، انه سلطان مطلق التصرف .. وليس بعد هـذا المنصب مطمع »

قال الهكارى : « بلى .. ان السلطان يستطيـع أن يطمع فى الخلافة »

فحوّل وجهـه عنه بازدراء ، وقال : « لا فائدة من مطمع لا سبيل اليه »

فقال الهكارى : « لم أعهدك متسرعا .. متى علمت الطريق

الذى اخترته غيَّرت رأيك فى الأمر .. »

قال بهاء الدين : « وماذا عسى أن يكون الطريق ؟.. »

قال الهكارى : « طريق الزواج .. وقد خطبت له سيدة الملك أخت الخليفة ، فاذا تزوجها فابنه منها يكتسب حقا فى الخلافة ، اذا اتحدت معه القوة كفى للظفر بهذا المنصب ، كما أراد طغرل بك السلجوقى أن يفعل و .. »

فقطع بهاء الدين كلامه قائلا : « فهمت ما تريده وهو نعم الرأى ، ولكن هل رضى الخليفة أن يزوج أخته لهذا المولى الكردى ؟ (وضحك) لا أظنه يرضى »

قال الهكارى : « اذا لم يرض طوعا رضى كرها .. وقد وعدنا بالجواب بعد قليل .. »

فقال قراقوش : « لقد أذكرتنى أمرا جئت من أجله وشغلتنى عنه بحديثك .. ان عماد الدين خادم السلطان ارتكب شططا لا أدرى اذا علم به السلطان ماذا يكون قصاصه ، وخصوصا بعد ما علمته من خطبته و .. »

فقطع الهكارى كلامه قائلا : « لا تقل خادم السلطان ، بل قل صاحبه وحارسه الخاص »

قال قراقوش : « ومتى بلغ هذا المنصب ؟ »

قال الهكارى : « بلغه أول البارحة على يد الأمير نجم الدين انه رجل كبير العقل عالى الهمة .. »

قال قراقوش : « صدقت .. ان نجم الدين جدير بأن يكون والد هذا السلطان .. وأين هو عماد الدين ؟ أحب أن أراه لأهنئه وأسأله سؤالا »

قال الهكارى : « خرج من هذه المنظرة فى هــذا الصباح فى مهمة لا يعلم أحد حقيقتها .. وماذا تريد أن تسأله ؟ »

فقص قراقوش خبر أمس كما جرى . فأظهر الهكارى ارتيابه فى صحة الرواية ، وأكد له ان عماد الدين قضى طوال الليل فى الاستعداد للسفر ، وبرح المنظرة فى الفجر .. فوقع قراقوش فى حيرة ، وعاد الى الارتياب فى الأمر وخصوصا بعد أن سمع حديث الخطبة ، لكنه أراد أن يطلع صلاح الدين على ما سمعه ، فاستشار الهكارى فى ذلك فقال : « دعه الآن لا تخبره لئلا يغير ذلك من عزمه على الخطبة ، وأنا أحب أن يتم زواجه لأنى ضامن المستقبل باذن الله »

– ٣٢ –

جلسة تاريخية

وبينما هما فى ذلك ، وقد همّ قراقوش أن يتكلم ، اذ دخل غلام الهكارى ، وقال : «على الباب رسول من مولانا السلطان» فدخل الغلام ، وحين رأى قراقوش هنــاك ظهرت البغتة فى

وجهه ، وقال : « سيدى الأستاذ بهاء الدين هنا ؟ كنت ذاهبا اليه أيضا »

فقال الهكارى : « ما وراءك ؟ »

قال الغلام : « ان السلطان يطلب حضوركما فى القاعة الآن ، وقد أمرنى أن أدعو سائر الخاصة ، وقد كنت عازما على الذهاب الى القصر الكبير لأدعو سيدى الأستاذ فاذا هو هنا »

فقال قراقوش : « اننا ذاهبان ، وماذا عسى أن يكون الباعث على هذه الدعوة ؟ »

قال الغلام : « لا أدرى ياسيدى ، ولكننى رأيت رسولا وصل فى هـذا الصباح قادما من دمشق ومعه رسالة رفعها الى مولانا السلطان ، فما زال منذ تلقاها وهو يقلب فيها ، وقد تغير وجهه وبان الغضب فيه . ثم شاور مولانا الأمير نجم الدين ، والظاهر انهما أقرا عقد جلسة للبحث فى أمر هام »

فأشار قراقوش الى الهكارى بيده مستفهما عما يعلمه من هذا الأمر . فأشار الى الغلام أن ينصرف ، ومشى مع قراقوش وخاطبه فى أثناء الطريق سرا قائلا : « ان أمر هذا الكتاب علمت به فى هذا الصباح ، وقد استقدمنى السلطان وأطلعنى عليه وعملت عملا ترضاه منى »

قال قراقوش : « وما ذلك ؟ »

قال الهكارى : « ان الكتاب من السلطان نور الدين صاحب

دمشق ، وهو شديد اللهجة للغاية »

قال قراقوش : « وما سبب ذلك ؟ »

قال الهكارى : « ألا تذكر خروج مولانا السلطان فى صفر من هذا العام الى بلاد الشام لمحاربة الافرنج ، وقد صحبته فى هذا السفر فنازل حصن الشوبك ، ثم طلب الكرك وحصره وضيق عليه وعلى من به من الافرنج ، حتى طلبوا التسليم والأمان . لكنهم استمهلوه عشرة أيام فأجابهم الى ذلك أيام . وكان السلطان نور الدين فى دمشق ، فلما بلغه ما فعله صلاح الدين ارتاب فى أمره ، وأنت تعلم ما بينهما من الحذر .. وما فى نفس صلاح الدين من الطمع فى سلطنة مصر لنفسه .. » قال ذلك وضحك فبادره قراقوش قائلا : « لا أظن أن أحدا أطمعه فيها سواك ، وقد أحسنت .. أتم حديثك .. »

فقال الهكارى : « ألا تراه أهلا لها ؟.. ما لنا ولذلك .. ان نور الدين لما سمع بما فعله صلاح الدين فى الكرك خرج من دمشق قاصدا حرب الافرنج ليغتنم فرصة تضييق صلاح الدين عليهم من جهة ، ويضيّق عليهم هو من جهة أخرى فيذهب ملكهم . وقد رأيت فى ذلك خطرا على سلطاننا ، لأن نور الدين متى أذل الافرنج وأخضعهم تفرغ للسلطان صلاح الدين وهو وزيره ، والناس أطوع له مما الى وزيره .. فتذهب مطامع صلاح الدين فى مصر أدراج الرياح ، والأفضل أن يبقى نور الدين مشغولا

عن صــلاح الدين بمحاربة الافرنج حتى يقضى الله أمرا كان مفعولا .. »

فقطع قراقوش حديثه قائلا : « لله درك من داهية .. وأحسبك عرضت هذا الرأى على السلطان .. »

قال الهكارى : « عرضه عليه بعض النــاس وأشار عليه أن يرجع لمصر بحجة ينتحلها ، ومما قالوه له : « اذا دخل نور الدين بلاد الافرنج وهم على هذه الحال .. أنت من جانب ، ونور الدين من جانب ، ملكها . ومتى زال الافرنج من الطريق وأخذ ملكهم لم يبق فى ديار مصر مقام مع نور الدين . وان جاء نور الدين اليك وأنت ههنا فلا بد لك من الاجتماع به ، وحينئذ يكون هو المتحكم فيك بما يشاء .. ان شاء تركك أو .. لا ، فقد لا تستطيع الامتناع عليه .. والمصلحة أن تعود الى مصر » (١)

« فرجع مولانا السلطان الى مصر كما تعلم ، وكتب الى نور الدين يعتذر باختلال الديار المصرية لأمور بلغته عن بعض شيعة العلويين ، وانهم عازمون على الوثوب عليها .. ولذلك فانه يخشى اذا ابتعد عنها أن يقوم أهلها على من تخلف بها فيخرجونهم ، ويمتنع عليهم مرة ثانية .. وأطال فى الاعتذار . ويظهر أن نور الدين لم يصدق هذه الأعذار ، فبعث اليه كتابا يهدده فيه ان لم يأت الى دمشق ، فلقيته فى هذا الصباح وقد أخذ منه الغضب

---

(١) ابن الاثير ١٦٦ — الجزء الحادى عشر

مأخذا عظيما فأسَّر الىَّ بغضبه وانه لم يعد يستطيع صبرا على كتمان غرضه فخففت من غضبه واستمهلته ، ولا أراه مصغيا .. ولا اخال هذه الدعوة الا لأمر يتعلق بالكتاب »

وكانا قد وصلا الى قاعة الاجتماع ، والحرس ببابها فأزاحوا لهما الستار ، فدخل الهكارى أولا وتبعه قراقوش ، وكانت جلسة حافلة اجتمع فيها نخبة الخاصة من رجال صلاح الدين وأهله ، وفى جملتهم أبوه نجم الدين ، وخاله شهاب الدين الحارمى وابن أخيه تقى الدين

فألقى الهكارى وقراقوش التحية ، فرد صلاح الدين عليهما وقال : « مرحبا بالفقيه الحكيم ضياء الدين ، وبالبطل الأستاذ زمام القصر بهاء الدين» وأشار اليهما بيده ، فجلسا وعينا الهكارى ترقبان صلاح الدين ، فرآه رغم ما يحاول اظهاره من التؤدة وسعة الصدر وسكون البال قد تجلى الغضب فى عينيه

فلما استقر المقام بالجلوس قال صلاح الدين : « يا نخبة الأمراء الأبطال ، وخيرة الأهل والخلان .. ان السلطان نور الدين صاحب دمشق أقلق راحتنا بمراسلاته وهو يطلب الينا الذهاب اليه . ونحن فيما تعلمون من حرج المقام وما يحدق بنا من الدسائس والمكايد فى بلد كل أهله أعداؤنا ، يترقبون منا غفلة أو ضعفا ليثبوا علينا . فلما اعتذرت له بذلك كتب الىَّ يهددنى انه حامل علينا بخيله ورجاله .. وأنتم رجالى وأهلى ، وما يقال لى كأنه

يقال لكم .. فلم أشأ أن أقطع بأمر فى الجواب قبل أن أستشيركم فماذا ترون ؟ »

وكان صلاح الدين يتكلم ، والحضور سكوت كأن على رءوسهم الطير ..

ولعلك لو اطلعت على خفايا سرائرهم ، لرأيت كلا منهم ينتظر ما يقوله الآخرون ، ولا يريد أن يكون هو البادىء بالرأى .. وعيونهم متجهة بالأكثر الى الأمير نجم الدين والد صلاح الدين لما يعلمونه من حزمه وعلو همته ودهائه فلم يقل شيئا . ولكنه كان مطرقا يفكر وقد جلس متربعا على وسادة عالية ، وفى يده هناة كالقلم يداعبها بين أصابعه ، ولا يخفى اضطرابه على المتفرس فيه

وكان الهكارى جالسا بجانب قراقوش ، وحدثته نفسه أن يتكلم ويقوى عزم صلاح الدين على مقاومة نور الدين ، فالتفت الى قراقوش كأنه يستشيره فى الأمر ، وهمّ قراقوش أن يوافقه على ذلك فاذا بتقى الدين ابن أخى صلاح الدين قد غلبت عليه حمية الشباب فوقف وقال : « اذا كان عمى السلطان قد جمعنا كى يستشيرنا فى هل ننصره على نور الدين ، فهو يعلم اننا لم نلحق به الا لننثانى فى نصرته . فاذا جاء نور الدين مصر منعناه بحد السيف »

فبان البشر فى وجه صلاح الدين استحسانا لتلك الجرأة وابتسم

فكان لابتسامه تأثير شديد على ضمائر الحضور ، فجعلوا يتسابقون الى الموافقة على رأى ذلك الشاب بمثل قوله . وعلا الضجيج ونجم الدين لايزال مطرقا والعيون محدقة به لترى ما يبدو منه ، واذا به قد أشار بالقلم الذى فى يده اشارة استمهال ، فأصغى الجميع وعيونهم على شفتيه . فنظر الى تقى الدين نظرة زجر وتوبيخ ، وأمره أن يجلس .. وانتهر من وافقه من الحضور. والتفت الى صلاح الدين وقال : « يا يوسف أراك تبغى أمرا عظيما أنت أقصر باعا من أن تناله . أنا أبوك وهذا خالك شهاب الدين ، ونحن أكثر محبة لك من جميع من ترى . والله لو اننى وخالك هذا وقع نظرنا على السلطان نور الدين لم نمكث الا أن نقبل بين يديه ، ولو أمرنا أن نضرب عنقك بالسيف لفعلنا

« فاذا كنا نحن هكذا ، فما ظنك بغيرنا .. وكل من تراه عندك من الأمراء لو رأوا نور الدين وحده لم يتجاسروا على الثبات على سروجهم ، وهذه البلاد له ونحن مماليكه ونوابه فيها . فان أمر سمعنا وأطعنا .. والرأى أن تكتب كتابا مع الرسول تقول فيه : بلغنى انك تريد الحضور الى هذه البلاد فأى حاجة الى هذا ؟.. يرسل المولى رسولا يضع فى رقبتى منديلا ويأخذنى اليك ، وما هنا من يمتنع .. هذا هو الرأى يابنى »

فلما قال نجم الدين ذلك أطرق الحضور ، وتلملموا وندموا على ما كان منهم . وأما نجم الدين فحالما فرغ من كلامه نهض

وخرج ، فنهض الأمراء جميعـا وتفرقوا ، وفى جملتهـم عيسى الهكارى .. فانه قبـض على يد قراقوش وخرج به الى خلوة ، فقال قراقوش : « ما هذا ؟.. لا أعهد نجم الدين جبانا ضعيف العزم الى هذا الحد .. والله أوشكت أن أقف لمعارضته »

فضحك الهكارى وقال : « لقد أخطأت يا أستاذ .. ليس بين هؤلاء من هو أقوى قلبا وأجرأ على الأمور منه ، ولكنه حكيم عاقل ، والله انى كنت أقرأ فكره وهو مطرق يسـترق النظر الى الحضور وهم يتكلمون .. وقـد تبـين ما فى كلامهم من الحدة فخشى أن يجاريهم فى الكلام فيفسد التدبير .. واذا شئت أن تتحقق من ذلك فاتبعنى ، فانى أراه داخلا الى غرفة صلاح الدين وحده »

فمشى قراقوش فى أثره حتى اقتربا من الغرفة ، فلمحهما نجم الدين فأشار اليهما أن يدخلا فدخلا وأغلقـا البـاب وراءهما ، وصلاح الدين يهم أن يعاتب أباه على ما سمعه منه .. فالتفت نجم الدين الى الهكارى وقال : « أنت حكيم وصاحب تدبير . وقد أخبرنى يوسف بما كان من تدبيرك مع الأستاذ قراقوش فى سبيل مصلحته . لذلك فانى لا أخشى أن أقول رأيى أمامكما » والتفت الى صلاح الدين وقال : « بأى عقل فعلت هـذا يا يوسف ؟ أما تعلم أن نور الدين اذا سمع عن عزمنا على منعه ومحاربته وجه هجومه الينا ، وحينئذ لا نقوى عليه ؟.. أما اذا بلغه قولى واننا

فى طاعته ، تركنا واشتغل بغيرنا ريثما تعمل الأقدار عملها .. ثم وجّه كلامه الى الهكارى وقراقوش وقال : « والله لو أراد نور الدين قصبة من قصب السكر بمصر لقاتلته عليها حتى أمنعه أو أقتل » قال ذلك وعيناه تتلألآن

فهمّ صلاح الدين بيد أبيه يقبّلها وقال : « صدقت يا أبى . قد نطقت بالصواب وأنا فاعل ذلك باذن الله .. ما أحوجنى الى رأيك وتدبيرك »

والتفت الهكارى الى قراقوش ولسان حاله يقول : « ألم أقل لك هذا ؟ »

فأكب قراقوش على يد نجم الدين فقبّلها وقال : « لا حرمنا الله من رأيك ياسيدى » وقبل أن يتفرقوا سمعوا الأذان فذهبوا للصلاة ثم الى الغداء

— ٣٣ —

الثعلب

أما أبو الحسن فلما عاد بصفقة المغبون ، ولم يظفر بعماد الدين ولا استطاع اغاظة سيدة الملك ، رأى أن يبلغ ذلك الى الخليفة بأسلوب يمكنه من تحقيق هدفه .. فصبر حتى طلع النهار ، وكان صباح الاثنين .. أحد اليومين اللذين يجلس الخليفة فيهما للناس

من كل أسبوع ، واليوم الآخر هو يوم الخميس . فأجّل أبو الحسن المقابلة الى اليوم التالى . وقضى ذلك اليوم وهو يدبر الحبائل ويعد المكايد .. وبكّر فى الصباح التالى الى بيت الجليس الشريف ، فرحب به فسأله عن الخليفة فقال : « انه مريض وقد اشتد المرض عليه أمس حتى شغل بالنا »

فابتدره أبو الحسن قائلا : « يظهر انه أصيب بنكسة حين بلغه خبر قصر النساء »

فلم يفهم الجليس مراده فقال : « وماذا جرى ؟ » وأشار اليه أن يتفضل بالدخول

فأظهر انه أخطأ بذلك التصريح ، وانه يريد الكتمان محافظة على كرامة أخت الخليفة ، فقال : « لم يحدث شىء » وجعل يبلع ريقه وهو يناول لجام البغلة الى السائس ، ويمشى مع الجليس الى قاعة الاستقبال

فانطلت الحيلة على الجليس فقال : « كيف لم يحدث شىء ، وقد قلت انه حدث ؟.. قل لا تخفِ عنى .. فانى لا أخاطب الخليفة بشأنه اذا أحببت أن أكتمه عنه »

فقال وهو يجلس ويتظاهر بعدم الاكتراث : « ليس هذا وقت الكلام فيما يكدر الخليفة ، وانما يهمنى أن يشفى من مرضه .. ما الذى جدّ عليه ؟.. حماه الله من كل سوء »

قال الجليس : « ما زال منذ أصيب بالحمى يوم ذلك الاجتماع

وهو متوعك المزاج . فلما كان صباح أمس وهو يوم الجلوس للناس لم يحضر فسألت عنه فقيل لى انه قضى يومه فى دار النساء ، وعلمت بعد الظهر أن الحمى قد عاودته بشدة .. »

فأظهر أبو الحسن الاهتمام الشديد بالأمر ، وقال وهو ينظر فى البساط : « قضى نهار أمس فى دار النساء .. وأصيب بعد الظهر بالحمى ؟ ! .. اذن لابد أن يكون ظنى الأول فى محله .. »

قال الجليس : « وما هو ؟ قل يا أبا الحسن .. ما عهدتك تخفى عنى شيئا .. قل ماذا جرى فى دار النساء ؟ »

قال أبو الحسن : « لا أحب أن يشيع هذا الخبر حفظا لكرامة أهل القصر .. علمت ان غريبا دخل ذلك القصر مساء أول البارحة وقضى معظم الليل فيه . ولما علمت بخبره أسرعت الى القيّم على القصر « قراقوش » وطلبت اليه أن يقبض عليه .. فاذا به قد فرّ فى السراديب .. أرأيت ؟.. أرأيت هذا الطيش ؟ »

فأطرق الجليس دهشة واستبعد ذلك الخبر لعلمه انه ما من أحد يتجاسر على أن يمس شرف الخليفة ، ولا يعقل انه يستطيع الدخول الى القصر برغم الحراس المحيـطين به .. ثم ان أخت الخليفة بعيدة عن مثل هذه الظنون . ولاحظ أبو الحسن تردده فى تصديق الخبر فبـادره قائلا : « اراك مطرقا تفكر كأنك لم تصدق قولى .. ومن حقك أن ترتاب . ولكن هـذه المرأة التى تزعم انها لا تريد الزواج فرارا من أبى الحسن ، انما هى متعلقة

القلب بشاب غريب من الأكراد أعدائنا »

فصاح الجليس : « من الأكراد ؟.. ماذا تقول ؟ »

فأجاب بهدوء وتظاهر بالألم : « ومن خدم الأكراد .. »

فضرب الشيخ كفا بكف وقال : « يا للفضيحة .. ماذا يكون حال أمير المؤمنين اذا بلغه ذلك الخبر ، ولكن .. »

فقال أبو الحسن : « ومن يتجاسر على تبليغه هذا الخبر ؟.. لا ينبغى أن يعلم به ، أو لعله علم وكظم فأصابته الحمى .. أتأسف كثيرا لأنى أطلعتك على ذلك ، ولكن ما العمل ؟.. لابد من تدبير حيلة تنقذ بها عرضنا من العار .. »

فتألم الجليس مما سمعه ، وآمن بصحته — وهو طيب القلب كما علمت — فأوشك أن تدمع عيناه من الغضب فضلا عما هو فيه من الكدر على مرض الخليفة . وكان لايزال واقفا فجلس وهو خائر القوى .. فأخذ أبو الحسن يتظاهر بالتخفيف عنه ، وهو يعد ذهنه لمكيدة يحقق بها ما يتمناه ، فقال : « يحق لنا البكاء فى هذا اليوم فلنبك ياعزيزى فلنبك .. » وأخذ فى البكاء حتى نسى الجليس حزنه واشتغل بالتخفيف عن أبى الحسن ، فقال له : « لابد من الصبر يامولاى ان البكاء لا ينفعنا شيئا .. لابد من تدبير طريقة »

فأسرع أبو الحسن الى مسح عينيه وتظاهر بالجد والاهتمام ، والتفت الى الجليس وقال : « نعم .. لابد من تدبير طريقة ،

ولكن الأمر أعظم مما يظهر لك ياعماه .. »

قال الجليس : « وهل أعظم من ذلك ؟ »

قال أبو الحسن : « ان الأمر بنفسه عظيم كما علمت ، ولكننى أفكر فى المستقبل ، وأرقب ما قد تأتى به الأقدار مما لم يكن فى الحسبان .. »

فظل الجليس ساكتا يفكر ، ولم يجب .. فقطع أبو الحسن سلسلة أفكاره بالسؤال قائلا : « من هو طبيب مولانا أمير المؤمنين ؟ »

قال الجليس : « طبيبه الشيخ السديد رئيس الأطباء .. وهو لا يثق به الا لسعة علمه وطول خبرته »

فقال أبو الحسن : « الشيخ السديد ؟ هل هو ماهر فى صناعة الطب ؟ »

قال الجليس : « كيف لا ؟.. وقد نال الحظوة عند الأئمة الفاطميين من أيام الآمر — رحمه الله — وكان صغير السن وأبوه طبيب قبله ثم ورث هذا المنصب بعده (١) . وقد ظل يطبب الأئمة حتى الآن ، وقد أصبح شيخا طاعنا فى السن »

فقال أبو الحسن : « وماذا يقول عن مرض مولانا .. هل سألته ؟ »

قال الجليس : « سألته .. ولكنه لم يجبنى جوابا صريحا »

(١) طبقات الاطباء ١٠٩ — الجزء الثانى

قال أبو الحسن : « اننى أخشى اجابات الأطباء حينما تكون مبهمة .. لأنهم اذا خافوا على مريضهم من الموت جعلوا كلامهم عنه مبهما .. »

فأجفل الجليس عند سماع لفظ الموت لأنه كان يحب العاضد وقال : « لا سمح الله ياسيدى .. لاسـمح الله أن يكون على الامام العاضد بأس »

فقال أبو الحسن : « أعوذ بالله أن يخرج من فمى أو يمر بذهنى سوء يصيب امامنا ، وأطلب الى الله اذا كان قد كتب شىء على أمير المؤمنين أن يمكننى من أن أفديه بروحى .. ولكن العاقل من فكر فى الأمر قبل وقوعه ولا سيما فى الامامة ، لأن الامام قطب تدور عليه أمور الدولة ، وبه تتعلق القلوب .. والكارثة فيه غيرها فى أى شخص آخر .. وهذا معنى قولى لك ان المسألة أعظم مما تتصور . هل فهمت مرادى ؟ »

فأدرك الجليس انه يعنى لو مات العاضد كيف يكون حال الأمة بعده ، فقال : « فهمت يابنى .. ان الأمر جليل ، ولكن .. »

فأسرع أبو الحسن وهو يروغ كالثعلب ، وقال : « كلنا أسرى الموت يا عماه ، وعسى أن تكون حياة الامام العاضد أطول من حياة كل منا . وأضرع اليه تعالى أن لايميتنى الا فى حياته » .. ودمعت عيناه فتأثر الجليس ، وقال : « ذلك ما نتمناه جميعا ، وخصوصا لأن مولانا ــ حفظه الله ــ ليس لنا ملجأ سواه ، وقد

كابد فى امامته من أولئك الأكراد ما لم يكابده سواه ، ولولا حزمه وتعقله لا أدرى كيف كانت حالنا .. »

فاعتدل أبو الحسن فى مجلسه كأنه فطن لأمر هام وقال : «هذا ما يدور فى خلدى ، ويجول فى خاطرى ، ويحوم حول لسانى ، ولا يطاوعنى قلبى عليه .. واذا كان هـذا حالنا الآن ، فكيف يكون شـأننا لو حدث ما نتمنى ومتنا قبله .. لو ان فى بيت العاضد رجلا حازما يخلفه لكان خيرا ، ولكنهم أطفال كما تعلم.. وهـذا المنصب لايستطيع أن يقوم بأعبـائه سوى المحنكون نظيرك .. كم كنت أود أن يكون لك يد فى هذا الأمر .. »

فاستعظم الجليس هذا الاطراء ، وأخذ يتنصل من هذا الحق فقال : « انى عبد خادم لا يقال لى مثل هذا القول ، وانما يطمع فى هذا الأمر من كان مثلك يا أبا الحسن .. »

فأخذ أبو الحسن يهز رأسه هزة الاستنكار ، وقال : « أنا .. نعم كنت راغبا فى هذا المنصب كما علمت ، وقد قلت لى ان الامام رضى أن أكون ولى عهده .. وهذا شرف لى ، لكننى أتردد كثيرا فى القبول .. »

فقال الجليس : « لا ينبغى أن تتردد فان فى قبولك انقاذ هذه الدولة »

فوجد الفرصة قد سنحت ليستشهد الجليس بأن العاضد بايعه بولاية العهد فقال : « وهب انى أردت أن أضحى وأرضى ، فهل

يصدق القول أن العاضد بايعنى ؟ »

قال الجليس : « أنا أشهد بذلك .. ألم يكن قد رضى وفقا للشرط المعلوم ؟ وانما أجل الأمر مؤقتا .. وقد اعترضته شئون مختلفة .. »

فرقص قلب أبى الحسن طربا عند سماع ذلك الوعد ، فعاد الى المغالطة وقال : « أنا أعلم ان مثلك اذا شهد فشهادته أوثق من عقد مبرم .. ولكن ما لنا ولهذا الآن ، أرجو أن لا يحدث ما يدعو الى الاستشهاد بك ، وأن ينهض مولانا الامام صحيحا معافى ، وتتمتع برؤيته ونقبّل يديه ونصلى وراءه »

قال الجليس : « عسى ان شاء الله »

وبينما هما فى ذلك اذ سمعا وقع أقدام مسرعة ، ودخل غلام عرفا انه من غلمان القصر فأجفلا فقال الجليس : « ما وراءك ؟ »

قال وصوته يرتجف : « ان مولانا الامام يحب أن يراك الآن عاجلا »

فقال الجليس : « وكيف هو ؟ »

قال الغلام : « لا أدرى ، لكننى رأيت الشيخ السديد عنده ومعه أطباء كثيرون .. »

فنهض الجليس وهو يقول : « يظهر ان المرض اشتد عليه »

فقال أبو الحسن : « لابد من ذهابك اليه حالا .. ولو كنت أعلم انى أنفعه لسرت معك ، ولكننى سأسعى بعد قليل للاطمئنان

وأنا ذاهب الآن الى المسجد لأدعو له بالشفاء » قال ذلك وخرج وترك الجليس يتأهب للركوب الى الخليفة

- ٣٤ -

الدسائس

أما أبو الحسن فانه رجع على بغلته الى منزله . وخلا فى غرفته وأخذ يفكر فى حيلة يدبرها للظفر ببغيته .. وقد تأكد من دنو أجل الخليفة ، فكيف يمهد الأمر لنفسه ، وهو يعلم ان شهادة الجليس لا تكفى وان القول الفصل لصلاح الدين .. اذا أظهر رضاه عن مرشح للخلافة نالها . فانزوى فى الغرفة على كرسى وأقفل الباب وجعل يفكر فى الطريقة المؤدية الى غرضه ، وبعد التفكير ساعة — لا يحرك رأسه ولا يده وانما كان يحرك شفتيه وعينيه — وثب من مكانه وصفق فجاء الغلام فقال له : « اسرج البغلة »

فقال الغلام : « لا تزال مسرجة ياسيدى »

فركبها وسار قاصدا عيسى الهكارى صديقه . وكان الهكارى فى غرفته المعهودة يطالع فى بعض كتب الفقه ، فلما أنبأه الغلام بمجيء الشريف أبى الحسن خف له واستقبله أحسن استقبال ، لأنه كان يتوقع أن يحتاج اليه فى تدبير بعض الشئون لمصلحة صلاح الدين

فبدأ أبو الحسن الحديث عن الفقه والتاريخ كأنه يتمم ما دار بينهما عند اجتماعهما فى دار العلم فقال : « أراك لا تزال تفتش فى الكتب .. هل ترى منها نفعا ؟ »

قال الهكارى : « كيف لا ؟ ومثلك لايسأل هـذا السـؤال ياسيدى »

قال أبو الحسن : « صدقت ، لكنى لا أعنى الفائدة الشرعية وصيـانة الحقوق ، وانما أعنى الفائدة التى يطلبها النـاس من أعمالهم .. أم أنت مثلى تهتم بالعلم لأجل العلم نفسه ؟ »

قال الهكارى : « أطلب العلم لأجل العلم ، ولكن العاقل قد يستفيد منه فوائد أخرى .. »

فأدرك أبو الحسن انه يشير الى ما يتوهم الهكارى انه استنبطه من مطالعة تاريخ طغرل بك من تلقاء نفسه ، حتى حرض صلاح الدين على أخت الخليفة كما علمت .. فعمد الى اطرائه والتغرير به ليتوصل الى ما يهدف اليه ، فقال : « انك حكيم عاقل ، وقد علمت الآن مدى تفانيك فى خدمة السلطان صلاح الدين .. ألم تكن أنت قد أشرت عليه بخطبة أخت الخليفة ؟.. لا تنكر ذلك »

فأراد أن يتواضع ويتنصل من ذلك الفضل فقال : « ليس لى هذه الدالة يا أبا الحسن »

فقال أبو الحسن : « مهما يكن من تنصلك ، فأنا أعتقد فى نفوذ كلمتك .. والآن هل تعلم لماذا جئتك ؟ »

قال الهكارى : « لا .. »

قال أبو الحسن : « جئتك لأمر اذا استطعت أن تستوعبه وتعمل به خدمت مولاك أجل خدمة .. وان كان فيه خدمة لصديقك أبى الحسن ولك أيضا »

فتطاول بعنقه وقال : « رحم الله من نفع واستنفع .. قل ما وراءك ؟ »

قال أبو الحسن : « هل تعلم ان الامام العاضد يحتضر الآن ؟ »

قال الهكارى : « أعلم انه مريض .. فهل اشتد عليه المرض ؟ »

قال أبو الحسن : « انه فى أشد حالات المرض .. واذا مات صارت الخلافة الى ولى عهده ، وأنت تعلم انه غلام عنيد لايعرف فضل الرجال .. »

قال الهكارى : « أى فضل تعنى ؟ »

قال أبو الحسن : « اسمع .. انى مطلعك على سر يهمك الاطلاع عليه .. ان العاضد سيموت الليلة أو غدا . وأنا أكثر أهله معرفة بفضل السلطان صلاح الدين .. لا أقول انى أحب أن يتولى هذا الأمر هو ويخرجه من أيدينا . ولو قلت لك ذلك لا تصدقنى ، ولكننى أعلم ان مقاومة القوة الغالبة لا تفيد شيئا . واذا صارت الخلافة الى ولى العهد الذى تعرفه كان ذلك باعثا على القلاقل . انى أعرف أفكاره وأعلم انه ينوى أن يثير الشيعة ويحرضهم على مناوأة السلطان ورجاله .. وهذا لا يفيد أحدا

من الجانبين ، ولا أخفى عنك ان العاضد كان عازما على أن يجعل ولاية العهد التّى فأوصى لى بذلك على يد الجليس الشريف ، وأوشك أن يكتب العهد ، لكن المرض منعه .. فأخشى اذا توفى فى مرضه هذا أن ينكر رجاله وأهله علىّ ذلك . فاذا أخذتم بيدى وصيّرتم هذا الأمر التّى عرفت لكم فضلكم وأغنيتكم عن التعب .. أرجو أن تكون قد فهمت مرادى ، وأظن أن ما بيننا من الصداقة القديمة يكفى للثقة بى وبقولى »

وكان الهكارى يسمع كلام أبى الحسن ويفكر فيه . فلما وقف عند هذه العبارة قال : « وبعد ذلك ؟ »

قال أبو الحسن : « أعنى اذا خاطبت السلطان صلاح الدين فى الأمر ، فاعرض عليه هذا الرأى كأنه منك ، فيعرف لك هـذا الفضـل وأنت رابح من كل وجه .. ان ما أعرضه عليك عظيم الأهمية وفيه نفع للسلطان ولك ولى فما قولك ؟ »

فرأى الهكارى كلام أبى الحسن معقولا .. وأدرك ان عمله هذا خيانة لأهل الخليفة ، لكنه نظر فيه من حيث مصلحة السلطان لأنهم اذا أعانوا هذا الخائن على تولى الخلافة كان عونا لهم فيما يريدون ، ويهون عليهم أن يخلعوه فيما بعد اذا شاءوا .. فضلا عن انه يسهل على صلاح الدين الزواج بسيدة الملك على يده فيتم تدبيره ، فنظر الى أبى الحسن نظر متفرس وقال : « أنت مقدم على عمل عظيم فيه نفع كبير لك »

قال أبو الحسن : « لا أنكر ذلك .. ولكننى أخدم مصلحة السلطان صلاح الدين أيضا من كل وجه ، واذا لم تصغ لرأيى تعبتم جميعا لأن المصريين قلوبهم مع خلفائهم كما لايخفى عليك . أرنى مهارتك فى اتمام هـذا الأمر ، واعلم انك ستكون أقرب المقربين »

قال الهكارى : « لك علىَّ ذلك .. سأبذل كل ما فى وسعى فى هذا السبيل ونرى ماذا يكون .. »

فتحفز أبو الحسن للنهوض وهو يقول : « أنا ذاهب وسنلتقى غدا ، ولا حاجة بى الى تنبيهك بأن يبقى ما قلناه هنا سرا لايعلمه أحد »

قال الهكارى : « لا حاجة الى التوصية »

— ٣٥ —

أبو الحسن وقراقوش

نهض أبو الحسن وركب بغلته وعاد .. وظل الهكارى واقفـا برهة يعيد فى ذهنه ما سمعه فرأى فيه خيرا كثيرا . فبادر الى تنفيذه .. وسار الى صلاح الدين فرآه مع أبيه فى شرفة تطل على الخليج ، وقد جلسا هناك للاستراحة ، فاستـأذن عليهما فدخل فأمره نجم الدين بالجلوس ، فجلس وتكاد عيناه تنطقان بما فى

خاطره فقال له صلاح الدين : « ما وراءك يا ضياء الدين ؟ »
قال الهكارى : « جئت مولاى بأمر هام »

قال صلاح الدين : « كل ما تأتى به هام نافع .. انى لا أنسى ما بذلته فى مصلحتنا .. قل ما بدا لك »

فأخذ يقص عليه ما دار بينه وبين أبى الحسن من أوله الى آخره ، والاهتمام ظاهر فى عينيه . فلما فرغ من كلامه أبرقت عينا صلاح الدين ونظر الى أبيه كأنه يستشيره فى الأمر . وكان نجم الدين يسمع كلام الهكارى ويمحصه ويزنه ويتدبره . فلما رأى صلاح الدين ينظر اليه قال : « انه رأى جميل ، لكنه لايزال بعيدا عن التنفيذ ، فان العاضد لايزال على قيد الحياة ، فاذا مات نظرنا فى الأمر .. بارك الله فى همتك يا أبا محمد » وسكت

فعلم الهكارى انه ينبغى له أن ينصرف ليخلو الأميران ويتباحثا فاستأذن وخرج

فلما خلا نجم الدين بابنه ، جعل يتفرس فى عينيه كأنه يطلب اليه أن يقول ما فى خاطره فقال صلاح الدين : « ما رأى والدى فيما سمعه ؟ »

قال نجم الدين : « انما أسألك عن رأيك .. »

قال صلاح الدين : « انى أرى فرصة لاينبغى ضياعها . لاأنكر انها خيانة من أبى الحسن هذا .. لكننا تفيدنا ، واذا ولناه الخلافة بأمرنا زاد نفوذنا وكان آلة فى يدنا .. »

فابتسم نجم الدين ابتسام استخفاف وقال : « انك يا يوسف رجل حرب ورأى .. ولكنك لا تزال فى حاجة الى الخبرة والحيلة .. استفدنا من وشاية هذا الرجل ان القوم اذا مات خليفتهم تضعضعوا واختلفوا فيما بينهم ، وهى فرصة لقطع تلك الخلافة من جذرها . ولا نبايع هذا ولا غيره ، وانما نستولى على القصور ونحبس أهلها الذكور أصحاب الحق فى الخلافة حتى يبيدوا . وقد خطبنا للخليفة العباسى منذ مدة ، ولا بد من الشدة والحزم فينتهى الأمر . أليس ذلك خيرا من أن نبايع خليفة آخر ونعود الى التعب من أوله ؟ »

فأعجب صلاح الدين برأى أبيه ، ورأى فيه الصواب .. وخجل لما فاته ادراكه من الأمر ، ولم يسعه الا الاصغاء والاذعان وقال : « بورك فيك يا أبتاه من حكيم حازم »

فقال نجم الدين : « ولا يكفى ذلك ، وانما يجب أن تتأهب من الآن ، وتجعل الجند على استعداد للهجوم على القصور حالما يلفظ ذلك الخليفة السىء الحظ نفسه الأخير .. وانني أرجوك أن تكتم ما أقوله لك الآن عن الجميع حتى يأتى وقته فننفذه .. واحذر أن تفعل كما فعلت أمس ، فتكشف سرك فى جلسة علنية.. فقد قيل : استعينوا على قضاء حوائجكم بالكتمان »

فأحنى صلاح الدين رأسه اعجابا وطاعة ، وهمّ بتقبيل يد والده اعترافا بقدرته .. فاجتذب نجم الدين يده وقال : « أرجو

أن تستفيد من قولى يابنى .. انك ستكون سلطانا عظيما ، فاعمد الى التؤدة والحزم واذكر وصية أبيك .. »

أما أبو الحسن فخرج من عند الهكارى ، وقد امتلأ صدره أملا وتحقق لديه الفوز بالمكيدة ، وسار توا الى دار الخليفة وهو يتنسم خبر العاضد فى أثناء الطريق . فعلم انه فى أشد حالات المرض ، فأيقن انه ميت فى تلك الليلة ، فأعمل فكرته فى الوصول الى غرضه . وقد توهّم فوزه بالخلافة ، وبقى القبض على سبدة الملك .. فأظهر اهتمامه بمرض الخليفة ، وسأل عن الجليس الشريف فقيل له انه فى غرفة الخليفة لايأذن بخروجه ، والأطباء وقوف بين يديه يبدلون الدواء بغيره بلا فائدة .. فاحتال أبو الحسن فى الوصول الى الشيخ السديد طبيب الخليفة ، فاستفهم منه عن حقيقة حال العاضد ، فأجابه : « انه يكاد يكون فى حال الاحتضار » فبكى وبالغ فى البكاء حتى أشفق الطبيب عليه ، وأخذ يخفف عنه فخرج توا الى قصر النساء ، وقد مالت الشمس الى الأصيل ، وطلب أن يرى بهاء الدين قراقوش . فقيل له انه خرج لمقابلة السلطان صلاح الدين ، فجلس أبو الحسن فى غرفة الاستقبال بباب القصر ينتظر رجوعه

وبعد قليل عاد قراقوش وعلى وجهه علامات الاهتمام . وكان أبو الحسن يتوقع أن يسمع منه ترحابا بعد رجوعه من عند صلاح الدين ، لاعتقاده بأن السلطان لابد من أن يكون قد خاطبه بأمره .

بعد ما كان من تدبيره مع الهكارى . فلما رأى بهاء الدين مقبلا على فرسه تصدى له بالباب وهو يبتسم ، فلم يكترث له قراقوش وأظهر انه لم يره فخاطبه أبو الحسن قائلا : « مرحبا بالأستاذ كيف فارقت السلطان ؟ »

فالتفت اليه بهاء الدين كأنه رآه لأول مرة وقال : « أنت هنا يا أبا الحسن ؟ »

قال أبو الحسن : « أنا هنا فى انتظارك من ساعة .. كيف حال مولانا الامام ياترى الآن ؟ »

قال بهاء الدين وهو يجلس على مقعد فى تلك الغرفة : « انه فى حال المرض الشديد شفاه الله » ولم يدع أبا الحسن للجلوس كالعادة

فجلس أبو الحسن من تلقاء نفسه وأخذ يظهر الأسف على حال العاضد ويفرك يديه ويعصر عينيه ويهز رأسه وهو مطرق ثم قال : « هل أنت متأكد أن حالته خطيرة ؟ »

قال الهكارى : « هكذا قيل لى الساعة .. شفاه الله .. انه كان رضى الخلق »

فبادر الى الجواب باهتمام وقال : « صدقت يا أستاذ .. ان الامام كان من أحسن أهلنا خلقا وأطيبهم قلبا ولذلك .. » وتنحنح وهز رأسه كأنه يحاول كتمان أمر خطر له ، ثم التفت الى قراقوش وقال : « لابد انك لاحظت بدقة نظرك يا أستاذ ماذا كانت نتيجة

طيبة قلبه وتساهله .. وان لم تر ذلك رأى العين .. أما أنا فقد رأيته .. على ان الأمر الآن أعظم مما تعلمه ، وينبغى لنا تفادى الشر قبل وقوعه .. أنا أعلم أنك ساهر متيقظ لا تحتاج الى تنبيه لكننى أستميحك عذرا اذا رأيت فىّ قلقا ، فانى أضن بسمعة أهلى أن يلحقها ما يشوهها . وقد علمت ما كان بالأمس من أمر ذلك الغريب الذى دخل هذا القصر ، وخرج منه ولم تتمكن من القبض عليه ، لأن أهل هذا القصر أرشدوه الى طريق الفرار .. لا أقول ذلك طعنا فى أحد ، لأنى أعتقد أن ذلك من عواقب الطيش عن جهل لا عن سوء نية .. فاذا كانت هـذه حال سيدة الملك وأخوها على قيد الحياة ، فاذا أصابه سـوء لا سمح الله كيف يكون حالها .. » وتنحنح وتوجه بكليته نحو قراقوش ، وهو يظهر الثقة فيه والاعتماد عليه وقال : « ولا ينبغى لى آن أخفى عنك أمرا أخفيته عن سائر الناس ، ولم يطلع عليه غير صـديقى وصديقك ضياء الدين الهكارى . أعنى ان الامام العاضد بايعنى بالخلافة بعده ، وخطبت أخته هذه وهى لا تعلم بعد . وانما يعلم ذلك الجليس الشريف ، ويعلمـه أيضا صـديقى ضياء الدين والسلطانصلاح الدين، وكان لى معه حديث طويل فى هذا الشأن فى هذا الصباح ، لا أدرى اذا كان قد أطلعك عليه .. » وصبر ليرى ما يبدو من قراقوش فاذا هو لايزال مصغيا لايبدى حراكا

فعاد أبو الحسن الى اتمام حديثه فقال : « واذا كان لم يطلعك

عليه فلا بد انه مطلعك قريبا .. وانما جئتك الآن أستعين بك فى صيانة عرضى وعرض الامام شفاه الله ، ريثما يستقر الأمر فى نصابه ويشرف عليه السلطان صلاح الدين حفظه الله .. هذا أمر قد تم الاتفاق عليه بينى وبينه .. وانما أطلب اليك أن تحتفظ بهذا القصر وأنت فاعل ذلك .. ولكننى أخشى أن يتمكن الأعداء من دخوله سرا ، فأرى أن تأمر بنقل أخت الخليفة منه الى قصر آخر ليس فيه سراديب .. وأظن أن دار الضيـافة أفضل القصـور لهذا الغرض » قال ذلك وهو يتفرس فى عينى بهاء الدين وينتظر رأيه فى ذلك

- ٣٦ -

الفرار

أما بهاء الدين ، فانه أظهر عدم الاهتمام ، وقال : « لا أرى باعثا على هذا القلق يا أبا الحسن والخليفة لايزال حيا »

قال أبو الحسن : « انما العاقل من فكر فى الأمر قبل وقوعه ، أما اذا وقع فلا فائدة من التفكير اسمع .. اسمع .. أليس هـذا صياح النساء فى القصر ؟ يظهر ان العاضد فارق الحياة .. مسكين» وأخذ يفرك كفيه ويبكى

أما بهاء الدين فحالما سمع الصياح وقف والاهتمام باد على

محياه .. وأشار الى أحد الغلمان أن يمضى فى مهمة ، وأومأ الى أبى الحسن أن يمكث ريثما يعود ، وأن لا يخرج قبل رجوعه .

وتحوّل قراقوش الى مكان آخر فى القصر ، وقد علا الضجيج فتحقق أبو الحسن من موت الخليفة .. فأصبح همه القبض على سيدة الملك .. وأسف لذهاب قراقوش ، ولم يعلم سبب ذهابه.. فجلس فى تلك الغرفة وهو مطرق يفكر كأنه على الجمر ، فسمع قرقعة اللجم وصهيل الخيل ، فأطل من النافذة فرأى فرسانا يسرعون نحو القصر كأنهم يحيطون به من كل ناحية فعجب لذلك . ثم شعر بيد تهز كتفه برعشة ، فالتفت فاذا بالغلام الذى كان تابعا له وجعله جاسوسا على سيدة الملك فى ذلك القصر .. واقف يرتعد والبغتة ظاهرة فى وجهه ، فصاح به : « جوهر .. ما وراءك ؟ »

فقال جوهر : « هلم ياسيدى .. انج بنفسك »

قال أبو الحسن : « الى أين ؟.. لا .. انى باق حتى أرى هذه اللعينة وآخذها .. ألم ترها ؟ »

قال جوهر : « انج بنفسك ياسيدى .. انج .. ان الأمر على غير ما تظن .. اخرج من هذه الغرفة قبل أن يتم الحصار حول القصر .. اخرج » قال ذلك وجرّه بكمه ، واغتنم فرصة اشتغال الناس بالصياح والارتباك وخرج به من الغرفة . ولم يصدق انه صار خارج القصر وهو يلهث من الخوف . فقال أبو

الحسن وهو يطاوعه فى المسير : « الى أين أنت ذاهب بى ؟ »

فأجابه وهو يشير اليه أن يتبعه : « تعال ياسيدى .. وسأقص عليك الخبر ، انج بنفسك .. »

وما زالا يمشيان حتى بعدا عن قصور الخلفاء ودخلا بيتا من بيوت العامة لا تقع عليه شبهة . وهو منزل لذلك الغلام كان يختبىء فيه عند الحاجة . فلما دخلا البيت أقفل الغلام الباب ، وجلس وقد امتقع لونه وأبو الحسن يستغرب ذلك منه ، ولايزال يعتقد ان الغلام مخطىء فى وهمه .. اعتمادا على ما دار بينه وبين الهكارى

فلما استقر بهما الجلوس قال أبو الحسن : « قل الآن ما الذى حملك على هذا الفرار ؟ »

قال جوهر : « لو لم أفر بك لكنت الآن فى السجن »

فضحك أبو الحسن بتهكم وقال : « فى السجن ؟ هه هه .. هذا أمر بعيد . ولا ألومك على هذا الخوف لأنك لا تعلم ما دار بينى وبين القوم فى هذا الصباح .. »

قال جوهر : « علمت كل شىء وعلمت ان تدبيرك لم يفلح ، وان قراقوش اللعين حينما كنت أنت فى انتظاره بالقصر كان هو عند صلاح الدين .. ذهب اليه فى أمر عاجل .. فأمره أن يحيط قصور الخلفاء بالجند . وحالما يموت الخليفة يقبض على كل ما فى القصور من النساء والأولاد والرجال والغلمان وكل شىء ..»

سمع أبو الحسن هذا القول ولم يصدقه فقال : « كيف عرفت ذلك ؟ ومن أطلعك على هذا السر يا جاهل .. لايبعد أن يكون صلاح الدين قد أمر هذا الطواشى أن يحتفظ بالقصور وما فيها ، وهو انما أمره بذلك لئــلا يتعدى عليها أحــد من دعاة الامامة سواى . ولا ألومك على توهمك لأنك لا تعلم ما تم الاتفاق عليه بينى وبينهم مما سأطلعك عليه فى وقت آخر »

فقال جوهر : « قلت لك ياسيدى انى مطلع على كل شىء .. وما أنا جاهل كما تقول ، بل أنا عاقل ساهر على مصلحة مولاى الشريف .. وقد تحققت ان صلاح الدين أمر طواشيه هــذا أن يقبض على من فى القصر ، وأن يبحث عنك بنوع خاص .. واذا كنت لا تصدق فارجع الى القصر وانظر ماذا تكون النتيجة »

فأطرق أبو الحسن وهو يرتعد من الغيظ ، وأخذ يعبث بلحيته وهو يراجع ما سمعه ويستغربه ، والغلام ساكت لايبدى حراكا . ثم التفت أبو الحسن اليه وقال : « ياجوهر .. هل أنت واثق مما تقول ؟ »

قال جوهر : « انى واثق تمام الثقة ، ان شئت أن تتحقق من صحة قولى فاخرج متنكرا ، وانظر الجند يبحثون عن الشريف أبى الحسن كما يبحثون عن سائر أبناء الخلفاء فى قصر النساء . ولا أضمن انهم لايكشفون أمرنا ويقبضون علينا ولو تنكرنا »

فلما تحقق أبو الحسن من صــدق غلامه وأيقن بفشله حمى

غضبه حتى أصبح صدره يرتفع وينخفض وهو يغلى كالمرجل ونسى موقفه مع غلامه فأخذ يزمجر كالأسـد ، ثم صـار يرغى كالثعلب ويتظاهر بالتجلد ، والتفت الى الغلام وقال : « ما لنا ولهم دعنا منهم .. لا أعلم السبب فى نقمتهم علىَّ أيضا .. انى بذلت الجهد فى خدمتهم .. من ياترى سيخلف العاضد على كرسى الامامة ؟ »

فقال الغلام : « لايظهر انهم سيولون أحدا مكانه لأنهم ينوون القبض على كل من بقى من أصحاب هذا النسب ، ولذلك خفت عليك »

فعاد الى الاطراق وأخذ فى تدبير حيلة للانتقام لأن فشله كان مزدوجا .. ذهبت آماله فى الخلافة ، وأُبعد ما بينه وبين سيدة الملك ، لكنه لم يشك فى انها ستندم عليه متى أكرهها صـلاح الدين على أن تكون له

أما سيدة الملك فتركناها مساء الأمس بعد ذهاب عماد الدين من عندها ، وقد ذهبت الى الفراش.. ولكنها لم تستطع أن تنام ، وتراكمت عليها الهواجس .. وبكَّرت فى الصباح للاستفهام عن أخيها فقيل لها انه مريض ، لكن الأطباء عنده ولا تستطيع أن تراه. فصـبرت وهى تتوقع الاذن فى رؤيته ، فلم تستطع ذلك الا بعد الظهر . فأذن لها وكان أحسن حالا مما تظن ، فاطمأن خاطرها عليه وجعلت تخفف عنه وتطمئنـه . وتذكرت مقاومتهـا له فى ذينك

اليومين بشأن خطبتها ، فأنَّبها ضميرها خشية أن يكون لمرضه علاقة بتلك المقاومة .. فندمت على ذلك

وبعد قليل أنبىء العاضد بمجىء الطبيب والجليس ، فأشـار الى سيدة الملك بالذهاب وطمأنها انه بخير . فعادت الى غرفتها وهى فى قلق على أخيها . ولم يطمئن خاطرها عليه ، وأتتها ياقوتة وسألتها فبكت وأغرقت فى البكاء رغم ارادتها ، فظنت ياقوتة ان الخليفة مات فصاحت صياح الندب فسمعتها سـائر الجوارى فاقتدين بها ، فعلت الضوضاء وأبو الحسن عند قراقوش.. فظنوا ان الخليفة قد مات كما تقدم وهو لم يمت

– ٣٧ –

مقابلة مهمة

وكان قراقوش قد استقدمه صلاح الدين فى ضحى ذلك اليوم ، على أثر ما جاءه به الهكارى من أبى الحسن ، وأنبأه بما علموه عن داخلية القوم ، وأوصاه أن يكون على حـذر ، وأن يجعل الجند قريبا من القصور . فاذا علم بوفاة العاضد أحاط القصور بالجند وبعث اليه بالخبر .. ولا يأذن لأحد من أهلها بالخروج لأية علة كانت ، ونبَّه بنوع خاص الى أبى الحسن والقبض عليه. فجاء قراقوش فرأى أبا الحسن عنده فاستبقاه حتى يرى مايكون.

فلما سمع الصياح داخل القصر ، وظن أن الخليفة قد مات خرج لتدريب الفرسان ، وأمر أبا الحسن بالبقاء ريثما يعود . فلما عاد لم يجده هناك ، فبعث فى طلبه فلم يقف على خبره ، فأسف لنجاته وبث العيون للقبض عليه ، وأخذ يهتم بارسال الخبر الى صلاح الدين بوفاة العاضد . ثم علم ان الخليفة لايزال على قيد الحياة ، فسُرّ لأنه لم يتعجل فى ارسال خبر الوفاة لصلاح الدين لئلا يأتى ويجد الخبر كاذبا فيوبخه .. على انه أبقى الجند حول القصر ليرى مايكون . فلما دنت الشمس من المغيب جاءه أحد الغلمان يقول : « ان مولانا السلطان قادم بموكبه »

فخف قراقوش للقائه فرآه يقصد قصر الذهب حيث يقيم الخليفة ، فاستغرب ذلك ومكث فى مكانه لايدرى سبب مجىء السلطان فى تلك الساعة ، واذا بصديقه الهكارى يمشى نحوه فرحب به فسأله عن سبب مجىء السلطان فقال : « لأن العاضد طلب أن يراه » (١)

فاستغرب قوله وصاح فيه : « الخليفة طلب أن يرى مولانا السلطان ؟ »

قال الهكارى : « وما موضع الغرابة ؟ »

قال قراقوش : « أنت أدرى منى بالباعث عليها .. وسنرى السبب بعد قليل »

---

(١) كتاب الروضتين ١٩٢ — الجزء الاول

فدخل قراقوش وأدخـل الهكارى معه وجلسا ، ودار بينهما الحديث عن مقاصد صلاح الدين ودهاء نجم الدين ونحو ذلك

أما سيدة الملك فعلمت بعد قليـل أن بكاءها وبكاء حاضنتها أشاعا خبر وفاة الخليفة ، فتشاءمت وسكتت . ولكنها انزوت فى غرفتها لا تريد أن ترى أحدا ، وقلبها يشتعل قلقا على حياة أخيها ، فضلا عن متاعبها الأخرى . ولما غربت الشمس انقبضت نفسها ، وقد تحالفت عليها ألوان من المتاعب ، كل منهـا يقبض النفس ويبعث على القلق .. لكن ساعة الغروب زادتها انقباضا وأصبحت شـديدة الرغبة فى رؤية أخيهـا ، واذا بالحاضنة أتتها مسرعة وقالت : « ان سيدى أمير المؤمنين يطلب أن يراك »

فأجفلت ولكنها فرحت وأسرعت فى الذهاب ، بعد أن التفَّت بمطرفها وخمارها ، ومشت فى الدهليز والحاضنة تسير بين يديها ، فسمعت ضوضاء ولغطا من جوانب الدهليز ، والنور ضعيف لم يساعدها على كشف الوجوه .. لكنها استأنست بأصوات بعض أهلها ، فاستفهمت من الحاضنة عما سـمعته ، فقالت : « انك تسمعين أصوات أبناء أخيك وأخوتك .. »

فأجفلت وتراجعت .. فقالت لها ياقوتة : «ما بالك ياسيدتى؟»

فقالت سيدة الملك : « ما الذى جاء بهم الى هنا ؟ ماذا جرى ؟ هل من بأس على أخى ؟ »

قالت ياقوتة : « انه بعث فى اســــــتقدامهم ، كما بعث فى

استقدامك .. »

فمشت وركبتاها ترتعدان ، وقلبها يخفق تطلعا لما عساه أن يكون من حال أخيها ، لأنه لايبعث فى طلب أهله الا وهو فى أشد حالات المرض . ولما علم أولاد العاضد بقدومها وسمّوا لها ، واقترب أكبرهم داود ولى العهد من عمته وقبّل يدها فقبلته ، وهى تتماسك عن البكاء تشجيعا له .. وصلت الى باب الغرفة وركبتاها ترتعدان وأذناها مصغيتان لعلها تسمع كلاما تطمئن له ، فسمعت صوتا استغربته ، لا تذكر انها سمعته من قبل .. فالتفت بالخمار ووسع لها الحارس ، وأزاح الستار عن الباب ، والغرفة قد أضيئت فيها الشموع . فأرسلت نظرة الى الداخل فرأت أخاها مستلقيا على السرير ، وعلى وجهه دلائل الضعف الشديد .. لكنه حين وقع بصره عليها ابتسم وسبقته العبرات ، فترامت سيدة الملك عليه ، ولم تلتفت الى أحد من الحاضرين ، وأخذت تقبّله وتقول : « لابأس عليك يا أخى وياسيدى .. لابأس عليك »

فقبّلها هو ولم يجب .. لكنها أحست بدموعه تتساقط على خدها ، فتجلدت ونهضت وهى تقول : « لابأس عليك ياسيدى انك بعافية والحمد لله »

والتفتت الى ما حولها فرأت الجليس الشريف جاثيا بجانب فراش الامام ، ورجلا جالسا على وسادة لم تكد تتفرس فيه حتى ارتعدت فرائصها ، وتذكرت انها رأت وجهه فى بعض الحفلات

الرسمية من خلال النوافذ ، وهو صلاح الدين .. فأوشكت أن ترتبك فى أمرها ويظهر الارتباك عليها ، فتجلدت ولم تشك أن صلاح الدين جاء ليخطبها

وكان سائر أبناء الخليفة قد دخلوا فى أثرها الى الغرفة ، فأشار العاضد اليهم جميعا أن يتقدموا ، فقبلهم واحدا واحـدا وهو يبكى ، ومنظره يفتت الأكباد . ولم يبق أحد من الحاضرين الا بكى حتى صلاح الدين.. أما العاضد فأشار الى أبنائه بالجلوس، وأومأ الى سـيدة الملك أن تجلس على فراشـه بالقرب منه .. فجلست وهى تحذر أن يظهر وجهها لصلاح الدين

– ٣٨ –

الوصاية

جلسوا وقد ساد الصمت على المكان مدة .. ثم تكلم العاضد ووجه خطابه الى سيـدة الملك ، قائلا بصوت ضعيف مضطرب متقطع : « يا أختاه أنت تعرفين منزلتك عندى .. انك أختى وصديقتى ومرشدتى .. كم استشرتك وكم عولت على رأيك .. والآن وقد دنت الساعة وشعرت باقتراب الأجل والذهاب الى حيث ألقى وجه ربى .. أحببت أن أطمئن على حالك وحال أبنائى بعدى » وتوقف عن الكلام ريثما يستريح والجميع مطرقون ثم

قال : « وقد علمت بالاختبار .. أن نيس حولى من رجالى أو أهلى من أثق به وأعول عليه فى شـأنكم .. وأنت تعلمين ما كان فى خاطرى عن السلطان يوسف صلاح (وأشار بيده نحوه) ولطالما شكوت لك من معاملته .. اعترف لك بذلك وأنا فى آخر ساعة من ساعات الدنيا وأول ساعة من ساعات الآخرة .. اعترف انى شكوت من معاملتـه .. لكننى لا أجد الآن من أثق فى قوله وأتحقق انه فاعل ما يقوله سواه ، لأنى محاط بأقوام قـوّالين لا يعملون .. يتنافسون فى تملقى ، ويتسابقون الى ابتزاز أموالى وبلوغ المراتب بالحيل والدسائس .. فبعثت الى السلطان وكلفته مشقة الحضور لأوصيه بكم خيرا » وأشار بأنامله أن يمهلوه ريثما يستريح .. وسكت وهو يلهث

فأطرقوا وهم يمسكون أنفاسهم ويكتمون ما يتردد فى مآقيهم من الدمع ، لا يلتفت أحدهم الى الآخر ، تهيبا من منظر الخليفة ، وتطلعا لما سيقول . ثم عاد العاضد الى الكلام ووجه خطابه الى صلاح الدين قائلا : « هذه ياصديقى أختى سـيدة الملك التى بعثت تخطبها .. وهؤلاء أبنائى وكبيرهم داود هذا .. انى تارك أمرهم اليك خوفا من أن يصيبهم مكروه بعدى .. وأشهد عليك الله أن تأخذ بناصرهم .. فهل تعدنى انك فاعل ما أقول ؟ »

فلما سمعت سيدة الملك ذكر الخطبة فى أثناء كلام أخيها اختلج قلبها خوفا ويأسا ، لئلا تكون ــ اذا مات أخوها ــ رهينة أمر

صلاح الدين ، ولاسيما بعد هذه الوصية . ثم سمعت صلاح الدين يجيب أخاها قائلا : « انت يا أمير المؤمنين بخير وعافية باذن الله ، ولا بأس عليك يدعو الى الاهتمام بالتوصية .. فانك سوف تشفى من هذا المرض قريبا ان شاء الله .. أما وقد ذكرت أمر الوصاية فاعلم ياسيدى ان الخادم « يعنى نفسه » قائم بما أوصيت به . وليكن المولى أعزه الله على ثقة من هذا الوعد ، ان أهلك هؤلاء لايصيبهم سوء ما دمت على قيد الحياة ، ولك علىّ عهد الله بذلك »

فلم تجد سيدة الملك ذكرا لها فى هذا الجواب ، فأيقنت انها ستقع فيما تخشاه .. فعظم عليها الأمر ، فضلا عما هى فيه من القلق على حياة أخيها ، فأخذت فى البكاء رغم ارادتها . وأرادت أن تخرج تخفيفا عن أخيها .. فمد يده وأمسك بيدها ليجلسها ، فأحست بارتعاش يده ، فاقشعر بدنها وجلست وهى تنظر اليه ، فرأته ينظر الى صلاح الدين وعيناه تلمعان والدمع يغشاهما . وكأنه أراد الكلام فامتنع عليه ، فأشار بأصبعه الى أخته .. ففهم صلاح الدين انه يوصيه بها فأجابه حالا : « كن مطمئنا على سيدة الملك انها أختك ونعم الأخت هى .. لكنها أيضا أختى بعهد الله.. وكفى »

فلما سمعت تصريحه انها أخته سرى عنها ، ورغم ما هى فيه من اليأس والحزن أوشكت أن تبتسم لاعتقادها ان صلاح الدين

لم يدعها أخته الا وقد عدل عن الزواج بها وهو غاية ما تريده . لاسيما وقد ضمن حمايتها ، فأصبحت فى مأمن من اعتداء أبى الحسن أو غيره . ولم يكد يطمئن خاطرها من هذه الناحية ، وقد شغلت عن الخطر الملم بأخيها ، حتى أخذ يسعل وينتفض فى فراشه من شدة الرعشة .. وهى نوبة عصبية توالت عليه فى ذينك اليومين . فنهض الجليس وأسرع يدعو الطبيب الشيخ السديد من غرفة أخرى .. فدخل الطبيب وأشار الى الحاضرين أن ينصرفوا من المكان ليعالج المريض بما يراه ، فنهضوا جميعا .. ومشى أولا صلاح الدين مشية الأسد وسيدة الملك تراقبه ، وقد أحست من تلك الساعة انها تجه حب الاعجاب ، وهى من طبعها تعجب برجال المروءة والنجدة .. وهذا ما بعثها على حب عماد الدين كما علمت . فأحست بارتياح لصلاح الدين ، واطمئنان الى رؤيته .. ثم أومأ اليها الجليس أن تنصرف الى قصرها ، وكذلك سائر الحاضرين من أهلها

- ٣٩ -

ياقوتة

فانصرفوا .. وتزودت سيدة الملك بنظرة من أخيها ، وخرجت وقلبها مطمئن ، وقد نسيت حزنها على حاله أو شغلت عنه . وكانت

حاضنتها تنتظرها فى الدهليز وتتوقع أن تراها باكية ، وخصوصا حين علمت بوجود صلاح الدين هناك .. فأخذت تتأهب للتخفيف عنها ، ولكنها وجدتها مشرقة الوجه ، رغم ما يجول فى عينيها من الدمع ، ورغم ما ظهر فى أجفانها من الذبول .. فأمسكت بيدها ، ومشت معها ، فعلمت من خطواتها وحركاتها انها فرحة . وما أن وصلت الى قصرها ودخلت غرفتها حتى ابتدرتها قائلة : « كيف سيدى أمير المؤمنين ؟ أرجو أن يكون فى غاية الصحة .. »

فقالت وهى تنزع الخمار عن رأسها : « انه فى غاية الضعف وقد داهمته الآن نوبة شديدة ، أوجبت أمر الطبيب باخراجنا من عنده ليعالجه .. »

فقالت ياقوتة : « شفاه الله .. من كان عنده وأنت هناك ؟ » قالت ذلك وهى تراقب ما يظهر منها

قالت سيدة الملك : « كان هناك السلطان صلاح الدين الملك الشهم .. » وسكتت

فقالت ياقوتة : « لماذا سكتّ ؟.. وكيف عرفت انه شهم ؟.. يظهر انك رفضته من قبل لأنك لم تكونى تعرفينه جيـدا ، أما الآن ــ بعد المشاهدة ــ فقد تبين لك انه يستحق حبك» وأظهرت المداعبـة ثم قالت : « لكننى لم أعلم سبب حضـوره عند أمير المؤمنين فى هذا اليوم ، لعله جاء لاتمام طلبه وعقد الخطبة ؟ »

قالت ذلك وهى تساعدها فى نزع المطرف عن كتفيها

قالت سيدة الملك وهى تنظر فى المرآة : « ان أخى بعث اليه »

قالت ياقوتة : « أمير المؤمنين بعث اليه ؟ ولماذا ؟ »

فتذكرت الخطر على حيــاة أخيها ، فانقبضت نفسها وقالت : « بعث اليه ليوصيه بنا خيرا .. »

فبغتت ياقوتة من هذه المفاجأة وقالت : « يوصيه بكم خيرا .. من تعنين ؟ »

قالت سيدة الملك : « أعنى أنا وأبناء أخى واخوتى .. لأن أخى شفاه الله توهم انه لن يشفى من هذا المرض ، واعترف انه لا يجد بين رجاله من يثق به ليوصيه بنا غير صلاح الدين .. فبعث اليه والينا وأوصاه بنا .. »

فعادت ياقوتة الى المداعبة لتشغل سيدتها عن الحزن ، وقالت : « ولا شك ان صلاح الدين وافق أمير المؤمنين على طلبه لأنه مطالب بهذه الخدمة بواجب المصاهرة » وابتسمت وعيناها ترقبان عينى سيدة الملك لترى ما تدلان عليه

فابتسمت سيدة الملك ، والدمع يتلألأ فى عينيها ، وقالت : « بل هو قال انه يفعل ذلك بحكم الأخوة وليس المصاهرة »

فاستغربت هذا التعبير ، وقالت : « بحكم الأخوة ؟ وأية أخوة ياسيدتى ؟ »

قالت سيدة الملك : « حين أوصاه أخى بى ، قال لكى يؤكد له العمل بوصيته : كن مطمئنا على سيدة الملك .. انها أختك ،



« فقالت سيدة الملك : كان هنـاك السلطان صلاح الدين الملك الشهم ..
وسكتت .. فقالت لها ياقوتة : لماذا سكت ، وكيف عرفت انه شهم ؟ »

وهى أيضا أختى بعهد الله وكفى »

فلم تتمالك ياقوتة عند ذلك من ضم سيدة الملك الى صدرها ، وأخذت تقبّلها ، وتقول : « ان مصيبتنا بمرض سيدى أمير المؤمنين كبيرة ، واذا أصابه سوء — لاسمح الله — فان المصيبة تكون أعظم كثيرا . ولكن فى ظلمات هذه المصائب المدلهمة نورا قد أنار قلبى وأخرجنى من ديجور اليأس ، لأن أكبر همّ كان يثقل علىّ من جهتك انما هو طلب صلاح الدين خطبتك ، وأنت لا تريدينه لأنك متعلقة القلب بعماد الدين .. وأنا أعلم سلطة صلاح الدين وانه اذا أراد أمرا لايستطيع أحد أن يردّه ، وقد قلت الآن انه تخلى عن الخطبة وتعهد بحمايتك كأنك أخته . فاطمئنى ياسيدتى ولا يهمك سعى الساعين أو وشاية الواشين..»

فعلمت سيدة الملك انها تعنى أبا الحسن ، فأجابتها بعينيها وكل جوارحها أنها تؤيد قولها .. لكنها انتبهت فجأة الى حال أخيها ، فعادت الى الانقباض ولطمت كفيها وقالت : « ويلاه .. ان أخى فى حال اليأس من الحياة .. ماذا أعمل ؟.. كيف يصير أمرنا اذا مات ؟.. » وغصت بريقها وعادت الى البكاء ، وأخذت ياقوتة تخفف عنها

قضت معظم ذلك الليل فى قلق .. ولم تفق الا صباحا على أصوات النعاة . ولم يكن لخبر موت أخيها وقع غريب فى نفسها ، لكن وقعه كان شديدا .. ولم يمض قليل حتى تعالى الصياح فى

القصور واجتمع الوزراء ورجال الدولة والكتاب وغيرهم ، وغص قصر الذهب وسائر القصور بالناس . وأراد أهل الخليفة اقامة مأتم يليق بالخلفاء ، وهمَّ رجال الدولة أن يبايعوا لدواد ولى العهد ، واذا بالقصور قد أحاط بها رجال صلاح الدين . ثم جاء بهاء الدين قراقوش الى الجليس الشريف وقال له : « ان السلطان يرغب اليكم أن تجعلوا المأتم مختصرا خوفا من وقوع القلاقل ، ومن مات فقد مات .. ولا يجدى الصياح والعويل نفعا »

فلم يسع القوم الا الاصغاء والرضوخ ، وخصوصا بعد ما شاهدوه من استقدام الخليفة لصـلاح الدين بالأمس ، وان لم يعلموا تفصيل ما دار بينهما .. وانما دلهم استقدامه على رفيع منزلته عنده ، ومهما يكن من الأمر فالقوة غالبة وجند صـلاح الدين قابض على المدينة بيد من حديد .. فأذعن القوم لأمره

— ٤٠ —

قراقوش

أما سيدة الملك فبلغها التشـديد بمنع أهـل ذلك القصر من الخروج ، ورأت الجند محدقا به من كل ناحية ، فاكتفت بالبكاء وهى فى غرفتهـا .. وندبت أخاها وبكته ، والحاضنة بين يديها تبكى معها

وبينما هما فى ذلك اذ سمعتا صوت وقع أقدام لدى باب القصر فخافت سيدة الملك .. فنهضت ياقوتة وهى تقول : « لا تخافى ياسيدتى بعد أن قال عنك صلاح الدين أنك أخته » ولم تصل الى باب الغرفة حتى سمعت قارعا يقرعه بلطف ، فسرى عنهـا وفتحته فرأت قراقوش واقفا باحترام وهو يقول : « هل مولاتنا سيدة الملك هنا ؟ »

قالت ياقوتة : « نعم .. ماذا تريد منها ؟.. انها فى أشد حالات الحزن »

قال قراقوش : « أريد أن أعزيها وأطمئنها ، وأطلب اليها أن لا تهتم بما قد تراه من دخول بعض الناس الى هذا القصر أو خروجهم منه ، وأحب أن أوجّه اليها سؤالا »

فصاحت سيدة الملك من الداخل : « تفضل يا أستاذ .. ماذا تريد ؟ »

فدخل قراقوش وهو ينظر اليها نظرة عطف واشفاق ، فالتفتت اليـه وقالت : « ماذا وراءك الآن ؟ ماذا تريد ؟.. ها ان أمير المؤمنين قد مات .. فليسكن روعك وروع أصحابك .. » وغصت بريقها ..

فجثا قراقوش بين يديها قائلا : « ان موت أمير المؤمنين قـد ساءنى ياسيدتى ، لكنه جرى بقضاء الله ولا مرد لقضائه . وانما جئت الآن لأخبرك أن مولاى السلطان أمرنى أن أستولى على

ما فى هذه القصور من الأموال ، وخصوصا على ما فى هذا القصر من النساء ، وهن كثيرات كما تعلمين . وانما استثنى منهن سيدتى أخت أمير المؤمنين ، ومن شاءت أن يصحبها من أهل هذا القصر من غير أهلها و .. »

فقطعت كلامه قائلة : « وماذا تعملون بأهلى .. أين هم ؟ »

قال قراقوش : « لابأس عليهم .. لأن المولى الراحل — رحمه الله — قد أوصى السلطان بهم خيرا ، وهو عازم على نقلهم من هذا القصر الى قصر آخر يكونون فيه تحت رعايته ولا بأس عليهم . وخصوصا مولاتى سيدة الملك ، فمن تريدين أن يخرج معك من الأتباع أو الخدم ، أو تحمليه من الأثاث والآنية أو غير ذلك ؟ »

فأطرقت وقد كبر عليهـا الخروج من ذلك القصر .. وبرغم اطمئنانها الى ما ستناله من الرعاية عند صلاح الدين لم تتمالك عن النفور من هذا الأمر ، وقالت : « تخرجوننا من قصورنا ؟.. وماذا تفعلون بمن فيها من النساء والرجال والأطفال فانهم يعدون بالآلاف ؟ »

قال قراقوش : « ياسيدتى ان مولاى صلاح الدين سيعمل بما لا يمس كرامة أحد .. فمن كانت من الجوارى ذات بعل أطلقها مع بعلها ، ومن كانت حرة ولا بعل لها أطلق سراحهـا . وأما الجوارى غير الحرائر فيهبهن لبعض رجاله . أما أهـل الخليفة فانهم سيقيمون نســاء ورجالا فى غاية الاكرام والحفاوة تحت

عنايته .. ويوزع عليهم الأعطيـة والملابس والأقوات بحيث لا ينقصهم شيء ، كأنهم فى قصورهم فى حياة الخليفة ــ رحمه الله ــ ولا سيما سيدتى فانها ستنال كل رعاية هى ومن معها .. »

فقطعت كلامه قائلة : « وماذا تفعلون بولى العهد داود ؟.. ألم يبايعوه ؟ »

فبلع ريقه وقال : « لا أظنهم يبايعون أحدا فان السلطان نور الدين ــ مولانا الأكبر ــ قـد أمر بأن نبايع للمستـضىء بالله العباسى .. ولا يكون على الأرض خليفتـان . على انى لا أرى الخلافة الا عبئا لصاحبها وخطرا عليه ، ولا فائدة منها .. استميح سيدتى عذرا فى اختصار الحديث لأنى مضطر للاشتغال بتنفيـذ أوامر مولاى السلطان بالاستيلاء على ما فى هذه القصور كما قلت لك .. فاخبرينى ما الذى تريدين أن أحتفظ به لك ؟.. » قال ذلك ونهض وأظهر انه يريد الخروج فقالت : « أريد أن تصحبنى هذه الحاضنة ، وهى تخبرك بما أريد أن آخذه من الأثاث أو الثياب .. » وحوّلت وجهها عنه

فأتمت ياقوتة كلامها قائلة : « دعوا هذه الغرفة والتى الى جانبها لايمسها أحد ، وأنا أهيىء فيهما ما يجب نقله .. بارك الله فيك يا أستاذ .. »

فتحوّل قراقوش وخرج ، فلما خلت ياقوتة بسيدة الملك قالت لها : « الحمد لله .. ان صلاح الدين سوف يفى بوعده .. رأيتك

تدققين فى السؤال وتستغربين عدم المبايعة لسيدى داود .. احمدى الله انهم لم يستخدموا السيف فى افناء من بقى من أهل الخلافة كما فعل غيرهم فى مثل هذه الحال . ألم يأمر أبوالعباس السفاح بقتل كل من بقى من بنى أمية حتى لايبقى واحد منهم يطالب بالخلافة ؟ فلو أمر صلاح الدين بمثل هذا الأمر ، فمن يستطيع أن يرده ؟.. أم تظنين أن ذلك المغرور أبا الحسن يرده ؟.. لعنة الله عليه »

فلما سمعت ذكر أبى الحسن أحست براحة لأنها نجت من حبائله فى ظل صلاح الدين ، ونشطت للخروج فقالت : « أعدى ما نحتاج اليه من أثمن المتاع وأخفه .. » قالت ذلك وتنهدت . فأخذت ياقوتة تهتم بذلك .. وكان يومهم هذا من أعظم أيام الشدة لأنهم فى يوم الانتقال من دولة الى دولة

- ٤١ -

نهاية الدولة

أما قراقوش ، فانه قبض على جميع من فى تلك القصور من النساء وعرضهن على صلاح الدين ، فوجد أكثرهن من الحرائر فأطلقهن . وجمع الباقيات فوهبهن لعدد من رجاله ، وأخلى تلك

القصور من الناس .. وأخذ كل ما كان يصلح له ولأهله وأمرائه والخواص من مماليكه وأوليائه من الذخائر وغيرها : وأخذوا من الجواهر والمصوغات ما لايحصره وصف . فنكتفى بنقل عبارة مؤرخ الدولتين فى تعداد ما استولوا عليه منها قال : « وأخلى دوره (دور العاضد) وأغلق قصوره ، وسلط جنوده على الموجود، وأبطل الوزن والعد عن الموزون والمعدود ، وأخذ كل ما صلح له ولأهله وأمرائه ولخواص مماليكه وأوليائه من أثمن الذخائر، وزواهر الجواهر ، ونفائس ، ومحاسن العرائس ، وقلائد الفرائد ، والدرة اليتيمة ، والياقوتة العالية الغالية القيمة ، والمصوغات التبرية ، والمصنوعات العنبرية ، والأوانى الفضية ، والصوانى الصينية ، والمنسوجات المغربية ، والممزوجات الذهبية ، والمحوكات النضارية ، والكرائم واليتائم ، والعقود والتمائم والنقود ، والمنظوم والمنضود ، والمحلول والمشدود ، والمنعوت والمنحوت ، والدر والياقوت ، والحلى والوشى ، والعبير والحبير والوثير والنثير والعينى واللجينى ، والبسط والفرش وما لا يعد احصاء ولا يحد استقصاء ، فوقع فيها الفناء ، وكشف عنها الغطاء ، وأسرف فيها العطاء ، وأطلق البيع بعد ذلك فى كل حدث وعتيق ، ولبيس وسحيق ، وبال وأسمال ، ورخيص وغال ، كل منقول ومحمول ومصوغ ومعمول ، واستمر البيع فيها عشر

ســنين ، وتنقلـت الى البـلاد بأيدى المســافرين الواردين والصادرين » (١)

أما أهل الخليفة فنقلهم صلاح الدين الى دار برجوان فى الحارة المنسوبة اليه .. واختص سيدة الملك بالاكرام والحفاوة

وكانت مصر الى ذلك اليوم خلافة مستقلة يدعى على منـابرها لخليفتها الشيعى العاضد لدين الله . فأمر صلاح الدين أن تتحول الخطبة للمستضىء بالله الخليفة العباسى ، كما كان نور الدين قد طلب منه على يد أبيه نجم الدين . وكان قد اعتذر له فى التأجيل خوف الفتنة ، والواقع انه أجلها ليستعين بذلك على نور الدين اذا أراد أن يأخـذ مصر منه بالقوة . فيأخـذ هو جانب العاضد ويتقوى به وبالمصريين على دفع عسكر الشام . فلما تأكد ضعف العاضد وتحقق من اشـتغال نور الدين عن مناهضته ، عزم على اقامة الخطبة العباسية مظهرا بها الطاعة لنور الدين .. فلم يجسر أحدمن العلماء أن يبدأ بذلك الا رجلا أعجميا اسمه الأمير العالم تصدى للخطبة . فلما كان يوم الجمعة صعد المنبر ودعا للمستضىء العباسى ، فوافقه الناس ولم يظهروا معارضة ، فكتب بذلك الى سائر بلاد مصر . وكان هذا فى أثناء اشتداد المرض على العاضد وقد توفى ولم يعلم به .. فأصبحت مصر بذلك تابعة لبغداد من حيث الخلافة من سنة ٥٦٧ هـ .. ومنعوا العاضد وسائر الرجال

(١) كتاب الروضتين ١٩٤ – الجزء الاول

من أهله عن الزواج حتى لايعقبوا نسلا يطالب بالخلافة

- ٤٢ -

الهواجس

أما سيدة الملك فلما رأت نفسها فى قصرها الجديد ، فى دار برجوان ، أكبرت ذلك الانتقال .. وحين بلغها تحول الدعوة للعباسيين تحققت من ذهاب دولة العلويين ، فشق ذلك عليها كثيرا ، فضلا عن وفاة أخيها . وقضت أياما وهى منزوية فى غرفة من قصرها لا تكلم أحدا الا ياقوتة التى كانت تتردد عليها لتخفف عنها .. ومهما يكن من مشاغلها المتقدم ذكرها فان أمرها مع عماد الدين كان غالبا عليها . وقد فارقته فى تلك الليلة المهولة وهى بين الشك واليقين من أمره . وكانت وهى فى ابان أحزانها تود أن تفاتحها ياقوتة بحديثه لعلها تسمع ما يقوى أملها بلقائه . وياقوتة لا تفعل ليس عن تهيب ، ولكنها كانت ترى اشتغال سيدتها بحب ذلك الشاب من قبيل العبث ، وتود أن تنساه وتتحول عنه .. لذلك لم تكن ترى من الحكمة أن تفاتحها فى ذكره أو أن تجعل ذكره من أسباب اطمئنانها وراحتها

على انها كانت قد استأذنت صلاح الدين فى الخروج للتنزه فى البساتين ، ولم يكن يؤذن لسواها بذلك من أهل الخليفة ، ولكن

صلاح الدين كان كثير العناية بسيدة الملك ، والاحترام لارادتها قياماً بعهده لأخيها . وكان ذلك من أكبر أسباب تعزيتها على مصائبها .. على انه اشتغل عنها مدة بالحروب فى الشام ، وتوفى فى أثناء ذلك أبوه (سنة ٥٦٨ هـ) وحدثت أمور أخرى شغلته عنها ، لكنه كان قد أوصى بهاء الدين قراقوش بها

مضت مدة لم تسمع فيها شيئاً عن عماد الدين ، ولا هى تعرف مقره ولا مصيره ولا ترى بابا للسؤال أو البحث ، فضاق صدرها واستولى عليها القنوط ، واستبد بها التشاؤم ، وأصبحت لا تفرح بنزهة ولا ترتاح الى حديث . وقلّ طعامها وتكاثر أرقها فأخذت فى الهزال ، وياقوتة تبذل جهدها فى تسليتها ، وكلما رأت ضعفها وانقباضها تحيرت فى أمرها . وكانت تظن أن طول غياب عماد الدين ينسيها اياه .. ولما لم تعد تسمعها تذكره ظنت أنها نسيته ، لكنها ما لبثت أن أدركت خطأها ذات ليلة وهى نائمة فى غرفة تنفذ الى غرفتها ، اذ أفاقت على صوت سيدة الملك وهى تناديها : « ياقوتة ، ياقوتة .. »

فوثبت من فراشها الى فراش سيدتها ، فرأتها قد جلست على السرير وشعرها مشعث وقد تغيرت سحنتها فترامت عليها وصاحت: « مولاتى .. حبيبتى .. ماذا تريدين ؟ »

فقالت سيدة الملك : « عماد الدين .. عماد الدين .. أين هو ؟ سمعتهم ينادونه »

فقالت ياقوتة : « أين هو ياسيدتى ؟.. انه ليس هنا .. انك ترين حلما .. ألا تعلمين انه مسافر ؟ »

فأزاحت شعرها عن جبينها وتفرست فيما حولهـا ، وعيناها تدلان على اضطرابها وارتباكها وقالت : « انه مسافر ؟.. آه ما أطول هذا السفر .. انى سمعت اسمه فى الحلم .. يا ليتنى ظللت نائمة لعلى أسمع ذكره مرة ثانية أو ربما تراءى لى طيفه ..» قالت ذلك واستغرقت فى البكاء

فأكبت ياقوتة عليها وأخذت تخفف عنها وتقول : « لماذا تفعلين ذلك ياسيدتى ؟.. ماذا أصابك ؟ أين تعقلك وحكمتك ؟ »

فاجتذبت نفسها من بين ذراعيها ، وهى تقول : « لا تذكرى التعقل والحكمة . لا محل لهما مع الحب ياياقوتة .. بالله ماذا جرى لى .. ويلاه لم أعد أخشى التصريح بما فى قلبى .. لكننى حبسته زمانا حتى كاد يقتلنى ، تدبرى الأمر واسـعفينى .. آه ياعماد الدين .. » وعادت الى البكاء

فجثت ياقوتة بين يديها ، وقالت : « هـوّنى عليك يامولاتى.. واعتمدى علىّ .. لماذا لم تفاتحينى بهذا الأمر من قبل ؟ »

قالت سيدة الملك : « وما الفائدة من الكلام ؟.. ها أنا قد كلمتك فاخبرينى أين عماد الدين ، ما العمل للوصول اليه ؟.. ألم تعلمى مقره ؟.. ألم تسألى أحدا عنه ؟ قولى .. »

قالت وهى تمسح دموع سيدتها بمنديلها : « نعم .. سألت عنه

وقد علمت من الأستاذ بهاء الدين قراقوش انه سار فى مهمة سرية اذا نجح فيها صار رجلا عظيما يليق بسيدة الملك .. وهـذا أمر ذو بال ياسيدتى ، لأن بنت الخليفة وأخت الخليفة لا يليق بها أن تتزوج بواحد من عامة الناس و .. و .. »

فقطعت كلامها قائلة : « لا تقولى خليفة ، ولا عامة .. انتى أسيرة فى هذا القصر وهو طليق .. وقلبى أسير أيضا ولا أدرى ما اذا كان قلبه كذلك .. » وشرقت بدموعها

فأخذت ياقوتة تضمهـا وتمسح دموعها وتقبّلهـا ، وتقول : « خففى عنك ياسـيدتى .. وارجعى الى رشدك .. واصبرى .. لنرى ماذا نعمل »

قالت سيدة الملك : « ماذا نعمل ؟.. قد طال غيابه ولا أدرى ماذا أصابه .. »

قالت ياقوتة : « لم يصبه شىء ولابد من عودته ظافرا ، ويصير من كبار الرجال . واذا علم صلاح الدين بميلك اليه زاده رفعة وتقدما .. يظهر انك نسيت هذه النعمة .. نسيت اهتمام صلاح الدين بك ، ومعاملته اياك معاملة الأخ لأخته ..؟ »

قالت سيدة الملك : «كلا لم أنس ذلك .. ولولاه لقضيت حزنا وكآبة.. ولكنما الذى أسمعنى اسم عماد الدين فى هذه الليلة ؟»

قالت ياقوتة : « لعل ذلك يبشر بقرب عودته ، تمهلى الى الغد لنرى ماذا يكون .. » وأشارت اليها أن تعود الى النوم فأطاعتها

ونامت ، وانصرفت ياقوتة الى غرفتها وهى تفكر فى سيدتها ، وقد ندمت لسكوتها عن ذكر عماد الدين كل هــذه المدة ، على انها اعتقدت ان سيدتها لم تسمع اسم عماد الدين عبثا وانه لابد من شيء يحدث بشأنه

وقد تحقق ظنها فى صباح اليوم التالى ، اذ جاءها قراقوش يقول : « ان السلطان صلاح الدين قادم بعد قليل لمقابلة سيدة الملك .. »

فبغتت ، ولكنها توقعت خيرا من تلك المقــابلة ــ وصاحب اليأس يتوقع من كل جديد فرجا ــ فقالت : « هل يطلب مولانا السلطان أن يقابل سيدتى ويخاطبها ؟ انه يفعل حسنا لأنها منقبضة النفس وهى تســتأنس برؤيته .. أنا ذاهبــة لأخبرها بقدومه » ومضت اليها

- ٤٣ -

المكيدة

وكانت ســيدة الملك قــد نهضت من الفراش ، وهمــت أن تستدعى ياقوتة .. فلما دخلت عليها قرأت البشر فى محيــاها ، فخفق قلبها وقالت : « ما وراءك ؟ »

فقالت وهى تبتسم : « لعـل الفرج قريب .. ان السلطـان صلاح الدين آت لمشاهدتك »

قالت سيدة الملك : « هو طلب ذلك من تلقاء نفسه ؟ » وتوردت وجنتاها من البغتة

قالت ياقوتة : « نعم ياسيدتى ، فلعل عنده خبرا يسرك .. قومى والبسى ثيابك »

فنهضت وسـاعدتها ياقوتة فى اللبس ، فارتدت ثوبا بسيطا وأصلحت شعرها وغطت وجهها وخرجت الى قاعة الاسـتقبال ، وركبتاها ترتعشان من التأثر

وبعد قليـل سمعت وقع خطوات فى الدار ، واذا ببهاء الدين قراقوش قد دخل وهو يقول : « ان مولانا السلطان قادم .. »

فتهيأت سيدة الملك للقائه .. ثم دخل صلاح الدين وهو يتلطف فى القاء التحية ، فهمت بالنهوض له ، فأشار اليها أن تجلس وهو يبتسم وقال :« اجلسى يا أختى .. قد أبطأت فى زيارتك هـذه المرة لغيابى عن مصر .. كيف أنت ؟ أرجو أن تكونى بخير »

فلما سمعته يناديها بالأخوة انبسطت نفسها وقالت : « طالمـا كنت مشمولة برضى السلطان صلاح الدين فأنا بخير .. والحمد لله .. »

وجلس صـلاح الدين على وسادة بين يديها وهو يشير الى قراقوش أن يجلس .. وظلت ياقوتة واقفة ، فقال صلاح الدين

يخاطب سيدة الملك : « أرجو أن تكون قد تحققت لك أسباب الراحة فى هذا القصر .. »

قالت سيدة الملك : « نعم .. من نعم السلطان أنه لاينقصنى شىء من أسباب الراحة لأن الأستاذ بهاء الدين لايدخر وسعا فى هذا السبيل .. ويكفينى من أسباب السعادة أن يدعونى السلطان صلاح الدين أخته »

قال صلاح الدين : « فاذا كنت راضية عن هذه الأخوة ، لم يبق ثمة باعث لوضع هذا النقاب على محياك .. » وضحك

فأزاحت النقاب عن وجهها وقالت : « نعم صدقت » وأطرقت حياء ..

فرأى صلاح الدين الضعف باديا على وجهها ، فقال : « أراك منحرفة المزاج ياسيدة الملك .. هل تشكين من شىء ؟.. »

فسكتت وظلت مطرقة .. فالتفت الى ياقوتة ، فأدركت انه يستفهم منها عن سبب ذلك النحول ، فقالت : « انها لا تشكو ألما ، ولكنها منحرفة المزاج قليلا »

قال صــلاح الدين : « لابأس عليك يا أخيــة .. وأرجو أن لا أكون قد أثقلت عليك بهــذه الزيارة .. وانما حملنى عليهـا الاطمئنان عليك .. ولكى أسألك عن أمر لا أحب أن يطلع عليه سواك ، وأظنك أعلم الناس به »

فتطلعت الى معرفة ذلك الأمر ، وقالت : « انى رهينة ما تريد

ياسيدى .. » وشخصت فى وجهه لتستشف ما يريده

فالتفت يمينا وشمالا كأنه يتحقق من خلو المكان من الغرباء ، وقال : « أنت تعلمين ان أخاك ـ رحمه الله ـ أوصانى بك وبسائر أهلك خيرا ، وأظننى قمت بواجب الوصية .. »

فأشارت بعينيها ورأسها أن : « نعم »

فقال صلاح الدين : « وأظننى لم أقصّر أيضا فى اتخاذ كل وسيلة لاسعاد حال هذه البلاد من كل وجه .. فرفعت كثيرا من المظالم التى كانت فى عهد الدولة الماضية ، وقد أتاها الذين كانوا يحيطون بالمرحوم أخيك .. وكنت أظن هذا كافيا لاجماع أولئك القوم على الطاعة .. » وسكت

فقالت سيدة الملك : « أظنهم مجمعين .. لأن مولانا السلطان لم يدخر وسعا فى تخفيف الضرائب وتحقيق العدالة »

قال صلاح الدين : « وكان فى امكانى حين تحولت هذه الدولة الى يدى أن أقتل كل من كان من الأمراء والوزراء من أتباع الدولة الماضية .. لكننى لم أفعل ذلك رغبة فى أن يقدروا لنا هذا الفضل .. »

فاستغربت قوله وتوسمت من ورائه شيئا جديدا ، وأشارت بعينيها كأنها تستفهم عما حدث فقال : « ولكننى علمت ان هؤلاء الأمراء والأعيان يتآمرون علينا .. »

فرفعت بصرها وقالت : « يتآمرون على السلطان ؟ »

قال صلاح الدين : « نعم .. ولو تآمروا فيما بينهم فقط لهان شرهم ، لكنهم يستعينون علينا بالأعداء .. انهم يخابرون أعداءنا الافرنج من ساحل الشام وصقلية يحرضونهم على مناوأتنا ليتاح لهم القيام علينا ، أو تخرج هذه البلاد من أيدينا »

قال ذلك وقد بان الغضب فى رنات صوته (١)

فأجفلت وقالت : « يتواطأون مع الافرنج على سلطانهم .. يالها من خيانة » وأطرقت لحظة ثم قالت : « هل وثق سيدى من هذا الخبر ؟ »

قال صلاح الدين : « انى واثق تمام الثقة مما أقول .. لأن خبرهم جاءنى من رجل أثق به وثوقى بنفسى .. قبحهم الله .. اذا كانوا يعدون خروج الدولة من الخلافة العبيدية الى العباسية شرا ، وكلاهما اسلاميتان .. فكيف بانتقالها الى الافرنج وهم أعداؤنا الألداء مذهبا ووطنا ، فبدلا من أن نتعاون على صيانة بلادنا منهم ندلهم على عوراتنا ونحرضهم على فتح بلادنا ؟.. هل رأيت أضعف رأيا من هؤلاء .. ألا يحل قتل الساعين فى ذلك ؟ » قال هذا وقد ارتفع صوته وأبرقت عيناه رغم ما حاوله من تلطيف غضبه بين يدى سيدة الملك ، وقد عبث بعثنونه يحكه

أما هى فانها شاركته فى الغضب ، وأحست بنوع من الخجل لأن الذين قاموا بتلك المؤامرة من رجال أخيها فقالت : « نعم ..

---

(١) ابن الاثير ١٧٩ — الجزء الحادى عشر

انها خيانة عظيمة .. ولكننى أستغرب وقوع مثل هذا العمل من قوم عقلاء .. فربما كان الساعون فيه من بعض العامة الجهلاء »

قال صلاح الدين : « انهم من أكبر الأمراء والأعيان ، وفيهم رجل يزعم انه من سلالة العبيديين أقربائكم . ولم نوفق الى القبض عليه مع من كان فى القصر منكم ، وحسبناه قد اكتفى بالنجاة من القتل واختفى ، لكنه الآن من أكبر المحرضين على الخيانة .. أظنك عرفتــه .. ولولا دخوله فى هذا الأمر لم أتعبك فى شرح هــذه الخيانة .. وانما أردت الاستعانة بك فى اســتطلاع حاله لعلك تعرفين عنه شيئاً ، لأنه أقرب المقربين لأخيك ــ رحمه الله ــ حتى انه كان طامعا فى ولاية العهد بعده .. أظنك عرفته »

فعلمت سيدة الملك انه يعنى أبا الحسن ، فامتقع لونها غضباً وقالت : « نعم عرفته .. أظنك تعنى ذلك الشريف الكاذب .. انه يدعى النسب فينا وليس هو منا .. ألا تعنى أبا الحسن ؟ »

قال صلاح الدين : « اياه أعنى .. انه من أكبر المنافقين الخائنين لأنه جاءنا والمرحوم العاضد على فراش الموت ، وتوسل الينا فى نقل ولاية العهــد اليه على أن يكون عونا لنـــا فى كل شىء فلم نوافقه .. فانقلب الى دس الدسائس ونصب الحبائل ، وانقاد له جماعة من المارقين وسينال كل منهم جزاءه .. وانما التمس منك أن ترشدينا عما تعلمينه من مكان أبى الحسن » قال ذلك وهو يتلطف فى السؤال بخفض صوته

فظلت ساكتة وقد تمنت أن يكون ما يقوله صلاح الدين صحيحا ليقع أبو الحسن فى شر أعماله ، وتتخلص منه .. وأحبت أن تتحقق من صحة ذلك النبأ ، فقالت : « نعم .. أعرف نقص هذا الرجل وسوء خلقه ومطامعه ، وسأبحث عن مكانه .. ولكننى أرجو أن يكون سيدى على ثقة من الخبر ، واذا شاء أن يزيدنى بيانا فانه يعيننى على البحث »

قال صلاح الدين : « ان هـذا الخبر تلقيته من عدة مصادر فشككت فيه ، حتى أتانى بشأنه كتاب من رجل لا أشك فى صدقه كتب الكتاب بخطه .. وقد وصلنى فى فجر أمس سرا مع وفد أرسله الافرنج الموالون لأولئك الخائنين ، بحجة انهم يحملون الىَّ هدية من بعض ملوكهم .. وهم انما يحتالون فى مقابلة تلك العصابة ليتموا المكيدة .. وهـذا هو الكتاب اذا اطلعت عليه أغنانى عن زيادة الايضاح » قال ذلك ومد يده الى جيبه وأخرج لفافة دفعها الى قراقوش ليقرأها

- ٤٤ -

نص الكتاب

ففتح بهاء الدين اللفافة ، وأخذ يقرأ : « أكتب هـذا الكتاب الى مولاى السلطان وأنا فى أعماق السجن فى بيت المقدس .. ولا

يسعنى الوقت لتفصيل سبب سجنى فان الكلام فيه يطول ، وانما أسرعت الى كتابته لأنقل الى مولاى خبرا هاما عرفته عن ثقة ، وأخشى اذا تأخر وصوله أن ينتهى الى ما أكره وقوعه .. علمت بعد خروجى من مصر بموت العاضد وانتقال الدولة الى مولاى السلطان ، وسمعت وأنا فى السجن ان بعض رجال تلك الدولة يجتمعون سرا فى الفسطاط ، يتآمرون على اخراج هذه السلطة من يده .. وقد خابروا الافرنج فى هذه الديار أن يهاجموا مصر بجند كبير يجمعونه من هنا ومن صقلية ، وان أهل مصر يكونون معهم على جندكم ..

« ويرأس أولئك المتآمرين رجل من العلويين اسمه أبوالحسن، وهو الذى أغرى الناقمين على هذه الدولة ، فوافقوه واستنجدوا بالافرنج.. وقد وافقهم الافرنج ، وأخذوا يتأهبون لهذه الحملة ، لكنهم هيأوا جماعة بصورة وفد يحمل هدية الى السلطان صلاح الدين من ملك الافرنج .. وهم فى الحقيقة يريدون الاجتماع بتلك العصابة واتمام المؤامرة . وقد وفقنى الله بواسطة صديق لى هنا أن أطلع على ذلك وأن أرسل هذه الرسالة مع حامل هـذا الكتاب ، وهو بحسب الظاهر من جملة خدم الوفد أو هو دليلهم فى الطريق ، فدفعت اليه هذا الكتاب .. فاذا وصل اليكم فادفعوا الى حامله مائة دينار واكرموه .. أما أنا فلا أزال هنا وسأبقى حتى يتاح لى الخروج للقيام بالمهمة التى وقفت حياتى للقيام بها فى

خدمة مولاى السلطان .. وأنا ظافر بها باذن الله ، فاما أن أعود اليكم فائزا منصورا أو أموت فى هذا السبيل فداء لمولاى ، لأن حياتى وحياة كل رجاله مبذولة فى خدمته .. »

وكانت سيدة الملك تسمع الكتاب ونفسها تحدثها فى أثناء ذلك أن الكتاب يتعلق بعماد الدين . فلما سمعت قوله فى الفقرة الأخيرة يذكر المهمة التى انتدب لها خفق قلبهـا ، وتبادر الى ذهنها أن يكون هذا الكتاب من عماد الدين نفسه وخصوصا لأنه يقول : انه برح مصر قبل وفاة أخيها .. فبدت البغتة فى وجهها وتسارعت دقات قلبها ، ولم تتمالك عند الفراغ من تلاوة الكتاب أن قالت : « هل يأذن السلطان أن أعرف من هو صاحب هذا الكتاب ؟ »

قال صلاح الدين : « ينبغى لنا أن نحتفظ باسمه ، لكننى نظرا لما بدا لى من غيرتك وصدق لهجتك لا أرى مانعا من ذكره ، انه شاب جمع بين المروءة والحماسة وصدق المودة .. كنا قد أنفذناه لأمر هام لايجسر عليه سواه ولا أظنك تعرفينه » ووقع نظر صلاح الدين وهو يتكلم على نظر بهاء الدين قراقوش ، فقرأ فى وجهه شيئا يستدعى التوقف عن التصريح ، لكنه لم يدرك السبب ولا استطاع التوقف بعد أن وعد بالتصريح ، ونظر الى سيدة الملك فرآها متطاولة بعنقها وعينــاها شاخصتان الى شفتيه ، تكادان تحتلبان الكلام من فمه احتلابا فقال : « ان صاحب هذه الرسالة اسمه عماد الدين »

لم يكد يلفظ باسمه حتى صاحت سيدة الملك : «عماد الدين.. آه عماد الدين .. » وأغمى عليها .. فدهش السلطان ونهض ، وأسرعت ياقوتة الى الماء ، وأخذت ترش سيدتها به وتفرك يديها ، واقترب بهاء الدين من صلاح الدين ، وقال : « كنت قد أشرت الى مولاى أن لايذكر هذا الاسم »

فقال صلاح الدين : « وما الذى يعنيها من أمره ؟ هل تعرف شيئا عن ذلك ؟ »

فقال همسا فى أذنه : « عرفت شيئا منه قبل سفره ، لكن ضياء الدين الهكارى منعنى من ابلاغه لمولاى مخافة أن يفسد سعيه يومئذ فى خطبة هذه السيدة » وضحك

فقال صلاح الدين : « وما هى علاقتها به ؟ يظهر انها تحبه ..»

فأومأ اليه أن يتبعه الى غرفة أخرى ريثما تفرغ ياقوتة من اسعاف سيدتها .. فتبعه ، فلما خلا به قص عليه ما كان من أمر عماد الدين ليلة مجيئه الى القصر فى السرداب ، وكيف وشى به أبو الحسن ، ولم يتمكنوا من القبض عليه الى آخر الحديث

فوقف صلاح الدين يفكر فيما اتفق وقوعه فى تلك الجلسة ، وقد سر لاطلاعه على ذلك السر ، لأنه يحب عماد الدين ويريد اكرام سيدة الملك .. وشكر الله لأنه لم يوفق الى خطبتها ، فقال لبهاء الدين : « لقد سرنى اطلاعى على ذلك ، فيجب علينا أن نسعى فى جمع شمل هذين المحبين .. والحمد لله أن سعى أبى

الحسن لم يكلل بالنجاح »

فقال قراقوش : « ويمكننا أن تتخذ سعينا فى مصلحتها وسيلة لتشجيعها على معاونتنا فى كشف خبايا تلك المؤامرة لأنها من أقدر النـاس على ذلك ، فاذا أخلصت الخدمة فى هـذا السبيل ساعدناها على تحقيق أمنيتها .. »

فضحك صلاح الدين وقال : « لله درك يا بهاء الدين .. انك لا تفكر فى خير لأحد ان لم يعد جانب منه عليك .. أحسنت »

قال بهاء الدين : « انما يهمنى القيام بخدمة مولاى أعزه الله »

ثم تحول صلاح الدين نحو باب القاعة وسأل عن سيدة الملك ، فقيل له انها أفاقت ، فدخل فرآها جالسة على وسادة وقد أطرقت خجلا ، وظهر التعب على محياها ، وذبلت عيناها .. فتقدم نحوها وقال : « قد علمت أمرك ، وسرّنى ما عرفت من علاقة حبينا عماد الدين بك . واعلمى انى باذل أقصى الجهد فى تقصير مدة غيابه .. ولا يكون الا ما تريدين ، وقد أوصيت صديقى بهاء الدين بأن ينظر فيما كنا فيه .. استودعك الله »

فوقفت لوداعه والخجل غالب عليها ، ولم تجب بلسانها لكن عينيها أدتا واجب الشكر .. على انها لم تستطع السكوت عما يخالج فؤادها من الخوف على عماد الدين ، فقالت وصـوتها يرتجف : « ولكنه فى أعماق السجن يامولاى »

قال صلاح الدين : « انه سيأتى باذن الله ، واذا ظل فى السجن

فاننا نفتح بيت المقدس لنخرجه منه ، وان فى فتحه تعزيزا لدولة الاسلام .. لا تخافى » وابتسم ومشى مشية الأسد ، وهى تشيعه ببصرها وتزداد اعجابا بعلو همته وكبر نفسه ، ورأت أن انتقال السيادة اليه وذهاب دولة أخيها كان أمرا طبيعيا لابد من وقوعه لما كانت تعلمه من ضعف نفوس رجال أخيها ، وفساد آرائهم وتنازعهم على التافه من الأمور ، شأن الدولة فى أواخر عهدها

وبعد خروج صـلاح الدين تقدم بهاء الدين اليهـا فقال : « سأعود اليك بعد قليل ريثما ترتاحين ، كونى مطمئنة » وضحك

— ٤٥ —

جوهر

ولم يبق هناك الا سيدة الملك وياقوتة . فقالت ياقوتة ووجهها مشرق : « الحمد لله قد صدق ظنى ، ونلت ما كنت أريده »

فتنهدت سيدة الملك وقالت : « ما الذى نلناه وقد تبين لى من نص ذلك الكتاب ان عماد الدين فى أعماق السجن عند الافرنج ، وانه مصمم على أداء مهمة يظهر انها فى غاية الخطر ، وانه اذا لم يفز بها ظل هناك أو .. » وغصت بريقها

فقالت ياقوتة : « ألا يكفى يامولاتى اننا علمنا بوجوده حيا ؟ وان صلاح الدين عون لك فى الوصول اليه ؟ وسيقتص من ذلك

الخائن ؟ هيا بنا الى الطعام وتوكلى على الله »

فنهضت وقد سرى عنها ، وتناولت طعامها .. وكان حديثهما فى أثناء ذلك عن المؤامرة وأبى الحسن . وبعد الطعام أتى قراقوش — وهو يدخل المكان بلا استئذان — وقال : « ياسيدة الملك أهنئك برضى السلطان صلاح الدين فانه أوصانى بك خيرا .. انما ينبغى لنا أن نكتشف مكان تلك المؤامرة ، فهل تعرفين عنه شيئا ؟ »

فأطرقت تفكر ثم قالت : « انّى لى ذلك ، وأنا لا أعرف شارعا من شوارع هذا البلد لأنى قضيت عمرى محبوسة فى القصور »

فتصدت ياقوتة للكلام وقالت : « ان كشف هذا المخبأ علىّ »

فقال قراقوش : « أين هو ؟ »

قالت ياقوتة : « لا أعلم .. ولكننى أرجو أن أعرف خبره .. ألا تعرف الغلام جوهر ؟ »

قال قراقوش : « أعرفه .. ألم يكن من غلمان القصر ؟ »

قالت ياقوتة : « نعم .. وهو جاسوس ذلك الخائن ، كان يحمل اليه أخبارنا ويطلعه على أسرارنا »

قال قراقوش : « وما الفائدة من معرفته اذا كان هذا شأنه وهو خائن لنا ؟ »

قالت ياقوتة : « ان الخائن لايثبت فى الأمانة لأحد .. كان فى

الأمس أمينا لأبى الحسن ضدنا ، وهو الآن سيكون أمينا لنا عليه .. »

قال قراقوش : « أين هو ؟ »

قالت ياقوتة : « هو فى هـذا القصر ، وقـد أخبرنى بعض الغلمان انه غاضب على أبى الحسن لأنه أساء معاملته ، ولم يبق له فيه وطر بعد خروج مولاتى من ذلك القصر ودخولها فى رعاية مولانا السلطان .. فنفر منه وجاء يتزلف الينا .. هل أستقدمه اليك الآن ؟ »

قال قراقوش : « افعلى .. »

فأمرت أحد الغلمان أن يستقدمه ، وعادت .. فرأت سيدتها قد أبرقت عيناها من السرور وقالت لها : « بورك فيك يا ياقوتة .. انك ساحرة »

قالت ياقوتة : « لابد أن يعود كيد الخائن فى نحره » ثم جاء جوهر وعيناه ترقصان فى وجهـه من الاضطراب .. وكذلك بصر المنافق لايستقر فى مكانه ..

فنظر اليه قراقوش نظر المتفرس وقال له : « ياجوهر بلغنا ان أبا الحسن قد خدعك حينا حتى أخرجك عن طاعة مولاتنا .. لكن سرّنى انك رجعت الى الصواب ، وعلمت انك لا تنال خيرا الا بصدق الخدمة فى مصلحة مولاتنا سيدة الملك ومولانا السلطان»

فأكب جوهر على يد بهاء الدين يقبّلهـا ويتظـاهر بالنـدم

والاخلاص وقال : « يعلم الله انى كنت مخدوعا ، فان ذلك الرجل خدعنى وأوهمنى انه يد الامام المرحوم ، يفعل ما يشاء .. ثم علمت انه يريد به شرا ، وأنا قد ربيت فى خدمة مولاى .. فلا يليق بى أن أغدر به . فلما تحققت من سوء قصد أبى الحسن تركته لأنى أكره الخيانة ، ولا سيما بمن أحسن الىَّ وأنا صنيعته وعبده »

فقال قراقوش وهو يظهر انه صدقه : « بارك الله فيك .. واعلم انى حسن الظن بك وسأزيد فى عطائك ، ولا أسألك عما مضى . وانما أطلب اليك أمرا واحدا هو هين عليك ، وفيه انتقام لك من ذلك الخائن .. هل تطيعنى ؟ »

فلم يصدق جوهر انه نال هذه الرعاية بعد جناياته الماضية فقال : « انى رهين الاشارة ياسيدى »

قال قراقوش : « أطلب منك أن تخبرنى عن المكان الذى يجتمع فيه أبو الحسن وأقرانه ، هل تعرف أين هو ؟ »

قال جوهر : « ذلك هين ياسيدى .. نعم أعرفه وأعرف الذين يجتمعون معه قبَّحهم الله .. كنت عازما على أن أطلعكم على ذلك قبل أن تسألونى عنه ، فانه واجب علىَّ .. وكان يمنعنى الخجل من خطئى الماضى »

فربت له ظهره وضحك وقال : « عافاك الله .. هل المكان بعيد من هنا ؟ »

قال جوهر : « هو فى الفسطاط ياسيدى .. »

قال قراقوش : « الآن تحققت من صدقك لأنى كنت أعلم انه هناك .. فأنا واضع ثقتى فيك من هذه الساعة ، وأنت تعلم ان ثقتى هى ثقة مولانا السلطان ، ولا يخفى عليك ما يستفيده صاحب هذه الثقة .. أصلح ما أفسدته ياجوهر ، وقد أوصتنى مولاتنا سيدة الملك خيرا بك ، وأخبرتنى كم كنت مخلصا فى خدمتها من قبل ، ولكن ذلك الخائن أغراك على هذه الخيانة .. مضى ما مضى ، تعال معى » قال ذلك وتحوّل وتبعه جوهر ، وقد بادر الى الذهاب قبل أن يحدث ما يغيّر عزم ذلك الغلام المتقلب . وصمم أن لايفارقه قبل الوصول الى ما يهدف اليه

على انه تذكر أمرا أحب أن يقوله لسيدة الملك قبل الذهاب فرجع اليها وقال : « ينبغى لك ياسيدتى أن تعتمدى علىّ فى كل ما يخطر لك .. ولا بد انك تذكرين اطلاعى على مجىء عماد الدين الى قصرك ، وأحمد الله على انه نجا سالما »

فاغتنمت فرصة تقربه اليها وتلطفه فى طمأنتها ، وقالت : « أما وأنت تشعر بشعورى ، وقد رأيت السلطان راضيا عنى ، فاننى أرغب اليك أن تزيدنى بيانا عن حال عماد الدين »

قال قراقوش : « لا أعرف عن حاله الآن سوى ما فى كتابه الذى تلوته عليك الساعة .. »

قالت سيدة الملك : « اعنى هل عليه خطر هناك ؟ ومتى تظنه يعود ؟ »

قال قراقوش : « لا أعلم متى يعود .. أما الخطر فلا أخشاه عليه ليقيني بشجاعته وتعقله ، ولا بد من التوكل على الله..كونى مطمئنة على كل حال » قال ذلك ومشى

فهرع جوهر فى أثره وقد سرّه ما يؤمله من الفوز بالمكافأة ـ لايهمه ما يترتب على عمله من قتل النفوس وخراب البيوت ـ فان أمثال هذا الخائن ينقصهم الشعور الحى الذى يسمونه الضمير . فهم ينظرون الى الأعمـــال من حيث ما يعود عليهم من النفع ولا يشعرون بغير ذلك .. والدنيا عندهم لها وجهان : وجه منفعتهم ، وهو ما ينبغى بقاؤه ، وأما الوجه الآخر فهو كالعدم فى نظرهم ؛ فلا يبالون أن يمحى من الوجود أو يساق أصحابه الى المجازر . وقد يسرهم ما يرونه فى الآخرين من الأذى وان لم ينالوا هم منه خيرا لأنفسهم .. فكيف اذا كان لهم منه نفع ؟ !.. نعوذ بالله من هؤلاء .. لكنهم بعون الله قليلون ، ولو كانوا كثيرين لخربت الدنيا من عهد بعيد

– ٤٦ –

الفسطاط

مشى قراقوش وجوهر فى خدمته ، وكان جوهر مملوكا حبشيا وفيه ذكاء ، لكنه لم يكن له ضمير كما علمت ، فالتفت قراقوش اليه فى أثناء الطريق وقال : « ياجوهر .. ما العمل الآن ؟ »

قال جوهر : « الأمر لمولاى »

قال قراقوش : « أنا معتمد عليك فى الوصــول الى الهدف أريد أن أشهد اجتماع القوم وأسمع حديثهم .. هل يتيسر ذلك الليلة ؟ »

قال جوهر : « نعم ياسيدى .. نذهب بعد الغروب اذا شئت »

قال قراقوش : « الى أين ؟ »

قال جوهر : « الى الفسطاط لأن القوم يجتمعون فى بيت هناك أعرفه ، ولا يمكن أن يهتدى اليه سواى .. فى دار خربة لايبلغها انسان الا من أزقة ضيقة مظلمة .. ولا بد من التنكر »

قال قراقوش : « وماذا ترى أن نفعل ؟ »

قال جوهر : « أرى أن يتنكر مولاى الأستاذ بملابس طبيب نصرانى ، وأنا أكون فى خدمته أحمل له جراب العقاقير وأقود بغلته »

قال قراقوش : « هذا هين »

ووصلا بعد قليل الى منزل قراقوش ، فدخلا .. فأمر قراقوش أن لايدخل البيت أحد من الناس ولو كان السلطان صلاح الدين نفسه . وأمر جوهر أن يعد ما يلزم للتنكر ، وسأله عن مكان الاجتماع وموقعه من الفسطاط .. فقال : « بالقرب من جامع عمرو » وعيّن المكان .. فتركه يهيىء ما يلزم ، وأخذ فى اعداد فرقة من الجند تسبقه لتنتظر فى خان قرب ذلك المكان .. ودبّر الوسيلة للاحاطة بالمنزل عند أول اشارة

أعد كل شيء قبل الغروب ، ولم تغب الشمس حتى كان قراقوش قد تزيا بزى أطباء النصارى ، بالزنار على وسطه والعمامة على رأسه ، وأعدت له البغلة .. ومشى جوهر فى ركابه ، ولم يكن يشك من يراهما فى أنهما الطبيب وغلامه

برحا القاهرة عند الغروب وقطعا المسافة بينها وبين الفسطاط بسرعة .. ثم أطل قراقوش على الفسطاط من مرتفع فرأى آثار الحريق لا تزال ظاهرة فيها ، وقد خربت أكثر أبنيتها بأمر شاور منذ بضع سنين (سنة ٥٦٤ هـ) اذ خاف شاور الوزير من وصول الصليبيين اليها واستيلائهم عليها ، فأمر أهلها بالخروج منها الى القاهرة .. وألقى النار فيها وأمر بنهبها ، فانتقلوا ونهبت المدينة وافتقر أهلها وذهبت أموالهم . وظل الحريق مشتعلا ٥٤ يوما [١] فاختلطت الأزقة حتى اشتبهت على المارة . ولولا جوهر ومعرفته

(١) تاريخ مصر الحديث — الجزء الاول

الشوارع جيـدا لاستحال على قراقوش الوصـول الى المكان المطلوب . ولكن ذلك الحبشي كان يقود البغلة ويتخطى الخرائب كأنه يسير في داره .. ودليله الظاهر مئذنة جامع عمرو ، فانها كانت بارزة في الفسطاط دون سواها

لم يتجاوزا جامع عمرو حتى خيم الظلام ، وأظلمت الدنيـا ، وقـلّ الناس في الشوارع ، والمتأمل في الفسطاط يجد فرقا كبيرا بينها وبين القاهرة ، فان هذه أكثر عمارة وجمالا وأكبر مساحة وأعظم آثارا .. سكن الأمراء فيها لأنها خاصة برجال الدولة ، أما الفسطاط فانها مقرالباعة والصناع ، ويكثرفيها السوقة والملاحون لقربها من النيل ، وقد زادها ذلك الحريق حقارة

وكان قراقوش حين توسط المدينة ، ورأى نفسه منفردا هناك مع جوهر خطر له أن ذلك الحبشي ربما ينوى الغدر به ، وهو خائن لايركن اليه ، فالتفت نحوه وقال : « أين نحن ياجوهر؟.. يظهر اننا قد بعدنا عن المكان الذي ذكرته وتجاوزنا جامع عمرو..»

قال جوهر : « ثق يامولاي انني ذاهب بك الى المكان المطلوب وقد تجاوزناه الآن حقيقة كما قلت ، ولكنني أريد أن تشرف عليه من منزل آخر ، بابه في شارع آخر .. ألا تريد أن ترى القوم مجتمعين وتسمع ما يدور بينهم ؟ »

قال قراقوش : « بلى .. لكن تمهل قليلا » قال ذلك وتفرس فيما يجاوره ، فعلم انه على مقربة من الخان الذي أوصى الجند

أن ينتظروا فيه فقال : « أخبرنى ياجوهر أين هو البيت الذى يجتمعون فيه ؟ دلنى عليه بأصبعك من هنا »

فأشار بأصبعه قائلا : « ألا ترى هـذا النور المعلق على تلك السارية ؟ »

قال قراقوش : « رأيته »

قال جوهر : « ترى وراءه بيتـا خربا ، انهم يجتمعون فى داخله »

فتحـوّل قراقوش ببغلته الى الخان ، فلقيه قائد الفرقة بالباب ، فأوصاه أن يفرق جنده حول ذلك البيت من كل ناحيـة بحيث لا يشعر به أحد ، ولا يظهر أحد من رجاله فى الطريق ، وقال : « اذا رأيتم مصباحا يتحرك فوق أحد هذه الأسطح حركة رحوية فاهجموا على هذا البيت من كل ناحية ، واقبضوا على من فيه » وعاد فأدار شكيمة بغلتـه وجوهر يقودها حتى دخـل الزقاق المطلوب ووصل الى باب دقه ، وقراقوش لايزال على البغلة ففتحت خوخته وأطل رأس رجل شيخ قد تدلى سالفاه على خديه وقال : « من الطارق ؟ »

فتقدم جوهر وقال : « الطبيب سمعان .. افتح .. »

قال الشيخ :« وماذا يريد الطبيب منا ؟ ليس عندنا أحـد مريض »

قال جوهر : « لم يأت للتطبيب ، لكنه يريد المبيت هنا ، وهو

من أهل القاهرة وقد جاء للسفر فى النيل ، فوجد أن السفينة التى يريد السفرعليها قد أقلعت ، فأراد المبيت فى القسطاط الىالصباح حتى يبكر الى الشاطىء ويركب سواها .. افتح ياعماه .. »

قال الشيخ : « لماذا لم يذهب الى الخان ؟.. انه قريب من هذا المكان »

قال جوهر : « لايريد المبيت فى الخان وهو لم يتعود ذلك ، وأنا أتيت به الى هنا خدمة لك . وهمس فى أذنه قائلا : يظهر انك لم تعرفنى يا معلم حاييم ؟ »

فتفرس فيه الشيخ وقال : « عرفتك ياجوهر ، العفو انى لم أعرفك من قبل »

قال جوهر : « لابأس .. وأنا جئت بهذا الطبيب ليبيت هنا وهو كريم الخلق ، كثير المال ، لايبالى كم تأخذون منه .. والأحسن أن تخلى له البيت برمته ، واطلبوا عن كل حجرة منه دينارا ، واذا قال لكم انه يحتاج الى حجرة واحدة فقط قل له انك لاترضى الا بتأجير البيت برمته .. »

ففرح حاييم بهذا الرأى ، ولم يكن فى بيته كله ما يساوى الا دينارين من الأثاث . فلما قال له جوهر ذلك رفع صوته وقال : « لا نستطيع أن ندخل رجلا غريبا يبيت معنا ، فاذا شاء الطبيب أن نؤجره البيت من بابه فعلنا »

فقال جوهر : « كم أجرته ؟ »

قال الشيخ : « هو خمسة غرف .. وأجرته خمسة دنانير »
فتظاهر جوهر بأنه يخادع قراقوش بالمساومة وقال : « ان خمسة دنانير كثيرة يامعلم حايم .. ألا يكفى أربعة ؟ » وضغط على اصبعه أن لايقبل

فأجاب : « كلا .. اذا لم يعجبكم فهذا هو الخان قريب من هنا »

فأظهر انه رضى وقال : « لابأس .. حسن .. ان مولانا الطبيب كريم وأتتم أين تنامون ؟ »

قال الشيخ : « ليس عندى الا زوجتى العجوز فنبيت عند صهرنا وهو قريب من هنا »

فتحوّل جوهر الى قراقوش ، تسلم منه الدنانير ودفعها الى الشيخ ، وهو يقول له همسا : « هذه هى الدنانير ، لكن ينبغى أن تختصنى منها بدينار ، تدفعه الىّ غدا صباحا ، فهمت ؟ »

قال الشيخ : « حسنا » وهو ينوى أن لايدفع اليه شيئا ، بل عزم أن يتحل حجة فى الصباح يقبض بها دينارا سادسا ، فيدعى انهم أضاعوا شيئا من الأثاث أو نحو ذلك

ثم تحوّل الشيخ الى الداخل ، وعاد بعد قليل والمصباح بيده ومعه امرأته وهى تقول : « يظهر ان هذا الضيف عزيز عليك حتى أخرجتنى من البيت لأجله »

فقال الشيخ : « كيف لا ؟ » وأشار الى بهاء الدين أن يتفضل

فتحوّل بهاء الدين عن بغلته ، فأدخلها جوهر تحت قنطرة بجوار المنزل ، شدها الى حلقة دقت هناك لمثل هذه الغاية .. ودخل ، ودفع حاييم المصباح الى جوهر وانصرف وهو يوصيه بالبيت خيرا ..

– ٤٧ –

اجتماع خاص

ولما دخل قراقوش البيت لم يبال بما يتصاعد من دهاليزه من الروائح الكريهة .. وأغلقا الباب وأوصداه ، ومشى جوهر بالمصباح بين يدى قراقوش ، وهما يسترقان الخطى لئلا يسمع لهما صوت . ولم يمشيا طويلا ، حتى سمعا ضوضاء .. فقال جوهر : « نحن بجانب مجلس القوم ليس بيننا وبينهم الا الحائط .. اصبر قليلا »

وكان قراقوش منذ خروجه من منزله يتحفز للدفاع عن نفسه ، ويده على خنجره ليغمده فى صدر جوهر اذا آنس منه خيانة . فلم يلاحظ منه شيئا ، فلما استمهله وقف وهو يحدق فيه فاذا هو يشير اليه بأن يصعد على سلم ضيق يؤدى الى سقفية فى أعلى الغرفة . فصعد معه ومن هذه السقفية انتقلا الى السطح من باب ضيق كالمنور . ورأيا السماء فوق رأسيهما ، ونظر بهاء الدين الى

ما يحيط بهما فاذا هما والسطوح حولهما . فقال جوهر بصوت ضعيف : « لنترك المصباح على السقفية ونمشى فى الظلام لئلا يفتضح أمرنا »

فأطاعه ومشى والضوضاء تزداد وضوحا حتى انتهى به الى حائط فقال : « هذا حائط آخر من حيطان قاعة الاجتماع »

فرأى بهاء الدين فى أعلى الحائط كوة قد انبثق النور منها ، فتقدم نحوها فسبقه جوهر وقال : « أنظر هنا »

فنظر فرأى قاعة غاصة بالناس قعودا على وسائد مصفوفة حول الغرفة فوق بساط . وقد علت الضوضاء ووقف بالباب رجل أسنده بظهره كأنه يمنع من شاء الدخول ، فهمس جوهر فى أذن بهاء الدين قائلا : « هل ترى جيدا ؟ »

قال قراقوش : « نعم .. لكننى لم أعرف أحدا منهم غير أبى الحسن .. من هذا الجالس الى جانبه ؟ »

قال جوهر : « ان الذى تراه الى يمينه هو عمارة بن أبى الحسن الشاعر اليمنى ، والى يساره القاضى العويرس ، وبعده داعى الدعاة ، والى الجانب الآخر عبد الصمد الكاتب وغيره .. وكلهم من الشيعة كما تعلم .. أنظر فى وسط الغرفة .. ماذا ترى ؟ »

قال قراقوش : « أرى سيفا ومصحفا أظنهم يحلفون عليهما »

قال جوهر : « نعم »

وأخذ قراقوش يتفرس فى الحاضرين ليعرفهم عند الحاجة . واذا هو بأبى الحسن قد أشار بيده يطلب الاصغاء فأنصتوا فقال : « أبشركم أيها الأمراء ان أعمالنا تكللت بالنجاح ، وجاء وفد الافرنج فى هذا الصباح يحمل الهدايا الى ذلك الكردى .. وقد فرح بالهدية وفاته ما وراءها .. وجاءتنا رسائل أصحابنا فى ساحل الشام ، انهم على أهبة الرحيل عند أول اشارة ، فأبشروا بنيل المراد .. »

فتصدى عمارة اليمنى ، وهو شاعر مشهور ، ووجه نظره الى القاضى العويرس وداعى الدعاة ، وهما من أصحاب المناصب الرفيعة فى الدولة وقال : « ان مولانا الشريف أبا الحسن أهل لما بايعناه عليه من الخلافة لنسبه الشريف ، ولأن مولانا الامام المرحوم قد أوصى له بولاية العهد كما سمعتم ذلك من الجليس الشريف قبل الآن . فيجب أن نخلص له الطاعة لنعيد هذه الدولة الى سابق مجدها ، وكانت قد فسدت بمن تدخل فى أمورها من الأعاجم بسوء رأى المحيطين بالخليفة السابق ، وهم الذين أشاروا عليه بالاستنجاد بنور الدين صاحب الشام .. فكان ذلك سببا فى أن صار الأمر الى يوسف هذا « صلاح الدين » ولكننا متى تم لنا ما دبرناه ، وقبضنا على زمام الأمور صرنا نتجنب هذا الخطأ فى المستقبل . ولا نولى المناصب الا الذين نثق فى اخلاصهم وتفانيهم فى الدعوة العلوية من العرب .. اننا عرب ، والقرآن

عربى.. فلا ينبغى أن نشرك فى أمرنا غيرالعرب ، كما فعلغيرنا..»

فقال عبد الصمد الكاتب : « بارك الله فيك يا أخا اليمن «عمارة» قد مضى زمن الضعف والحمد لله .. ان خليفتنا هـذا» وأشار الى أبى الحسن » جمع بين الحزم والدهاء ، ووزيرنا هذا « وأشار الى العويرس » لا مثيل له فى اصالة الرأى .. و..»

فقطع كلامه رجل كان جالسا منذ ساعة لايتكلم ، كأنه يفكر فى أمر هام لايلتفت الى ما يدور بينهم ، فلما سمع كلام عبد الصمد بشأن الوزارة رفع رأسه وقال : « ان الوزارة لم يتم الاتفاق عليها بعد .. وأنا مع احترامى للقاضى الأجل ، لا أرى له حقا فى الوزارة وانما هى لسلالة الوزراء آل رزيك ، فانهم تولوها فى عهد الأئمة السالفين ، ولهم عليها فضل فلا يليق نقلها الى سواهم»

فتصدى رجل آخر كان قد نهض فى تلك الأثناء وأخذ يهمس فى أذن أبى الحسن ، وأبو الحسن يهز رأسه له هـزة الرضا والاستحسان .. تصدى هذا وقطع كلام الرجل قائلا : « مهلا لا تتنازعوا على منصب هو حق لنا وكان فى قبضتنا بالأمس »

فضحك صاحب وزارة بنى رزيك وقال : « تريد أن ترجع الوزارة لبنى شاور ؟ ألم تكن هذه المصائب كلها من وزارته ، ألم يكن هو الذى أحرق هـذه المدينة الزاهرة بسوء تدبيره ؟ ان الوزارة لا تكون لغير آل رزيك .. ونحن أصحابها الأولون .. »

فتكلم أبو الحسن وهو يبش ويتلطف وقال : « خففوا من

غضبكم وارجعوا الى صوابكم .. لسنا الآن فى معرض التنازع على المناصب ، انما نحن فى الاتحاد على اخراج هذا العدو من بلادنا ، ومتى أخرجناه نعمل ما يتفق عليه الرأى .. »

فقال صاحب وزارة آل رزيك : « طبعا ان أبا الحسن لايهمه البحث فى المناصب الآن لأنه ضمن لنفسه الخلافة بسبب نسبه فى العبيديين .. ولم ينازعه أحد فى صحة نسبه لأن الجليس الشريف شهد بصحته بناء على ما سمعه من الامام المرحوم .. » وضحك ضحكة استخفاف

– ٤٨ –

الهجوم

وكان قراقوش مصغيا لما دار وقد شاهد كل حركة ، وجوهر واقف بين يديه يتطاول ليرى ما يراه ، فاكتفى قراقوش بما سمعه وشاهده ، والتفت الى جوهر وقال بالاشارة : « أين المصباح ؟ ائتى به »

فنزل الى السقيفة وأتى بالمصباح ، فتناوله قراقوش وصعد الى مرتفع وأداره بيده بحركة رحوية كما اتفق مع تلك الفرقة .. ثم نزل وأخفى المصباح ، وعاد الى الكوة والناس يتحاجون ويتناقشون . واذا بالضوضاء قد تعاظمت ، ولم تمض دقائق قليلة

حتى صار رجال قراقوش داخل القاعة ، وأخذوا فى القبض على من فيها . وليس فيهم من يستطيع دفاعا لأنهم لم يكونوا قد أعدوا من وسائل الدفاع غير ألسنتهم وأصواتهم

ووجه قراقوش التفاته خصوصا الى أبى الحسن ، فلم يجده بين المقبوض عليهم فظنهم أخرجوه الى خارج القاعة . ولما أيقن بفوز رجاله بالقبض على المتآمرين ، أشار الى جوهر بالنزول للرجوع الى القاهرة . فنزل بين يديه بالمصباح وقراقوش يتبعه ، ولم تطأ رجله السقيفة حتى سمع وقع أقدام مسرعة فى أرض البيت تحت السقيفة ، فأجفل .. فتفرس قراقوش على النور الضعيف فرأى شبحا بالعمامة والجبة لم يعرفه ، فقال له جوهر همسا : «هذا أبو الحسن هلم اليه» فبادر الى اطفاء المصباح حتى لايعرف مكانه وأسرع فى النزول ليقبض على أبى الحسن ، وهو يحسب أنه دخل هذا المنزل بتواطؤ سابق مع صاحبه لمثل هذه الساعة على أن يبيت ليلته ثم يفرّ فى الصباح

نزلا الى أرض البيت وجوهر يقود قراقوش ، لأنه يعرف مداخل المكان ، وأصاخا فلم يسمعا خطوا ولا صوتا كأن ذلك الشبح كان ظلا وزال ، فأراد قراقوش أن ينير المصباح ليرى المكان فى النور ، فأشار الى جوهر أن يفعل واستل خنجره وتهيأ للهجوم على من يظهر أمامه . ولم يكد جوهر يبدأ بالاشعال حتى سمعا صرير باب الدار ، فركضا اليه فوجدا الباب مفتوحا وليس هناك

أحد ، فأضاءا المصباح وأخذا فى البحث عن أبى الحسن فى كل مكان فلم يجداه ، فتأكدا انه نجا ، فقال قراقوش : « هل انت متأكد ياجوهر انه أبو الحسن ؟ »

قال جوهر : « يغلب على ظنى ياسيدى انه هو ومع ذلك قد يكون سواه .. هلم بنا للبحث عنه فى الأماكن المجاورة فاذا لم نجده ، فلعله فى جملة المقبوض عليهم والا فانه قد نجا قبَّحه الله»

فخرجا .. وركب قراقوش بغلته ، وأخذ فى البحث عنه فى تلك الدار ، وما يجاورها فلم يقفا له على أثر ، فذهبا الى القـاهرة وبهاء الدين يخشى أن يكون أبو الحسن قد نجا ، وكان خوفه فى محله ..

أما سائر المقبوض عليهم من المتآمرين فحكم عليهم بالصلب ، وفى مقدمتهم عمارة اليمنى المتقدم ذكره ، فصلبوه فى ٢ رمضان سـنة ٥٦٩ هـ (١) وارتاح بال صـلاح الدين من هؤلاء ، لكنه ظل يفكر فى أبى الحسن سبب تلك الدسائس

أما سيدة الملك فأصبحت فى ثانى يوم القبض على المتآمرين ، وكلفت ياقوتة بالبحث عما تم .. فلما أنبـأوها بالقبض عليهم ، فرحت لكن ساءها فرار أبى الحسن وهو مصدر متاعبها .. وتعلم انه لايبالى ماذا يفعل فى سبيل غرضه .. لايرعى ذمة ولا يتجنب

(١) ابن الاثير ١٧٩ — الجزء الحادى عشر

حراما ، فنظرت الى ياقوتة قائلة : « ان صلاح الدين قد فاز بما يريد .. »

فقالت ياقوتة : « ان نجاة ذلك الخائن كدرتنى كثيرا ، ولكن ما العمل ؟.. لابد من أن يرجع كيده فى نحره .. لأن الله غريمه . ولم يعد يهمنا أمره ونحن فى رعاية صلاح الدين .. والآن جئتك بشىء يعزيك فى هذه المصيبة »

فبغتت سيدة الملك ، وقد أصبحت تبغت لكل جديد تتوقعه لفرط قلقها على عماد الدين فقالت : « ما وراءك ؟ »

فضحكت وقالت : « انى عاتبة عليك بالنيابة عن عماد الدين.. كيف تعلمين بمجىء رسول من عنده رآه قبـل سفره وخاطبه ، وعلمنا من كتابه انه سجين ولا تسـألين عن ذلك الرسول حتى تستزيديه ايضاحا أو تحمليه رسالة ؟ »

فتنهدت سيدة الملك وقالت : « آه يا ياقوتة قد أقلقتك بكثرة الأسئلة .. هل تتوهمين انى غفلت عن هذه الفكرة ؟.. ان رسول عماد الدين يؤنسنى اذا رأيته .. وكنت عازمة على استدعائه فأين هو ؟.. »

قالت ياقوتة : « أخبرنى بهاء الدين الآن ان ذلك الرسـول يطلب أن يراك ، وان عماد الدين كلفه بذلك .. »

فتوردت وجنتـاها ، وقد أخـذها الفرح .. ولم تتمالك أن صاحت : « عماد الدين كلفه أن يرانى .. الحمد لله انه يفكر فىَّ..

هو اذن يحبنى .. » ثم تراجعت وقد ندمت على تلك اللهفة وخجلت ، وأدارت وجهها الى جدار عليه ستارة موشاة بالألوان الجميلة تشاغلت بالنظر اليها

فقالت ياقوتة بصوت ضعيف : « يالله من الحب .. كيف يجعل سيدة الملك سلالة الخلفاء ابنة السلاطين يستخفها الفرح اذا سأل عنها شاب من .. »

فقطعت سيدة الملك كلامها قائلة : « لا تقولى شيئا عن عماد الدين انه عندى فوق الخلفاء والسلاطين .. صدقت ان الحب .. آه .. صرت أذكر الحب بين يديك بلا حياء .. ان الحب يفعل كثيرا .. والآن أين ذلك الرسول ؟.. دعيه يدخل .. »

- ٤٩ -

رسول الحبيب

فخرجت ياقوتة وعادت بعد قليل ، ومعها شاب فى زى أهل بيت المقدس الذى يلبسونه فى الأسفار .. حول رأسه الكوفية كالخمار وقد تسربل بالسراويل القصيرة ، وحول خصره منطقة عريضة من الجلد غرس فى مقدمها خنجرا صغيرا ، ولفّ حول ساقيه لفافة من النسيج تسهّل عليه المشى السريع

فلما دخل وقف متهيبا متأدبا ، فأرسلت سيدة الملك خمارها

ورحبت به قائلة : « ما اسمك يا غلام ؟ »

قال الغلام : « اسمى جرجس »

قالت سيدة الملك : « انت مسيحى اذن ؟ »

قال الغلام : « نعم ياسيدتى »

قالت سيدة الملك : « من أين أنت آت ؟ »

قال الغلام : « جئت من بيت المقدس برسالة الى السلطان صلاح الدين ، وقد سلمتها له بالأمس .. ولكن صاحب تلك الرسالة أسَرَّ الىَّ أمرا خاصا يتعلق بسيدة الملك »

قالت سيدة الملك : « وما هو ذلك الأمر ؟.. أنت بين يدى سيدة الملك الآن »

فأطرق احتراما وقال : « أيكما هى ؟ »

فتقدمت ياقوتة وقالت وهى تشير الى سيدتها : « هذه مولاتنا سيدة الملك .. قل ما عندك ، وأرجو أن تكون صادقا فيما تقول »

قال الغلام : « وما الذى يحملنى على الوقوف بين يديها ان لم أكن صادقا فى مهمتى ، وخصوصا ان الأمر الذى جئت به سر لم يطلع عليه أحد سواى . ولولا ذلك لم أكن لأستطلع الغيب وأتصدى له »

قالت ياقوتة : « صدقت ياشاب ، بارك الله فيك .. » ورأت أن تتولى هى السؤال عن عماد الدين فقالت : « كيف فارقت عماد الدين ؟ »

قال الشاب : « لم يبق اسمه عماد الدين ياسيدتى بل هو يسمى الآن عبد الجبار »

قالت ياقوتة : « ونعم الاسم .. كيف عرفته ؟.. من أسرّ اليك بهذه المهمة ؟ »

قال الشاب : « عرفته فى أحرج المواقف ، وما لبثت أن تعرفته حتى تعشقت أخلاقه وصرت أفديه بروحى .. انه شاب نادر المثال فى المروءة والحمية »

ولما سمعت سيدة الملك اطراءه أشرق وجهها ، وخفق قلبها وتطاولت لتسمع بقية الحديث . أما ياقوتة فأجابته وهى تظهر السذاجة قائلة : « أمر غريب يظهر أنك عاشق له .. قل كيف وقع ذلك .. وما هى المهمة التى جئت بها ؟ »

فقال الشاب : « كان عماد الدين مارا ببيت المقدس فى طريقه الى نواحى حلب فى أمر لا أعلمه ، فقبض عليه الافرنج خداعا وسجنوه .. وكنت أنا مسجونا مثله ، فتعارفنا فى السجن فرأيت فيه أخلاق الملوك ، وتجاذبت قلوبنا فأحببته .. وأخلص لى وتكاشفنا فى أمور كثيرة ، فلم يذكر لى شيئا يتعلق بسيدة الملك ، ثم أتيح لى الخروج من السجن .. وتقربت من صاحب بيت المقدس الافرنجى ، وأصبح همى انقاذ صديقى من السجن ، فلم يسعدنى الحظ بعد . لكننى كنت أتردد عليه دائما وأتفقده بما يخفف عنه . وسمعنا فى أثناء ذلك بما حدث هنا من موت

الامام ــ رحمه الله ــ وتغيير الأحوال وانزال أهل الخليفة فى هذا القصر بالاكرام ، وكنت أقص عليه كل ما أعلمه ، وفى جملة ذلك المؤامرة التى تعلمينها وقد بعثنى صاحب بيت المقدس دليلا للوفد الذى جاء لتقديم الهدايا ، وجئت لوداع صديقى فكلفنى بايصال كتاب الى السلطان صلاح الدين . ثم أسرّ الىّ أن أبحث عن سيدة الملك وأطمئنه عن حالها .. وها أنا بين يديها »

فقالت ياقوتة : « وما الذى أطلعك عليه من علاقته بها ؟ »

قال الشاب : « لم يذكر لى تفصيلا كثيرا لأن الوقت لم يكن يأذن بالتطويل .. ولكننى فهمت من الحديث انه يجل سيدة الملك كثيرا . وقد خطر له انكم قد تنكرون ذلك ولا تصدقون قولى ، فدفع الىّ هذه الجوهرة للتدليل على صحة ما أقول » ومد يده الى جيب فى منطقته ، وأخرج جوهرة دفعها الى ياقوتة ، فتفرست فيها واقتربت من سيدة الملك ، فحالما رأتها قالت همسا : « هذه احدى جواهر العقد الذى أعطيناه اياه تلك الليلة » ، وتأكدت من ثقة عماد الدين به .. والتفتت الى الشاب وقالت : « صدقت.. قد تأكدنا الآن انك رسول منه .. كيف هو ؟ ومتى يخرج من السجن ؟ واذا خرج ألا يأتى الى هنا ؟ »

قال الشاب : « سيخرج قريبا ان شاء الله .. وهو بخير ، واذا خرج لا أظنه يأتى توا الى هنا بل عليه مهمة لا أعرفها . وقد كلفنى أن أقول لك انه سيعود الى هنا متى فرغ منها »

فانقبضت نفسها وأطرقت ، ثم رفعت بصرها اليه وقالت : « اذن هو بخير وهذا يكفى .. واذا دفعنا اليك أمانة هل توصلها اليه ؟ »

فوضع يده على رأسه وقال : « كيف لا ياسيدتى ؟.. انى أتمنى خدمة أؤديها له .. »

فأشارت الى ياقوتة فدنت منها ، فأمرتها أن تخرج بعض الجواهر تبعث بها اليه ، وأن تكتب اليه كتابا تؤكد له فيه بقاءها على حبه وانها تتوقع رجوعه بفارغ الصبر

ففعلت ووضعت الجواهر والكتاب فى كيس خاطته ، ودفعته الى الرسول ، ودفعت اليه صرة فيها خمسون دينارا وقالت : « هذه أجر الطريق » فأخذها وشكر وانصرف .. وظلت سيدة الملك برهة بعد ذهابه وهى تخاطب ياقوتة بشأنه وياقوتة تصبّرها حتى يعود

— ٥٠ —

السلطان نور الدين

وأما أبو الحسن ، فقد علمت انه نجا تلك الليلة من القبض عليه لأنه كان لفرط دهائه وحذره يحتاط لكل شىء . وكان قد أعد منفذا من قاعة الاجتماع الى بيت ذلك اليهودى حتى اذا

داهمهم مداهم فـرّ من هناك لايبالى بما يصيب رفاقه .. وانما هو يطلب النجاة لنفسه

قضى بضعة أيام مختبئا فى بعض المنازل حتى علم ما كان من عاقبة رفاقه المتآمرين ، وكيف قضى عليهم بالصلب فيئس من مصر ورجالها .. ولكن مطامعه ظلت تريه المحال ممكنا — والمرء اذا رغب فى شيء وان كان بعيدا فان رغبته فيه تريه اياه قريبا — فأعمل فكرته فى سبيل آخر يسعى فيه للانتقام من سيدة الملك . وقد علم فى أثناء انتظاره انها هى التى استعانت بخادمه جوهر على كشف أمرهم فازداد حنقا عليهـا ، فخطر له بعد التفكير أن يستعين بالسلطان نور الدين صاحب الشام .. يحمل اليه أسرارا هو مطلع عليها تتعلق برغبة صلاح الدين فى الاستقلال بمصر ، وما صرح به ضد نور الدين .. فيوشى به الى نور الدين لكى يحمله على محاربته واخراجه من مصر عنوة ، وأن يشـهد هو ذلك الفتح فيجعل غنيمته منه سـيدة الملك ، واستسهل كل صعب فى هـذا السبيل فرآه قريب المنال

فلما اقتنع بصحة رأيه ، احتال فى الفرار من مصر طالبا دمشق الشام وواصل المسير وجـدّ فيه ، فوصل دمشق متنكرا بثوب تاجر مصرى ونزل فى خان من خاناتها قريب من القلعـة ، وهى يومئذ مقر السلطان نور الدين . ودمشق زاهية بذلك السلطان العظيم وأهلهـا فرحون بما ناله من الانتصارات المتواليـة على

الافرنج فى مواقع مختلفة من بلاد الشام . لكنه لم يكد يستقر به الجلوس فى الخان حتى سمع لغط القوم بانحراف صحة السلطان منذ أيام ، وقلق الناس على حياته لأنه أصيب بالخوانيق . فأخذ أبو الحسن يفكر فى وسيلة تبلغه مجلسه ليتداول معه فى أمر مصر

وسأل عن طبيبه الخاص فعلم انه الرحبى ، وهو من أمهر الأطباء وكانت له معه معرفة . فسار اليه فوجده فى منزله فاستقبله الطبيب أحسن استقبال.. وكان قد لقيه بمصر، وعرف منزلته عند الخليفة العاضد ، فسأله أبو الحسن عن حال السلطان فقال : « انه مصاب بالخوانيق وقد اشتد عليه المرض لأنه أبى الفصد » فأظهر أسفه وقال : « ألا يتيسر لى أن ألاقيه .. لعلى أقنعه بالفصد ، ولى معه حديث اذا أطلعته عليه سرى عنه »

فرأى الطبيب أن يستعين به على ذلك ، وهو مطلع على قلق السلطان نور الدين من جهة مصر .. فظن انه يرغب فى استقبال أبى الحسن ، لعله يستطلع منه أمرا جديدا ، فيأذن بمقابلته ولو كان مريضا .. فاستمهله الطبيب الى صباح اليوم التالى

وجاءه أبو الحسن فى الصباح فقال له : « ان مولانا السلطان أحسن حالا الآن ، وقد ذكرتك له فأحب أن يراك »

ففرح أبو الحسن بقبوله وركب مع الطبيب الى القلعة . وكان السلطان مقيما فى غرفة من غرفها ، أصابه المرض وهو فيها فبقى هناك .. فدخل الطبيب أولا واستأذن لأبى الحسن فأذن له ،

فدخل وهو يتلطف فى التحية والاحترام ، وكان قد عرف السلطان من قبل واجتمع به غير مرة ، وعهده به قوى البنية مشرق الوجه ، فرآه قد تغيرت حاله . وكان السلطان نور الدين أسمر اللون طويل القامة ليس له لحية الا فى طرف ذقنه ، وكان واسع الجبهة حسن الصورة حلو العينين ، ولكن المرض ذهب بلمعانهما وقد امتقع لونه .. فلما رأى أبا الحسن داخلا ، ابتسم كعادته فى الملاطفة والمجاملة

فأكب أبو الحسن على يده كأنه يريد تقبيلها فامتنع نور الدين عن ذلك ، وأشار اليه أن يجلس . ولم يكن فى تلك الغرفة شىء من الرياش لأنها ليست القاعة التى يقابل الناس فيها وانما اتفق وجوده هناك عند الاصابة بالمرض

جلس أبو الحسن على وسادة وقال : « كيف مولانا اليوم أرجو أن يكون بخير ، لأن فى سلامته سلامة الدولة ، وفى شفائه شفاء الاسلام . وأرجو أن لا أكون قد أثقلت عليه بقدومى .. »

فقال نور الدين وصوته ضعيف من الخوانيق : « الحمد لله على كل حال ، وأما قدومك فقد سرنى لعلمى انك قادم من مصر وفيها حبيبنا ووزيرنا الملك الناصر .. كيف فارقته ؟ »

فلما سمعه يلقّب صلاح الدين بالحبيب تشاءم ، لكنه عزم على المراوغة فقال : « هو بخير فى ظل مولانا السلطان الملك العادل »

قال نور الدين : « كيف فارقت مصر ؟ »

قال أبو الحسن : « فارقتها وأهلها يتشوقون الى طلعة مولانا السلطان أعزه الله ، ويتمنون لو انه شرفهم بالزيارة ليرى مملكته الجديدة .. »

فأشرق وجه نور الدين وسره أن يسمع ذلك من أمير مصرى كان من المقربين للدولة الماضية فقال : « ولكن بلغنا أن بعضهم تآمروا على خلع الطاعة .. فهل ذلك صحيح ؟ »

فقال أبو الحسن : « نعم ياسـيدى .. انهم تآمروا ، ولكن ليس على خلع طاعة السلطان نور الدين »

قال نور الدين : « وكيف اذن ؟.. » وبدت البغتة فى عينيه ونسى مرضه وأخـذ يعبث بجانب لحيته ، وتفرس فى عينى أبى الحسن ليرى ما يبدو منه

فقال أبو الحسن : « ان أهل مصر من أقرب الناس الى الطاعة ولكن .. » وبلع ريقه وتنحنح ، وأظهر انه يكتم أمرا لا يحب التصريح به

فقال نور الدين : « ما بالك ؟.. ولكن ماذا ؟ »

قال أبو الحسن : « لا أحب أن أزعج سيدى السلطان بأمور لا أظنها تسره .. »

فبدا الغضب فى وجه نور الدين وقال : « قل .. قل .. تآمروا على خلع من ؟.. »

قال أبو الحسن : « انهم تآمروا على خلع السلطان صلاح الدين .. »

قال نور الدين : « أليست طاعته طاعتى ؟.. »

قال أبو الحسن : « بلى .. هكذا يجب أن يكون ، ولو طلب طاعتنا باسم السلطان نور الدين لما وجد مخالفا »

قال نور الدين : « وكيف طلبها اذن ؟ »

قال أبو الحسن : « يظهر أن أصحاب البريد يخفون الحقيقة عن مولانا السلطان ، فاذا أذن لى تكلمت .. »

قال نور الدين : « قل .. قد أذنت لك »

فالتفت أبو الحسن الى الطبيب ، كأنه يستشيره فى هل يضر الغضب بصحة السلطان .. فتقدم الطبيب الى السلطان وقال : « أرى مولانا السلطان قد ظهر الغضب فى وجهه وهو مريض .. ألا يؤجل هذا الحديث الى وقت آخر ؟ »

فقال نور الدين : « كلا .. انى بخير والحمد لله .. فليقل مايشاء .. »

فاعتدل أبو الحسن فى مجلسه وقال : « ان وزيرك صلاح الدين لم يطلب طاعة المصريين باسمك ، ولكنه طلبها باسمه ، وزعم انه هو صاحب الأمر وليس للسلطان نور الدين شىء منه ، وقد قاومناه وتآمرنا عليه لأننا لا نريد أن نعرف غير مولانا نور الدين سلطانا .. وأنا أستغرب اختفاء ذلك عنك .. وقد صرح صلاح



«بدا الغضب فى وجه نور الدين وقال : قل .. قل : تآمروا على خلع من ؟.. فقال ابوالحسن : انهم تآمروا على خلع السلطان صلاح الدين »

الدين بذلك فى جلسة علنية — حتى ان أباه نجم الدين انتهره وأمره بالكتمان » قال ذلك وسكت

— ٥١ —

الفشل

وكان نور الدين حسن الفراسة ، فأطرق هنيهة يفكر فيما سمعه ، وهو يعبث بلحيته .. فلم تعجبه تلك الوشاية من عدو طبيعى لهما ، ولاسيما بعد أن سمع اعترافه بأنه كان من المتآمرين على صلاح الدين . وأدرك انه لو كان صادقا فى طاعته لنورالدين لم يساعد على خلع الطاعة بتلك الصورة ، بل كان عليه أن ينقل خبر صلاح الدين اليه . فترجح لديه كذبه فقال : « وماذا ترى الآن ؟ »

قال أبو الحسن : « أرى أن لايستخف مولانا السلطان العادل بمطامع وزيره ، فانه قد جاهر باستقلاله بمصر قبل موت الامام العاضد فكيف به الآن ؟ فما على السلطان الا أن يجرد عليه جيشا ويخضعه وأنا فى خدمته أفديه بدمى »

فحملق السلطان نور الدين بعينيه السوداوين ، وكاد الشرر يتطاير منهما لشدة الغضب وقال : « لو كنت صادقا فى نصحك فحملت الينا هذه الوشاية من قبل .. فصبرك عليها حتى الآن

حجة عليك وعلى أصحابك المتآمرين .. انما أنتم تآمرتم على خلع طاعة نور الدين .. بل أردتم نقض بيعة الامام العباسى لأنه سنى .. وطمعتم فى استرجاع السيادة لأنفسكم .. » وكان يتكلم وهو مستلق ، وأخذ يرتعد من الغضب .. فاعتدل يريد الجلوس فأعانه الطبيب على ذلك ، وقد ندم على الاذن له فى الكلام

فأخذ أبو الحسن يتنصل من تلك التهمة وقال : « لم أحسن التعبير عن مرادى ياسيدى .. انى أصدقك الخبر .. ان ما قلته هو الصحيح .. نحن طائعون للسلطان نور الدين .. و .. »

قال نور الدين : « لو كنتم صادقين لأطعتم وزيرى ونائبى صلاح الدين ، لكنكم تعودتم التملق والتذبذب .. ما الذى أساءكم به صلاح الدين ؟ ألم ترسلوا الينا شعور نسائكم تستغيثون بنا فأنفذنا اليكم عمه شيركويه وقد أنقذكم ؟ وهذا صلاح الدين أخمد العصيان وأصلح البلاد وأبطل الضرائب . فكان ينبغى أن تعرفوا له فضله .. ولكن قوما يبلغ بهم الذل حتى يستشفعوا بشعور نسائهم لايرجى منهم وفاء .. لا أزال أذكر سوء وقع ذلك فى مجلسنا يوم أتتنا تلك الشعور فى المناديل وقد عقد المجلس للنظر فى طلب امامكم ، وكان بين الغلمان شاب صغير لم يملك حين رأى تلك الشعور أن تقدم الى أن أعطيه خصلة منها حمراء ذهبية ، وكان مقربا من صلاح الدين فدفعتها اليه لأرى ما يبدو منه . فلما تفرس فيها قال : « ان صاحبة هذا الشعر

الجميل لا تمتهن ، وهى اما بنت الخليفة أو أخته فانى معيده اليها » فأذنت له بالخصلة فأخذها فى منديلها ولا أدرى اذا كان قد وفق الى ما أراد .. فكيف ترجو أن أتوقع منكم وفاء ؟ وقد جئتنى الآن تريد الايقاع بينى وبين نائبى . هب انه أراد الاستقلال بمصر ، فليأخذها هو فان البيعة واحدة ولا ترجع لكم .. » ولما بلغ الى هنا ظهر التعب عليه وحوّل وجهه عن أبى الحسن باحتقار وأدار له ظهره وعاد الى النوم وهو يلهث من التعب

أما أبو الحسن فجمد الدم فى عروقه من الفشل ، وأحس كأنك صببت عليه ماء باردا . وأخذ يرتعد وقد وقع خبر خصلة الشعر عليه وقوع الصاعقة لعلمه انها من شعر سيدة الملك . فأشار اليه الطبيب أن يخرج حالا لأن السلطان أصابته نكسة بسبب الغضب. فخاف أبو الحسن أن يأمر السلطان بالقبض عليه فخرج مسرعا واختفى فى مكان لا يعرفه فيه أحد ريثما يرى ماذا يكون

وفى الصباح التالى طاف المنادون فى المدينة ينعون السلطان نور الدين (توفى فى ١١ شوال سنة ٥٦٩) وتناقل الناس عن سبب وفاته بعد أن تحسنت صحته انه غضب من بعض الناس فأصابته نوبة ذهبت بحياته .. فأسقط فى يد أبى الحسن ، وعمد الى الفرار وقد تولاه اليأس وأظلمت الدنيا فى عينيه

خرج من دمشق وهو يرغى ويزبد من شدة الغضب ، والخادم فى ركابه لايجسر على النظر اليه .. حتى اذا مرّ بالغوطة وصل الى

عين ماء جارية يظللهـا ويحيط بها أشجار التفاح والسـفرجل والمشمش وسائر أنواع الفاكهة ، وقد دخل الربيع (١) وتفتحت الأزهار وتغنت الأطيار .. وكانت الطبيعة باسمة ضاحكة ، ولكن أبا الحسن لم يكن يرى شيئا سوى الفشل الذى كان مجسما أمام عينيه .. وانما نبهته البغلة الى الوقوف هناك لأنها رأت المـاء جاريا ، فهاجها العطش ، فمالت الى قناة المـاء لتشرب . فانتبه أبو الحسن وقد صـارت الشمس فى الضحى وهو فى الخـلاء لا رقيب عليه .. فلاح له أن ينزل هناك ليستريح فترجل وسلم البغلة الى الخادم يهتم بأمرها . وتغلغل بين الأشجار على غفلة من خدم البستان لأنهم لايتوقعون نزول النـاس هناك فى مثـل تلك الساعة

أما أبو الحسن فلما خلا بنفسه جلس الى جذع مشمشة تدلت أغصانها تحمل نوعا من المشمش يفاخر به أهل الشام سائر المشرق، ويعرف الآن بالمشمش الحموى ، ينضج فى ابان الربيع ، والناس يقصدون الغوطة للتمتع بمنظره وطعمه

أما أبو الحسن فلم يخطر بباله شىء من ذلك ، لكن اشراق الطبيعة أذكره ماضيه وأوضح له ما هو فيه فازداد انقبـاضا .. مكث برهة يفكر وهو فى غفلة من زقزقة العصـافير وتطايرها ومداعباتها وليس فيها من يخاف الفشل ، لأنها مثل سائر الأحياء

(١) يقع شهر شوال من تلك السنة (٥٦٩ هـ) فى مايو ويونيو ١١٧٤ م (التقويم العام)

لا تطلب من الطبيعة غير ضروريات البقاء وهى ميســورة . أما الانسان فمن مطالبه ما لا يمكن تحقيقه الا بالجهد والعناء ، وهو قد يرتكب فى سبيل الظفر به الكثير من أنواع المحرمات

وبعد السكوت مدة ، نبّهته حشرة انسابت بجانبه بين العشب .. فالتفت الى ما يحيط به من جمال الطبيعة وبهائها ، فاتضحت له الظلمة التى هو غارق فيها . ومرّ تاريخ حياته فى خاطره مرور السهم ، فلم يزدد الا انقباضا .. وتبين له ان سبب هذا الشقاء انما هو رفض سيدة الملك له ، فاشتدت نقمته عليها .. واغتنم فرصة غياب خادمه وأخذ يناجى نفسه قائلا :

« ويل لك يا لعينــة .. تفضلين ذلك الغلام علىَّ ؟ أما كان الأفضل لك أن يكون أبو الحسن زوجك ويبقى هذا الملك لنا . كان فى وسعى أن أقتل صلاح الدين ، ولم أفعل لأنى أريد أن أستثمر تعبى بنفسى لا أن يستغله سواى . علمت انك تشكين فى صحة نسبى ولا تعتقدين انى من بنى عبيد الله .. أصبت ، انى لست منهم ، ولكن شرف النسب وهم .. انما الرجال بالأعمال وقد انتحلت ذلك النسب لأن الناس يحترمونه .. وظننت أنه وسيلة للتقرب اليك والى الملك ، فلما أوشكت الوصول الى الغــرض عرقلت مساعى بغطرستك وتعلقك بذلك الخادم »

ثم أجفل لسقوط مشمشة وقعت على الحشيش اليابس فأحدثت حفيفا ، فتحوّلت أفكاره الى ناحية أخرى ، فتذكر صباه .. فقال :

« وأنت يا راشـد الدين قد آن الوقت لأستعين بك على هـذه الفاجرة .. لا لأتزوجها بل لأذيقها العذاب ثم أريها رأى العين سوء تصرفها فتنـدم حين لاينفعها الندم » وكأنه حزم على أمر توسم النجاح فيه فارتاح باله وانقشعت السويداء عن مخيلته ، وقد أحس بالجوع فالتفت الى ما حوله فلم يجد أحـدا فصفق للخادم وناداه ، فأتى فأوعز اليه أن يأمر البستانى بأن يهيىء له طعاما وفاكهة .. فأكلا ، وعاد أبو الحسن الى تدبير ما عزم عليه ، فلنتركه فى تدبيره ولنبحث عن عماد الدين فقد طال بنا السكوت عنه ..

- ٥٢ -

فى السجن

علمت من سياق الحديث ان عماد الدين لاقى فى سفره عذابا ، اذ قبض عله الافرنج بقرب بيت المقدس لاعتقادهم انه جاسوس ، وسجنوه مدة تعرف فى أثنائها الى جرجس هذا كما تقدم . ولم يكن جرجس مسيحيا كما قال ، وانمـا هو من كبار الفدائيين الاسماعيليين ، واسمه الحقيقى عبد الرحيم بعثه راشد الدين لقتل أمورى الافرنجى صـاحب بيت المقدس ، فتنكر باسم جرجس واحتال حتى جعلهم يقبضون عليه ويسجنونه ليتمكن فى أثنـاء

سجنه من التعرف الى صغار أهل البلاط ويطلع على خفايا القصر بحيث يسهل عليه الوصول الى غرضه . وعادة أولئك الفدائيين فى تنفيذ أمر مولاهم راشد الدين ، ان أحدهم اذا كلف بقتل أحد الملوك جعل نفسه من أصغر خدمه . والغالب أن يجعل نفسه سائسا لجواده ليتيسر له الاقتراب اليه عند الركوب والنزول فيغتنم غفلة منه يطعنه فيها بخنجره

ففى أثناء اقامة عبد الرحيم (أو جرجس) هذا فى السجن تعرف الى عماد الدين وأحبه وتمكنت العلاقات بينهما فكاشفه عبد الرحيم بحقيقته ، وكيف انه مسلم وانه احتال بالسجن ليتوصل الى غرضه ويقتل صاحب بيت المقدس باشارة مولاه راشد الدين ، وأخذ يرغبه فى هذه الطائفة ونبالة مقاصدها وشدة تأثيرها ، فحمد عماد الدين السبب الذى جره الى ذلك السجن لأنه كان وسيلة الى هذا التعارف وسهل عليه مهمته . فأظهر ارتياحه لذلك الرأى ، ووعده بأن ينتظم فى سلك الاسماعيلية بعد خروجه من السجن ، وهو يضمر أن يجعل ذلك الانتظام وسيلة لتنفيذ مهمته التى جاء من أجلها لقتل راشد الدين . وبذل جهده فى اكتساب ثقة عبد الرحيم ، وأطاعه فى تغيير اسمه فجعله عبد الجبار

وأيام السجن طويلة لأنها خالية من العمل ، فيمل المسجونون الفراغ ، ويضطرون لقضاء الوقت فى الأحاديث أو الألعاب .. فكان

عبد الرحيم يقضى معظم الوقت فى التحدث عن راشد الدين وكراماته ومقدرته ، وكيف انه يعلم الغيب ويتنبأ عن المستقبل ويحدث الأحجار ويأتى بالمعجزات .. وانه يفعل ذلك لا لطمع فى الدنيا وانما هو ينصر الاسلام . واستشهد على صحة قوله بالمهمة التى أتى بها لقتل صاحب بيت المقدس . وكان كلما ذكر راشد الدين ثارت الحمية فيه وهاجت عواطفه ، وأصبح كله ألسنة تنطق بفضائله .. فكان لأقواله مع التكرار تأثير على عماد الدين ، فأصبح يرى وجود راشد الدين قوة عظيمة يمكن الاستعانة بها على الافرنج اذا تمكن من اكتساب صداقته .. على ان ما سمعه من معجزات ذلك الرجل وكراماته وعن جنته وسمائه حبب اليه الاطلاع على حقيقة ذلك

تمكنت هذه الصحبة بينهما .. ثم انتهت أيام عبد الرحيم فى السجن وخرج وأهل البلاط يحبونه ويرون بوجوده نفعا لهم لأنه مسيحى يعرف لغة البلاد وعاداتها .. فقربوه ، وهو يبذل جهده فى مرضاتهم توصلا لغرضه .. فلما جرت المفاوضات بين الحزب العبيدى فى القاهرة وبين الافرنج ، وانتهت بارسال الوفد ، اختاروه ليكون دليلا .. فذهب لوداع عماد الدين ، فأسَرَّ اليه ما تقدم ذكره ، فبذل جهده فى خدمة صديقه رغبة فى ادخاله سلك الاسماعيلية لأنه آنس فيه من الشجاعة والذكاء ما يندر مثاله وهم فى حاجة الى الشجعان

فلما عاد من تلك المهمة توسط فى اخراج عماد الدين من السجن وأبلغه نتيجة كتابه الى صلاح الدين ، وكيف انه قبض على المتآمرين وقتلهم صلبا الا أبا الحسن فأخبره بأنه نجا . ثم دفع اليه كتابا من صلاح الدين يثنى فيه على حميته ، وصدق مودته ، وبعث اليه مالا يستعين به

ثم أطلعه على ما عرفه عن سيدة الملك ودفع اليه كتاب ياقوتة والجواهر ، فتناولها وأعطى قسما منها الى صديقه عبد الرحيم فازداد تعلقا به .. وليس من شىء كالسخاء يحبب صاحبه الى الناس مهما يكن فيه من العيوب ، حتى جرى على السنة العامة قولهم : « ما من عيب الا والكرم غطاه » فكيف اذا كان الكريم قليل العيوب أو لا عيب فيه .. ولو علم الأغنياء ما يغطيه الكرم من عيوبهم لكرهوا البخل وبعدوا عنه ، وكما يذهب الكرم بعيوب الأغنياء .. فالبخل يلصق بهم عيوبا ليست فيهم

وأسرع عماد الى كتاب ياقوتة فقرأ فيه قولها :

« سلام عليك يا عماد الدين . جاءنا صديقك وسرنا انك فى صحته جيدة ، ولكن ساءنا ما أصابك فى السجن .. على أن ما عرفناه من حب هذا الصديق لك ، وما يظهر فيه من المروءة والشهامة طمأننا عليك .. اننا نقيم الآن فى دار الضيوف تحت رعاية السلطان صلاح الدين .. انه شهم وقد أكرمنا غاية الاكرام . ويسرنى أن أخبرك بأنه جعل مولاتى سيدة الملك أختا له ، وهو

يعاملها معاملة الأخت من كل وجه . وجاء ذكرك مرة أمامه ، فأكثر من الثناء عليك وما يرجوه لك من المستقبل السعيد .. انما ساء سيدتي انك فى السجن ، على ان صديقك جرجس بشرنا بقرب خروجك منه سالما معافى ، ولكن عظم علينا أنك ستبطىء فى المجىء الينا . عجل ولا تقطع أخبارك وعليك السلام »

فلما قرأ الكتاب أحس بشيء جديد لم يشعر به من قبل . وقد كان الى تلك الساعة مضطرب الأفكار من جهة سيدة الملك لعلمه ان صلاح الدين خطبها لنفسه .. ورأى من جهة أخرى ما أظهرته من الميل اليه حتى أوشكت أن تقول له صريحا انها عاشقة له تتفانى فى حبه .. فوقع فى حيرة ، وانما شغل عن ذلك بالأسفار وملاقاة الأخطار ليرى ما تأتى به الأقدار . فلما اطلع على كتاب ياقوتة وعلم ان صلاح الدين لايريد الزواج بسيدة الملك ورأى عطفها عليه فى ذلك الكتاب مع اختصاره ، أحس بأنها له وحده واضطرمت نيران الحب فى قلبه دفعة واحدة ، كأن لواعج تلك المدة كلها اجتمعت فى ذلك اليوم وظهرت دفعة واحدة . فأصبحت صورة سيدة الملك نصب عينيه كيفما توجه ، وهو لايزال يتذكر منظرها فى تلك الليلة وهى واقفة تودعه وتتعجل نزوله فى السراديب . ولم يكن يومئذ يشعر بشيء من تلك العواطف

- ٥٣ -

السفر

وتذكر خصلة الشعر الحمراء وكيف تجاسر على طلبها من نور الدين وهو غلام لاشأن له ، وكيف أذن له نور الدين بأن يأخذها. ثم كيف وفق للاجتماع بصاحبتها وهى فى أشد الخطر فأنقذها ودفع اليها بالخصلة .. مرّ ذلك كله بذهنه فى لحظة ، فتحقق أن الأقدار أعدت له هذه النعمة .. فاذا وفق الى اتمام مهمته بلغ أوج السعادة . فبدأ يشعر بالسعادة من ذلك الحين — ولا سعادة بدون الحب .. اختلف الناس فى تعريف السعادة فجعلها بعضهم فى المال وآخرون فى الشهرة وآخرون فى الصحة ، وذهبوا فيها مذاهب شتى . لكن المحبين يعلمون أن السعادة فى تبادل المحبة بين حبيبين يرجوان ويخافان ، يلتقيان ويفترقان ، وهما فى كل حال فى سعادة الاجتماع اما بالقول أو بالأمل .. لا فرق فى ذلك ان رافقهما الغنى أو الفقر أو الشهرة أو الضعة .. انهما سعيدان فى كل حال

شعر عماد الدين بعد تلاوة الكتاب بما لم يشعر به قبل . وأصبح شديد الرغبة فى سرعة الرجوع الى القاهرة . وكان عبد الرحيم فى خلال ذلك واقفا يرقب حركات صديقه مخافة أن يكون فى ذلك الكتاب ما يبعثه على تغيير خطته ، وهو يحب أن يدخله فى كنف الاسماعيلية . وانتبه عماد الدين لنفسه فرأى صديقه

جالسا بجانبه فقال له : « انى أشكرك أيها الصديق على هـذه الخدمة الثمينة جزاك الله خيرا .. »

قال عبد الرحيم : « هذا واجب أديته لا فضل لى فيه .. وهل اذا أتيح لك أن تخدمنى مثل هذه الخدمة تتأخر ؟ »

فثارت النخوة فى رأس عماد الدين وقال : « أفديك بروحى » ولم يقل ذلك حتى أحس بشىء فى داخله يعترض ذلك القول لأنه شعر من تلك الساعة أن روحه ليست له ، وانه يود البقاء ليرجع الى حبيبته ويتمتع باللقاء

أما عبد الرحيم فأعجبه ذلك التعبير منه وقال : « سترى من هو أولى منى بالفداء .. ان الشيخ راشـد الدين امامنا ومولانا نفديه كلنا بأرواحنا . وستذوق هذه اللذة متى صرت واحدا منا . هل أنت عازم على الدخول معنا فى هذا الأمر ؟ أم غيَّرك هـذا الكتاب ؟ » وضحك

قال عماد الدين : « لم يغيرنى شىء وما هو السبيل الى ذلك ؟ كيف أذهب ؟ والى أين ؟ وما هى الطريقة ؟ .. أرجو أن تساعدنى وترشدنى »

فرح عبد الرحيم وقال : « انى طوع ارادتك .. سأعطيك كتاب توصية الى الشيخ دبوس نائب مولانا الشيخ الأكبر ، وهو يقيم معه فى قلعة مصياف من جبل السماق من أعمال حلب ، ثم ألحق بك بنفسى .. يمكنك السفر اليوم . هل تعرف الطرق ؟ »

قال عماد الدين : « أعرفها جيدا لأنى ربّيت فى هذه البلاد »

فأخذ عبد الرحيم ورقا وكتب توصية الى الشيخ دبوس نائب شيخ الجبل .. فتناولها عماد الدين وودعه ، وركب جواده قاصدا جبل السماق . وهو جبل عظيم من أعمال حلب يشتمل على مدن كثيرة وقرى وقلاع كلها للاسماعيلية ، وفيه بساتين ومزارع ، لكن المياه الجارية فيها قليلة الا ما كان من عيون ليست بالكثيرة فى مواضع خاصة .. ومع ذلك تنبت فيها جميع أشجار الفواكه وغيرها ، حتى القطن والسمسم

وقد اشتهر جبل السماق بالقلاع التى فيه للحشاشين الاسماعيلية ، وهى عديدة أشهرها مصياف ، وكهف ، والخوابى ، وعليقة ، ومرقب ، والرصافة ، وغيرها . يهمنا هنا مصياف وفيها يقيم زعيم الاسماعيلية راشد الدين ، وهى على بعد ١٢ ساعة من حماة غربا

— ٥٤ —

قلعة مصياف

اشتهرت قلعة مصياف فى زمن الاسماعيلية باقامة شيخ هذه الطائفة فيها ، وهى واقعة على جبل مصياف وهو جبل شامخ ، يحيط به من الشرق والغرب مستنقعات واسعة ، ينتهى من الشمال

بقمة عالية فوقها قلعة منيعة هي مقر شيخ الاسماعيلية ، ومن أسباب مناعتها انها قائمة على صخر جوانبه عمودية يعسر تسلقها .. وتشرف على ما يحيط بها من المستنقعات من كل ناحيـة ، ومن جملة ذلك واد يقيم فيه بعض الفلاحين يزرعون الحنطة والشعير . وعلى مسافة من الجبل بلدة مصياف يسكنها طائفة من العامة (١)

أما القلعة فانها محاطة بسور سميك ليس له الا باب سقفه عقد متين ، اذا دخل الرجل منه سار فى دهليز كله معقود يؤدى من الداخل الى قمة القلعة وما وراءها وفوقها من الغرف وكلها مبنية من الحجر الصلد . وعلى السور أبراج متلاصقة تقيم فيها الحامية ، ترمى الهاجمين عليها بالسهام أو الحجارة قبل وصولهم الى الباب بمسافة بعيدة بحيث يستحيل أخذها بالهجوم الا بعد قتل المئات والألوف

برح عماد الدين بيت المقدس على جواده ، ويصل بينه وبين جبل السماق عدة طرق ، لكنه أحب أن يمر بدمشق مرتع صباه وقد اشتاقت نفسه الى رؤيتها ومشاهدة بساتينها .. فوصلها بعد بضعة أيام وكان وصوله اليها قبل وصول أبى الحسن بيومين ، وظل متنكرا لم يطلع أحدا على حقيقة حاله .. لكنه طاف المدينة وزار القلعة وشاهد كثيرين ممن يعرفهم . واتفق رجوع السلطان نور الدين من الميدان ، فرآه عائدا على جواده وحوله الأمراء

(1) Burckhardt, Travels in Syria and the Holy Land London 1822. 150

والأعوان ففرح برؤيته ، لكنه بذل جهده فى التنكر لئلا يشعر به أحد وهو يعلم ما بين نور الدين وصلاح الدين من الفتور ويود زواله ، لكنه يميل الى أن يكون مولاه صلاح الدين هو الرابح

قضى معظم النهار فى دمشق .. أكل من طعامها وفاكهتها وتمتع بمناظرها ومرَّ عند خروجه بغوطتها ، ولعله مر فى نفس المكان الذى اجتازه أبو الحسن بعد يومين . وبات تلك الليلة فى قرية بضواحى دمشق .. وهب فى اليوم التالى قاصدا جبل السماق ، وبات الليلة الثانية فى أحد الخانات .. وقضى معظم اليوم التالى فى الطريق . وكان فى امكانه الوصول الى مصياف فى أصيل ذلك اليوم ، لكنه فضَّل الوصول اليها فى الصباح التالى

فبات فى احدى القرى وركب فى الصباح ، وبعد ساعتين أطل على جبل مصياف ، وعلى قمته القلعة تناطح السحاب ، فهاله مارآه من مناعتها ورسخ فى اعتقاده أنها أمنع من عقاب الجو . وترجَّل هناك فجاءه شيخ من الفلاحين يعرض عليه خدمة يؤديها وقد ظنه من كبار الاسماعيلية ، وهم يعهدون فيهم الشدة والقسوة . وكثيرا ما شهدوا القتال بينهم وبين من جاء لمهاجمتهم من الجنود الشامية أو الجبلية أو المصرية فضلا عما يتناقلونه من كرامات الشـيـخ راشد الدين وهم يسمونه شيخ الجبل باسم الحسن بن الصباح مؤسس هـذه الفئة .. حتى أوشكوا لفرط ما استولى عليهم من

الاعتقاد بكرامته أن لا يحدث حادث غريب مخيف الا نسبوه اليه ولو كان من الظواهر الطبيعية كالمطر ، والرعد ، والبرق .. وأصبح فزعا لأعدائه وأمنا لمريديه

وكان هم عماد الدين عند وصوله أن يقابل الشيخ دبوس ، ويدفع اليه كتاب التوصية الذى يحمله من عبد الرحيم ، فلما جاءه ذلك الفلاح الشيخ سأله عماد الدين عن راشد الدين أين هو ؟ ..

فأجفل الرجل وتفرس فى عماد الدين وقال : « يظهر انك غريب عن هذه الديار ياسيدى ؟ »

قال عماد الدين : « نعم .. »

قال الرجل : « وما الذى جاء بك الى هنا ؟ .. وماذا تريد من شيخ الجبل ؟ »

قال عماد الدين : « انى أحمل كتابا الى نائبه الشيخ دبوس »

قال الرجل : « دبوس .. طيب .. ظننتك تطلب الشيخ راشد الدين نفسه ، فانه لايطمع أحد فى رؤيته .. حتى أصحابه وأعوانه ، انهم لايرونه ، ولا يؤذن لأحد برؤيته الا فى ظروف خاصة »

فقال عماد الدين : « وأنت ، من أنت ياعماه ؟.. لعلك من رجاله .. »

فقطع الشيخ كلامه قائلا : « حبذا ذلك .. ان مثلى لايطمع فى هذا الشرف ، ويكفينا من جواره أن نقوم بخدمته بما نغرسه من

الحنطة أو نرعاه من الماشية له،ولرجاله فى مقابل بقائنا على قيـد الحياة »

قال عماد الدين : « والآن أحب أن أقابل الشيخ دبوس .. فهل ذلك ميسور ؟ »

قال الرجل : « لا أدرى . اعطنى الكتاب اذا شئت لأوصله الى أحد رجاله ، فيوصله اليه .. ثم آتيك بالجواب »

فدفع اليه الكتاب فتناوله وركض نحو الجبل ، ومكث عماد الدين فى انتظار عودته وقد أمسك زمام فرسه بيده وأدار بصره فيما يحيط به من المستنقعات .. وذلك الجبل الشامخ القائم فى وسطها .. وفوقه قلعة مصياف ، وقد أحاط بها السور والأبراج . ولم يستطع أن يتبين طريقا يؤدى اليها .. كأن أهلها يصعدون اليها على أجنحة النسور أو فى المناطيد ، فهاله ذلك وتمثل له الخطر المحدق بمن ينوى براشـد الدين شرا .. لـكنه ازداد رغبة فى استطلاع حقيقة ذلك الرجل ، فاما أن يفتك به أو يقرب مابينه وبين صلاح الدين

— ٥٥ —

الشيخ دبوس

قضى فى ذلك ساعة ، ثم رأى الشيخ الفلاح راجعا ومعه شاب فى

ملابس السعاة بالسراويل القصيرة حاسر الرأس ، حافى القدمين ، عارى الصدر كأنه من العفاريت . فلما وصل الى عماد الدين حياه ثم سأله عن غرضه فقال : « أحب أن أقابل الشيخ دبوس »

فمد يده وفيها كتاب التوصية وقال : « هذا هو كتابك وما هو اسمك ؟ »

قال عماد الدين : « عبد الجبار »

قال الشاب : « وتريد أن تقابل الشيخ دبوس ؟ »

قال عماد الدين : « نعم .. »

قال الشاب : « اتبعنى »

فتبعه ماشيا يقود فرسه ، والشاب يسير بين يديه وهو يتلفت اليه ، يجيل نظره فيه كالمتفرس .. فاستغرب عماد الدين تلفتــه وتفرسه ، ولو كان جبانا لوقع الرعب فى قلبه .. ولكنه كان شجاعا لا يعرف الخوف

وبعد قليل وصلا الى قاعدة الجبل ، فأشار اليه الشاب أن يترك الجواد هنــاك ويتبعه ، فتردد عماد الدين لحظة فقال له : « لابد من ترك الجواد هنا .. والا فارجع من حيث أتيت »

فأطــاعه ومشى فى أثره فى طرق متعرجة بعضهــا منقور فى الصخور وبعضها سلالم من الحجر يصعب تسلقها .. والرجل يقفز بين يديه كالنمر لا يبالى بالتعب ، وعماد الدين يجاريه لئلا يظهر عليه الضعف وهو أبى النفس

وبعد الصعود ساعة فى تلك الطرق المتعرجة وصلا الى باب القلعة وهو سميك متين .. فوقف الشاب وأشار الى عماد الدين أن ينتظر . وتقدم هو الى الباب ودقه دقا خاصا ففتح وكان لفتحه صرير شديد .. فدخل وأغلق الباب وراءه ، وظل عماد الدين واقفا ينظر الى ذلك البناء المنيع وهو لا يرى منه غير السور السميك وعليه الأبراج .. ولمح من شقوق الأبراج أو نوافذها الضيقة أناسا يذهبون ويجيئون كأنهم الحامية

وبعد قليل عاد الرسول وقد لطف لهجته ، وأشار الى عماد الدين أن يدخل ، فدخل من ذلك الباب تحت العقد الغليظ ، ومشى فى دهليز طويل متعرج ، سقفه معقود وأرضه من الصخر الخشن . وقد وقف الى جانبيه الحراس بالحراب والسيوف كأنهم أصنام لايتحركون . فهاله ذلك المنظر ، لكنه تشدد وتجلد وصمم على الصبر الى النهاية

سار فى ذلك الدهليز مسافة وانتهى منه الى منفذ يؤدى الى ساحة حولها أبواب مغلقة ، فأشار اليه الرسول أن يتبعه ففعل حتى وصل الى باب منها فطرقه .. وحينما فتح البـاب تقدم الرسول الى عماد الدين ودفع اليه كتاب التوصية وتراجع وأشار اليه أن يدخل . فتقدم فرأى نفسه فى حجرة ببابها حراس بالحراب أشاروا اليه برءوس الحراب أن يدخل ، فدخل .. ثم وقف وتلفت فاذا هى غرفة واسعة قد فرشت بالسجاد وغطيت جدرانها بأنواع

الأسلحة . وفى جوانبها ضروب من آلات العذاب كالقيود والأغلال وحول جدرانها مقاعد من الحجر المنحوت فى ذلك الصـخر ، فوقها أغطية من جلود الدب والأسد .. ولم يكن فى تلك الحجرة حينذاك أحد غير الشيخ دبوس ، رآه جالساً فى صدر الحجرة على جانب من أحد المقاعد ، وعليه جبة تكسوه كله ، وعلى رأسـه عمامة خضراء كبيرة فألقى التحية وقال : « لعلى فى حضرة الشيخ دبوس ؟ »

فأشار الشيخ برأسـه أن : « نعم .. » وأومأ اليه أن يتقـدم ويعطيه الكتاب ففعل ، فتناوله وفضه وقرأه . ولما فرغ من قراءته أومأ الى عمـاد الدين أن يجلس وهو يقول : « ان ولدنا عبـد الرحيم يوصينا بك خيرا .. تفضل يا عبد الجبار اجلس »

فجلس على طرف المقعـد ، وهو ينتظر مايكون ، فقـال له دبوس : « يقول لنا عبد الرحيم انك تطلب نعمة القربى من شيخنا وامامنا راشد الدين »

قال عماد الدين : « نعم ياسيدى ، فهل هذا ميسور لى ؟ »

فأطرق يفكر ، ثم قال : « انه ميسور .. بشروط »

قال عماد الدين : « وما هى يا سيدى ؟ »

قال الشيخ دبوس : « اعلم يا عبد الجبار انك قبل كل شىء ينبغى أن تنقى قلبك وتصفى نيتك وتستسلم الى هـذا الأمر بكليتك .. فهل تفعل ذلك ؟ »

قال عماد الدين : « نعم .. »

قال الشيخ دبوس :« احذر أن تخدع نفسك فانى لا أستطيع أن أعرف خفايا قلبك ، ولكن المولى الشيخ الأكبر لا تخفى عليه خافيــة .. انه فاحص القلوب ، اذا نظر فى عينيك عرف مكنونات قلبك . فاذا كنت فى شك من نيتك واستسلامك ، فارجع من هنا ولا تعرض نفسك للخطر .. انى أنصح لك بناء على ما قرأته فى كتاب التوصية من الثنــاء على شجاعتك وصداقتك .. وأما اذا كنت قد أوتيت النعمة وألهمت الانتظام فى هذا السلك والحصول على العهد فقد ضمنت لنفسك الدنيا والآخرة .. وأنا تاركك يوما كاملا تستشير فيه ضميرك وتخبرنى بما يستقر عليه رأيك »

فوقع كلام الشيخ من نفسه وقعا شديدا ، وغلب عليه التردد وقام فى اعتقاده صدق ما سمعه عن شــيخ الجبل من استطلاع خفايا القلوب .. ولكنه تجلد وأظهر الثبات فى عزمه وقال : « انى على ما قلت .. وسأصبر يوما آخر ، حسب أمرك ، وأجيبك »

فهز الشيخ دبوس رأسه استحسانا ، وقال له : « اذن اخلع ما عليك من السلاح .. وهات ما عندك من الأدوات أو النقود أو غيرها .. تلك عادتنا فى مثل هذه الحال ، ولا يخامرك شك فيما أفعل فان هذه الأشياء تبقى عندى باسمك »

فعظم عليه هذا الطلب ، وعنده الجواهر .. وقد شق عليه أن يفارق خنجره ويبقى أعزل ، فتوقف حينا ولم يجب ..

فقال له دبوس : « اعلم يابنى أن طالب الحصول على عهد مولانا الشيخ لابد له من الاستسلام لكل ما يؤمر به بلا تردد . وقد خيرتك فى الدخول أو عدمه عملا بتوصية عبد الرحيم ، لأنه ذو مقام عندنا .. فاذا رأيت العدول عن عزمك رددنا أشياءك اليك»

فلم ير بدا من الطاعة لأنه لم يوفق الى دفاع ، فمد يده وأخرج خنجره من منطقته ودفعه اليه . ثم أخرج ما كان عنده من الجواهر أو النقود ودفع كل ذلك الى دبوس ، وقد أحس بالخوف من الخديعة .. لكنه اطمأن نوعا حين رأى الشيخ يبش له وقد وضع أشياءه كلها فى منديل وأخفاه فى حفرة بأسفل المقعد . وأومأ اليه أن يخرج الى غرفة أخرى يستريح فيها .. فخرج ، وقاده أحد الحراس الى حجرة خلا فيها بنفسه وأخذ يفكر فيما سمعه ، وتحقق من الخطر الذى أوقع نفسه فيه ، وأصبح لا يعرف ماذا يعمل .. هل يعدل عن مهمته بعد أن وعد صلاح الدين بها ، أو يعرض نفسه للخطر بالدخول . وتذكر ما سمعه من صديقه عبد الرحيم عن كرامات راشد الدين وماهو شائع من هيبته واقتداره ، فوقع فى حيرة لأن رجوعه عنها يحط من قدره عند صلاح الدين وعند حبيبته أو على الأقل ينحط قدره عند نفسه ، فانها لا تطاوعه على الجبن .. ودخوله يعرضه للقتل أو لخيانة صلاح الدين

وكان يفكر فى ذلك ، وهو يمشى فى تلك الحجرة .. وليس فيها شىء من الأثاث سوى حصير وبساط قديم ، فأطل من نافذة

صغيرة فأشرف على ما يحيط بجبل مصياف من المستنقعات والسهول والروابي والأودية الى مسافة بعيدة . واستغرق فى أفكاره حتى نسى موقفه .. ثم أجفل لأنه سمع وقع خطوات وراءه ، فالتفت فرأى رجلا كالخادم أتاه بالطعام ودعاه الى الأكل وخرج . فأشار عماد الدين شاكرا ، وعاد الى تفكيره ونفسه لا تطلب الطعام لفرط اهتمامه وقلقه . وحانت منه التفاتة وهو يجيل بصره فى ذلك الفضاء الى سور عال يحيط بواد لا يظهر منه غير السور ، فظنه قلعة أو حصنا يلجأ اليه الاسماعيليون عند الاضطرار

– ٥٦ –

المعجزة

وعاد الى هواجسه ، وهى تتعاظم وتتكاثف ، حتى ضاق صدره من كثرة التردد .. وهو الى تلك الساعة لم يذق طعاما ، فأحس بالجوع ، فتحوّل نحو الطعام الذى أتوه به ، وكان يتألف من بعض الفاكهة ، وشىء من الخبز واللحم .. فمد يده الى الرغيف وكأن شيئا أرجعها عنه ، وخطر له سوء الظن فقال فى نفسه : « قد يكون هذا الطعام مسموما » ثم تذكر صديقه عبد الرحيم وتوصيته لدبوس فغلب عليه حسن الظن ، وأكل ما يسد رمقه مقتصرا على الفاكهة لانها أبعد مايكون عن التسميم

وبينما كان يأكل ، سمع ضوضاء فى الساحة .. فنهض ونظر من الباب ، فرأى جماعة من أهـل القلعـة وفيهم الحراس والجنود يتهامسون ويتضاحكون والبشر ظاهر فى وجوههم .. فخشى أن يكون لذلك علاقة بوجوده هناك ، أو ربما كان عليه خطـر .. فأصاخ بسمعه واذا هم يتكلمون لغـات مختلفـة ، لأن رجال الاسماعيلية أخلاط من أمم شتى ، وفيهم العربى ، والتركى ، والفارسى ، والكردى ، والشركسى ، يتكلمون كل هذه اللغات .. وانما تغلب اللغة العربية على ألسنتهم

وبعد التصنت واعمال الفكرة ، سمعهم يذكرون السلطان نور الدين ، وكأنهم يذكرون موته .. فغالط سمعه ولم يعبأ به ، لأنه فارق السلطان منذ يومين بصحة تامة ورآه عائدا من الميدان على جواده كالأسد . واعتقـد انهم يشيعون ذلك رغبـة فى اجتماع كلمتهم .. وبينما هو يفكر فى ذلك ، جاءه رسول من الشيخ دبوس يدعوه اليه فأسرع فى أثره الى مجلس دبوس ، فرآه جالسا فى صدر الغرفة وبين يديه جماعة من الأمراء بملابس متشابهة وعلى رءوسهم العمائم ، تشبه عمامة دبوس .. فغلب على اعتقاده أنهم من رجاله وكلهم مستبشرون ضاحكون

فلما وقف عماد الدين أمامهم خاطبه دبوس قائلا : « هل أنت قادم من بيت المقدس ؟ »

قال عماد الدين : « نعم .. »

قال دبوس : « ألم تجعل طريقك على دمشق ؟ »

قال عماد الدين : « بلى .. »

قال دبوس : « كيف كان سلطانها الأتابك نور الدين .. هل شاهدته ؟ »

قال عماد الدين : « نعم شاهدته على جواده عائدا من الميدان نحو الظهر »

قال دبوس : « ومتى كان ذلك ؟ »

فأطرق عماد الدين ، وهو يحسب الوقت ، ثم قال : « منذ يومين وبعض اليوم »

قال دبوس : « لكنه مات فى هذا الصباح .. رحمه الله »

فأجفل وبانت البغتة فى وجهه وقال : « مات ؟.. هل أنتم على ثقة من ذلك ؟.. لا أظن الخبر صادقا .. ثم كيف يموت فى هـذا الصباح ويصل خبره الى هنا الآن وبيننا وبين دمشق أكثر من يومين ؟ »

فضحك دبوس ضحكة استخفاف ، وضحك الجالسون معه وهم يتلفتون بعضهم الى بعض ، ثم قال دبوس : « لا لوم عليك يابنى وأنت لا تعرف مصدر هذا الخبر .. انه لم يأتنا بالبريد ، وانما هو وحى هبـط على مولانا الامام الشيخ الأكبر نفعنـا الله ببركته وكراماته — كذلك فعل يوم مات الامام العاضد بمصر فقد جاءه علمه فى يوم موته — ومصر أبعد من دمشق . وكذلك خبر المؤامرة

التى قتــل فيها عمارة وأصــحابه » ثم نظر الى الجالسين كأنه يستشهد بهم ، فبدت على وجوههم أمارات التأكيد لما يقول

فدهش عماد الدين ، ومع ذلك ظل يظن أن فى الأمر خداعا للايهام ، وان نور الدين لم يمت ، وقال فى نفسه : « اذا ثبت موته بورود المرســوم من دمشــق على جارى العادة ، فلابد أن لهذا الشيخ شأنا عظيما »

ولاحظ الشيخ دبوس تردده ودهشته فقال له : « لا تستغرب ما تسمعه يابنى ، انك اذا تمت النعمة عليك ووقفت الى الدخول فى طريقتنا رأيت أعجب من ذلك .. ان مولانا الشيخ الأكبر يخاطب الحجارة فتجيبه ، حتى الميت اذا كلمه أجابه فى الحال » والتفت الى القوم وقال : « وأزيدكم بيانا ان مولانا الشيخ ــ حفظه الله ــ أخبرنى عن سبب موت هذا السلطان .. قال انه توفى بعلة الخوانيق » ثم حول نظره الى عماد الدين وقال : « ونحن ممهلوك الى الغد ريثما يأتى المرسوم اذا شئت »

فوقع عماد الدين فى حيرة عظيمة مما سمعه ، وأحس أنه يوشك أن يعتقد بكرامات راشد الدين .. لكنه تمهل حتى يصل المرسوم ، وعظم أمر هذا الشيخ فى نفسه . فقال له دبوس : « تفضل يابنى الى غرفتك حتى يستقر رأيك .. وانما قد دعوتك لعلمى أنك قادم من دمشق ، لعلك علمت شيئا من مقدمات موت نور الدين .. ولتعلم أيضا أن صديقك عبد الرحيم أخلص النصح لك . أتم الله

نعمته عليك وعليه ، لأنه هو أيضا مرشح للارتقاء فى هذه النعمة اذ ينال المجتهد فيها نصيبه .. هذا كلام لا تفهمه الآن ، ولـكن سوف تفهمه .. تفضل .. » وأشار اليه أن ينصرف

فعاد الى غرفته وهو كالغائب عن الرشد لايعرف كيف يعلل ما يشاهده من الغرائب التى تثير الدهشة وقرر فى نفسه اذا صحت النبوءة عن موت نور الدين أن يلتمس الانضمام الى تلك الجماعة بغير تردد .. وود لو كان صديقه عبد الرحيم هناك ليستفهم منه عن بعض ما أشكل عليه ويستزيده بيانا

— ٥٧ —

عبد الرحيم

بات عماد الدين تلك الليلة ، وقد توالت عليه الأحلام .. وأفاق فى الصباح على نقر باب حجرته ، فذعر وجلس حالا .. فاذا بصديقه عبد الرحيم واقف بين يديه ، فأحس عند رؤيته بارتياح عظيم ، وقد خف قلقه واطمأن باله .. كأنه لقى أباه أو أخاه ، واستأنس به كثيرا ، فأكب عليه وعانقه وأوشك الدمع يتساقط من عينيه لشدة التأثر

فعانقه عبد الرحيم ، وهو يبتسم ، وقال له : « يظهر من تلهفك للقائى انك كنت فى ضيق »

قال عماد الدين : « لم آكن فى ضيق ، ولكننى متردد فى أمور لا أرى لى حلا لها الا على يدك .. وأشعر أنك أخى أو أبى ، وأود أن ألقى اثقالى عليك ، وهناك اشياء احب ان استشيرك فيها »

فهشّ له عبد الرحيم مطمئنا .. فأشار اليه عبد الجبار قائلا : « اجلس .. من أين أنت آت ؟.. »

فجلس وهو يقول : « انى آت من عند الشيخ دبوس وقد قص على ما أعجبــه من ذكائك وشـجاعتك ، وانه تلطف فى معاملتك .. وأمهلك حتى تفكر فى أمرك »

قال عماد الدين : « نعم .. وهذا ما أحب أن أستفهم منــك عنه .. أدهشنى أمر لم أستطع تفسيره »

قال عبد الرحيم : « وما هو ؟.. »

قال عماد الدين : « أخبرنى الشيخ دبوس فى ظهر أمس أن السلطان نور الدين صاحب دمشق مات فى الصباح . وأنا رأيته بعينى قبل ذلك بيومين راكبا على جواده سليما معافى والصحة تتجلى فى وجهه بعــد أن قضى يومه مع سائر رجال دولتــه فى السباق »

فقال عبد الرحيم : « هذا كله صحيح .. نعم انه عاد من ذلك الميدان صحيحا معافى ، لكنه لم يصل الى القلعة حتى أحس بألم فى حلقه ظهر بالفحص انه الخوانيق »

فأطرق عماد الدين وقد بانت الدهشة فى عينيه ، وهان عليه

أن يتصور اصابة نور الدين بالخوانيق على أثر رؤيته اياه على جواده فقال : « يظهر أن المرض جاءه شديدا ، فلم يمهله طويلا .. لكن اذا فرضنا وقوع ذلك فعلا ومات نور الدين صباحا فكيف وصل الخبر الى هنا قبل الظهر ؟ »

فضحك عبد الرحيم وقال : « ان ذلك يا عبد الجبار من كرامات مولانا الشيخ الأكبر ، نفعنا الله ببركته . ألم أقل لك شيئا من ذلك ونحن فى بيت المقدس ؟ انه طالما أنبأنا بالأخبار حال وقوعها ، ولو كان بيننا وبين مصدرها مسافة أيام ، وليست هذه أعجب كراماته كما سترى .. وهل تظن أن سطوته وقوة نفوذه لا أساس لهما ؟ كيف يخضع له الألوف من الناس وفيهم العقلاء والحكماء ان لم يروا فيه ما يستحق ذلك ؟ أتعلم أن أتباعه اليوم يزيدون على ستين ألفا من نخبة الناس ، وفيهم الشجعان والأبطال والقواد وكل واحد منهم طوع ارادته يبذل نفسه فى طاعته .. أتظن أن ذلك يحدث عفوا بغير استحقاق ؟ »

فقال عماد الدين : « أنت تشير علىّ اذن أن أبقى على عزمى .. »

قال عبد الرحيم : « هذه نصيحتى لك »

قال عماد الدين : « انهم أخذوا منى نقودى وسلاحى »

قال عبد الرحيم : « لا خوف عليها .. فاذا رجعت عن هذا الأمر فأنا أضمن ارجاعها اليك .. ولا أظنك راجعا عنه ولا سيما

بعد أن ترى الشيخ الأكبر نفسه وتسمع أقواله وتختبر كراماته .. انها كثيرة انما .. » وسكت كأنه أراد أن يقول شيئاً وندم عليه

فقال عماد الدين : « أراك تتردد فى نصحى .. »

قال عبد الرحيم : « معاذ الله يا أخى .. أنت تعلم أننا تحاببنا وتصادقنا لغير غرض سوى تقارب القلوب . ولما كانت جماعتنا هذه تضم خيرة الشجعان وذوى البسالة ، رأيتك أهلا للانتظام فى سلكها .. وسوف تحمد لى نصحى ، لكننى أتردد فى أمر أحببت أن أبوح به لك تخفيفا من قلقك .. لكنه محظور علىَّ . فسكت »

قال عماد الدين : « اذا أطلعتنى على شىء يخفف قلقى ضاعفت فضلك ، ولا يعلم به أحد .. أعاهدك على ذلك »

قال وهو يخفض صوته : « متى رضيت بالانضمام ، فانهم يمتحنونك بأشياء لا يصبر عليها الا الشجاع ثابت الجأش وأنت كذلك .. لكننى أحببت أن أزيدك اطمئنانا أن مايظهر لك من تلك التجارب خطرا أو مستحيلا ليس هو فى الحقيقة الا ظاهرة لا طائل تحتها .. وانما يراد بها امتحان شجاعة الطالب ، فمهما طلب منك أن تعمله فاعمله ولا تخف .. لا أستطيع أن أفصح لك أكثر من ذلك .. »

فقال عماد الدين : « يمتحنون شجاعتى ؟ فليمتحنوا .. لا أبالى وأنت تعلم ذلك ، ولكننى أحب أن أعرف شيئا آخر . هل تطلعنى على حقيقته ؟ »

قال عبد الرحيم : « قل ما تريد .. لعلى أستطيع »

قال عماد الدين : « كل ما أعرفه من أمر هـذه الطائفة أن زعيمها راشد الدين رجل حكيم ذو كرامات ، وان أتباعه يطيعونه طاعة عمياء ، ويبذلون أنفسهم فى طاعته . لكننى لا أعلم ما يناله أولئك الأتباع من المكافأة .. وهل هم درجة واحدة أو درجات ؟ فقد رأيت بعضهم كالخدم أو الجند وآخرين كالأمراء ، وهـذا دبوس كالملك .. فما هو نظام هذه الطائفة أو الدولة ؟ .. انهـا غريبة فى بابها .. »

قال عبد الرحيم : « صدقت .. ان نظامها غريب لم ينسج على منواله ، ولا بأس من أن أقص عليك خبر هذا النظام باختصار . اعلم يا عبد الجبار أن جماعتنا هذه التى أرعبت العالم بتدبيرها وبسالة شبانها مؤلفة من طبقتين : الفدائيين والمستنيرين ، وفوقهما الزعماء وأصحاب الأسرار الحقيقية . وأول ما ينضم الاسماعيلى الى الطائفة يكون فدائيا .. فاذا استحق الرقى صار مستنيرا . وأنا لا أزال الى اليوم من الفدائيين (الفداوية) .. »

فقطع عبد الجبار كلامه قائلا : « اذا دخلت أنا غدا أكون مثلك ؟ »

قال عبد الرحيم : « نعم .. لكننى الآن مرشح لنيـل العهد فأصير مستنيرا عن قريب .. لأن مهمتى التى ذهبت بها الى بيت المقدس كانت آخر تجربة فى سبيل الترقى .. وقد جئت الى هنا

لكى أتقبل السر الجديد فى طبقة المستنيرين »

قال عماد الدين : « بماذا استحققت هذا الترقى ؟ »

قال عبد الرحيم : « استحققته بصدق الخدمة فى مصلحة الجماعة ، وبذل النفس فى سبيل الطاعة .. ولابد لكل فدائى أن يفعل ذلك قبل أن يصير مستنيرا . وأما أنت فأرجو أن يكون ترقيك قريبا لأنك أهل لذلك بما فطرت عليه من المروءة وعلو الهمة . وليس بين طلاب الانتظام كثيرون مثلك ، ولذلك فاننى أرجو أن ترتقى سريعا »

فأطرق عماد الدين (أو عبد الجبار) حينا يفكر فى أمره وفى حقيقة مهمته ، وما خلفه وراءه فى مصر من البواعث التى تقضى بسرعة عودته ، ولاسيما سيدة الملك .. فانها أصبحت منذ رجوع رسوله من عندها لا تبرح من باله ، لكنه اطمأن عليها وهى فى كنف صلاح الدين . ولاحظ عبد الرحيم تفكيره فقال له : « لا حاجة الى التردد .. ان دخولك فى هذا السلك أصبح أمرا مقضيا ، ولا بأس عليك منه .. لكننى أحب أن تؤخره الى مجىء المرسوم من دمشق بموت السلطان نور الدين ، وتتأكد من كرامة امامنا راشد الدين قبل الدخول فى طاعته .. »

فخجل عماد الدين عند سماعه ذلك لأنه كان يفكر فيه ويخشى أن يقوله لئلا يدل على ضعف الثقة ، فبادر الى الجواب قائلا : « انى واثق مما سمعته رغم غرابته عندى »

قال عبد الرحيم : « ليس هو غريبا وسترى ما هو أعظم منه . والآن استرح وكن مطمئنا ، فانك اذا عدلت عن الانضمام لا يصيبك أذى .. ومولانا الشيخ الأكبر لا يقبل كل من يطلب الانضمام ، واذا شئت أن تتحقق من قولى فتعال معى لأريك جماعة من أولئك الطلاب » قال ذلك ونهض .. فتبعه عماد الدين والدهشة غالبة على عقله

فسار فى طريق ضيق فى شعب ذلك الجبل الى ساحة سمعا فيها الضوضاء قبل أن يصلوها .. فوقفا ، وأصاخ عماد الدين بسمعه ، فسمع عربدة وغوغاء بلغات مختلفة ونغمات متفاوتة . ثم مشى به حتى أطل من وراء حائط على بقعة ازدحم فيها الرجال جماعات بين جلوس يتسامرون ، أو وقوف يتخاصمون ، وأكثرهم فى حال الخشونة .. تدل ملامحهم وثيابهم على الوحشية . فقال عبد الرحيم : « أنظر يا أخى .. هؤلاء هم طلاب الانضمام ، وأنت ترى الوحشية والعربدة وسفك الدماء فى ملامحهم . وقد اشتهرت جماعتنا هذه بالفتك ، فكل من يهون عليه قتل الأبرياء ويضيق به الرزق يأتى الينا .. ولكن غرضنا أسمى من ذلك على ما أظن ، وان كنت حتى هذه الساعة لم أطلع على الغرض الحقيقى .. فهؤلاء يعدون بالعشرات كما ترى .. وهم هنا منذ أيام ، لم يحفل الشيخ دبوس بهم ولا أظنه سوف يجيب سوى طلب القليلين منهم .. أما أنت فقد لمس امتيازك عنهم ، ولهذا السبب أرجو أن لا يبطىء فى

ترقيتك الى طبقة المستنيرين »

وبينما هما فى ذلك ، رأيا رجلا كرديا من أولئك وقف وبيده جمجمة صب فيها خمرا وتمايل عجبا ، ثم شربها وهو يزدرى برفاقه ويفاخرهم ببسالته وخشونته .. فغضب واحد من رفاقه الأتراك ، فهزأ به ولطم تلك الجمجمة بظهر يده فرماها وتناثر ما كان فيها من الخمر على الأرض ، فضحك الرفاق وقهقهوا وقد أعجبهم عمل ذلك التركى .. فلم يصبر الكردى على تلك الاهانة ، فاستل خنجره وطعن التركى طعنة قضت عليه . فهمَّ الآخرون أن ينتقموا له ، فصاح بهم عبد الرحيم وأوقفهم وهددهم .. وأشار الى أحد الحرس أن يقبض على القاتل ، فمهل ريثما يرفع أمره الى الشيخ الأعظم

— ٥٨ —

راشد الدين

ولم يزدد عماد الدين بذلك الا دهشة مما رآه وسمعه .. فرجع الى حجرته ، وذهب عبد الرحيم لشأنه .. وأتاه فى اليوم التالى وقد جاء المرسوم من صاحب الشام بوفاة نور الدين بالخانوق فى الوقت الذى رواه شيخ الجبل . وقرأه الشيخ دبوس على مسمع من الاسماعيلية . فقر قرار عماد الدين على الانضمام فى ذلك

السلك .. ولا بد له من ذلك للقيام بالمهمة التى جاء من أجلها ، وقد تعهد أمام صلاح الدين بقتل راشد الدين .. وربما علمت سيدة الملك بعزمه فكيف يعود بخفى حنين ؟ على ان ما شاهده من مقام الرجل وكراماته جعل مهمته شاقة ، لكنه صمم على القيام بها .. وكان يتردد فى الانضمام .. لعل تنفيذ المهمة يكون أيسر وهو خارج تلك الفئة ، فلم ير له بدا من الانضمام ليستطيع أن يتقرب من ذلك الشيخ الامام ، ويغرس خنجره فيه

وفى اليوم التالى أصبح عماد الدين وهو على موعد من الدخول على الشيخ الأكبر لينضم الى جماعة الفدائيين . وكان كلما فكر فى ذلك اختلج قلبه فى صدره . وبعد قليل جاءه صديقه عبد الرحيم وهو يهش له تشجيعا ، وطمأنه ، فقال عماد الدين : « هل أذهب الآن الى الشيخ الأكبر أم الى الشيخ دبوس ؟ »

قال عبد الرحيم : « لابد من الذهاب الى الشيخ الأكبر بواسطة الشيخ دبوس ، فهل أنت متأهب لذلك »

قال عماد الدين : « نعم .. » وأكبر أن يظهر الوجل فقال عبد الرحيم : « هلم بنا الى الشيخ دبوس »

فمشيا حتى دخلا عليه وأطلعه عبد الرحيم على الغرض . فوجّه كلامه الى عماد الدين قائلا : « هل أنت مصمم يا عبد الجبار على الانضمام الينا ؟ »

قال عماد الدين : « نعم ياسيدى .. »

فأمره أن ينزع ثيابه التى عليه ويرتدى ثوبا أبيض كالقميص الكبير ، دفعه اليه .. فلبسه فغطاه الى عقبيه ، ثم أمره فنزع عمامته وحل شعره وكان طويلا فأرسله على كتفيه . وأشار عبد الرحيم اليه أن يتقدم الى الشيخ دبوس ويقبّل يده ففعل . ثم أومأ اليه أن يتبعــه فمشى فى دهاليز وطــرقات والحرس وقوف فى جوانبها بالحراب حتى أطل على رواق يؤدى الى باب كبير ، عليه ستارة وبجانبيه حارسان عظيما الهامة كأنهما من الجان . فلما اقترب عبد الرحيم منهما أومأ اليهما بالاشارة (لأنهما أخرسان) أن يأذنا له بالدخول وهما يعرفانه ، فأذنا له واستبقيا عبد الجبار خارجا . فوقف وهو مطرق يتردد بين الندم والعزيمة .. واذا بصديقه قد عاد وقال له : « ان الشيخ مشتغل بمحاكمة الكردى القاتل، لكنه أذن لنا بالدخول »

ومشى فتبعه عماد الدين ، فدخلا قاعة مظلمة فى صدرها مقعد كبير قد جلس عليه الشيخ الأكبر ، والى جانبيه رجال من خاصته جلوس ، وقد غطوا وجوههم .. وليس بينهم مكشــوف الوجه سوى راشد الدين . ولم يستطع عماد الدين أن يتعرف الوجوه هناك الا بعد قليل ريثما تعود نظره الظلمة .. فرأى ذلك الكردى واقفا وهو موثق اليدين . وفى وسط القاعة جثة القتيل ملطخة بالدماء . فأشار عبد الرحيم الى عماد الدين بأن يقف معه فى ناحية ففعل ، وأخذ يتفرس فى راشد الدين فاذا هو مكسو برداء أسود

يغطيه كله الا وجهه ، وقد بانت الشيخوخة فى ذلك الوجه بتجعده وبياض لحيته ، لكن عينيه تبرقان كالسراجين يكاد الشرر يتطاير منهما . وما لبث أن صاح راشد الدين بذلك الكردى قائلا : « أتجسر يا هذا أن تقتل نفسا فى جوارنا ؟.. »

فصاح الرجل : « انى لم أقتله ياموlaiَ .. وانما هم يتهموننى زورا »

قال راشد الدين : « وتكذب أيضا ؟ .. هل تحسب أن ذلك ينطلى علينا .. ألا تعلم أننا نفحص القلوب ونعرف أسرارها ؟ »

فعاد الرجل الى الانكار ، وقال : « انهم يتهموننى يا سيدى زورا .. اذا شئت أن آتى بالشهود ، أو أقسم لك ببراءتى فعلت »

قال راشد الدين : « لا حاجة بنا الى شهود أو قسم ، أنا أسأل هذا القتيل وهو ينبئنى بالحقيقة .. »

فلما قال ذلك أجفل عماد الدين ، ونظر فرأى راشد الدين قد وقف وانتصب كالصنم ، ثم خطا خطوة نحو القتيل ، وصاح به وهو يشير اليه بأصبعه كأنه يهدده : « ألم يقتلك هذا الكردى ؟ قل .. »

وكان السكوت مستوليا على الحاضرين وقلوبهم تخفق تطلعا الى ما يكون ، فسمعوا القتيل يقول بصوت ضعيف : « بلى .. هو قتلنى »

فسأله ثانيا : « بماذا قتلك ؟.. »

فأجاب : « قتلني بخنجره .. »

فلما سمع عماد الدين ذلك اقشعر بدنه .. كيف لا ، وقد سمع الميت يتكلم وهو على ثقة من تلك الحادثة لأنه رآها بنفسه . أما راشد الدين فرجع الى مقعده ، وأشار الى بعض الوقوف بين يديه من رجاله بأن يذهبوا بالرجل الى السجن وأن يدفنوا القتيل ففعلوا . وقد استولت الدهشة على الحاضرين ، ولا سيما عماد الدين ..

وبعد قليل أشار راشد الدين الى الوقوف في مجلسه بالانصراف ، ولم يبق سوى بعض خاصته الملثمين .. وأومأ الى عبد الرحيم أن يقدم عبد الجبار ، فقاده بيده حتى أوقفه بين يديه .. فوقف وركبتاه ترتعدان من التهيب وقد عظم أمر راشد الدين في خاطره

فوجه هذا كلامه الى عماد الدين قائلا : « وأنت ياعبد الجبار أرجو أن تصدقنا ولا تفعل كما فعل هذا الكردي .. أنت كردي أيضا ، لكني أقرأ في وجهك الصدق .. هل تطلب الانضمام الى رجالنا ؟ »

قال عماد الدين : « نعم ياسيدي .. »

قال راشد الدين : « وهل تعلم ما أنت مقدم عليه من الأمر العظيم ؟ »

قال عماد الدين : « نعم .. »

قال راشد الدين : « لا تخدع نفسك .. اذا كنت مترددا أو

خائفـا فارجع من حيث أتيت .. ونحن انمـا نطلب أهل بسالة وصدق . وهل تعرف الخطر الذى يحدق بك ؟ »

قال عماد الدين : « نعم .. »

فتنحنح وقال : « وما الذى حملك على هذا الأمر ؟ »

قال عماد الدين : « أن أتشرف بخدمة مولانا الشيخ الأعظم »

قال راشد الدين : « من أين أتيت ؟ »

قال عماد الدين : « من بيت المقدس » وخاف أن يسأله عن حقيقة غرضه ، فيكشف أمره ويتعرض لخطر الموت .. فارتعدت فرائصه ، لكنه تجلد وصبر

فقال له راشد الدين : « أنا أعلم انك قادم من بيت المقدس الآن ، ولكننى أحب أن تخبرنى عن المكان الذى جئت منه قبل بيت المقدس .. »

فتحير فى الجواب وسكت وهو يفكر فى هل يصدقه ، أم لا .. وخشى أن تكون كرامة راشد الدين قد دلته على حقيقة الغرض الذى جاء من أجله ، فتلعثم لسانه .. فلم يصبر راشد الدين عليه فقال : « يظهر أنك خائف .. لا تخف يابنى .. انك شاب شهم ولست من طبقة أولئك الزعانف الجهلاء .. أنا لا أكلفك أن تقول شيئا وانما أسأل شعرة من شعرك وهى تنبئنى » وأشار الى عبد الرحيم أن يأتيه بشعرة من ذؤابة عماد الدين ، فجاءه بها فتناولها بين السبابة والابهـام وجعل يخـاطب الشعرة قائلا :

« يا شعرة عبد الجبار قولى لى : أين كان صاحبك حينذاك ؟ .. ومن هو ؟ »

فقـالت : « كان عند يوسف صـلاح الدين وهو من رجال خاصته »

فلما سمع عماد الدين ذلك أوشك أن يسقط على الأرض من الارتعاد وأطرق لا يحير جوابا ، وخشى أن يواصل الأسئلة فيطلع على سر قدومه الى هناك .. مرت عليه دقيقتان هما أطول من سنة . ثم رأى أن راشد الدين قد تنهد عند سماع اسم صلاح الدين ورمى الشعرة من يده وقال : « صلاح الدين يوسف ؟.. أطال الله بقاءه »

فاستغرب عماد الدين قوله وانتعشت آماله ، لكنه ظل ساكتا . فقال راشد الدين : « كيف فارقت صلاح الدين ؟ .. هل هو بصحة وسلامة ؟ »

قال عماد الدين : « نعم ياسيدى .. »

قال راشد الدين : « الحمد لله على ذلك .. » ولاحظ عمـاد الدين تغيرا فى وجه راشد الدين لم يفهم سببه .. لكنه ظل خائفا من افتضاح أمره حتى سمع راشد الدين يخاطبه قائلا : « احمد الله على سلامة صلاح الدين .. والآن هل أنت مصمم على الانضمام الى رجالنا ؟ »

فقال عماد الدين : « نعم يامولاى .. »

قال راشد الدين : « هل تعلم ماذا يطلب منك ؟ »

قال عماد الدين : « كلا .. لكنى طوع أمر مولانا بما يريد »

فابتسم راشد الدين ابتسامة لم تغير شيئا من انقباض سحنته وقال : « أعجبنى جوابك يا عبد الجبار . وأنت اذا أتيح لك أن تكون من رجالنا كسبت الدنيا والآخرة .. لكن ذلك ليس بالأمر الهين .. » قال ذلك ووقف وأشار اليه أن يتبعه فتبعه وهو يسترق النظر الى عبد الرحيم استئناسا برأيه ولو بالاشارة . فرآه يشجعه ويطمئنه .. حتى وصل راشد الدين الى جانب من جوانب تلك القاعة الواسعة المظلمة ، فوقف وقال لعماد الدين : « أنظر هنا » وأومأ بأصبعه الى حفرة بين يديه

فنظر فاذا هو على شفا هـوّة لا قرار لها . فقال له : « اذا كنت صادقا فيما تقول ، فالق بنفسك فى هذه الهوة »

فأعاد النظر اليها فلم يشك انه اذا أطاعه قتل لا محالة . فالتفت الى عبد الرحيم خلسة ، فاذا هو يشجعه ويشير اليه بعينيه أن يخطو .. وهو واثق بصدق صديقه ، لكنه خشى أن يكون فى الأمر دسيسة ، وان راشد الدين اطلع على حقيقة مهمته فأراد الانتقام منه على هذه الصورة . على انه تذكر ما نبهه اليه عبد الرحيم من قبل وهو لم يتعود الخوف أو التردد ، فسبقت قدمه الى الوثوب نحو فوهة تلك الهوة مدفوعا بوعده وشجاعته .. فاذا هو قد تلقته عارضة برزت وغطت تلك الفوهة ، وفتحت فوهة أخرى

فى المكان الذى كان واقفا عليه .. فلم يصدق انه لايزال حيا

أما راشـد الدين فأمسكه بيده وهو يقول : « الآن تأكدت من صدقك .. ولو لم تصدقنى لقتلت لأن فوهة الهوة تحولت الى موقفك الأول » وأشـار اليه أن يتحول نحو القاعة وهو يقول : « استحققت النعمة التى تطلبهـا .. انك منذ الآن من أبنـائى الصالحين »

وعاد راشد الدين الى مجلسه ، وأشار الى واحد من الخدم بالوقوف بين يديه ، وأن يأتيه بقدح .. فأتاه به ، فتناوله وصب فيه سائلا من اناء بجانبه وقال : « هذا ماء الحياة وطريق النعيم اذا كنت صادقا ، وهو سم قاتل اذا كنت كاذبا . فاذا كنت على وعدك بالطاعة وصدق النية فاشربه »

فتناوله وتردد لحظة وهو ينظر الى صديقه عبد الرحيم فرآه يشجعه ، فشرب ما فى القدح وأومأ اليـه الشيخ أن يجلس .. فجلس ، وأحس بعد قليل بأنه يفقد وعيه شيئا فشيئا .. ثم غاب عن رشده

— ٥٩ —

نعيم الحشاشين

ولا تسل عن دهشته حين أفاق من غيبوبته ، وفتح عينيه .. فقد رأى نفسه فى حديقة كالجنة بما يصفونها به ، من جرى الأنهار ،

وتعانق الأشجار ، وتجاوب الأطيار من صادح وسابح . وأول ما نبهه من نومه نسيم مرَّ على وجهه ويد لمست جبينه . فنظر فاذا هى يد غادة أو حورية كأنها البدر عليها ثوب يغطيها ، لكنه لا يكسوها لشفافته .. بينماها مروحة من ريش النعام تروح له بها . وقد وضعت يسراها على جبينه كأنها تمسح عرقه .. فظن نفسه لأول وهلة فى حلم ، وخشى اذا نهض أن يحرم من تلك المناظر البديعة ، فصبر قليلا .. فاذا بتلك الحورية تخاطبه بصوت رخيم قائلة : « انهض يا حبيبى .. الى متى الرقاد ؟ »

فنهض ونظر الى نفسه ، فرأى عليه ثوبا يشبه أثواب الأمراء لم ير على السلطان صلاح الدين أحسن منه . وعلى رأسه عمامة من نسيج مزركش بالقصب . وقد جلس على بساط من أجمل أبسطة عصره عليه الصور المنسوجة بالذهب .. قضى برهة وقد أخذته الدهشة ينظر تارة لنفسه ، وطورا لتلك الحورية ، وآونة لما بين يديه أو لما يقع عليه بصره من الأشجار والأزهار وما يسمعه من خرير الماء وتجاوب الأطيار وما يفوح به من الروائح العطرية مما لم ير مثله ولا خطر بباله

وبينما هو يفكر فى ذلك ، اذ تقدمت اليه تلك المرأة وقد أزاحت نقابها عن رأسها وأرسلت شعرها الذهبى على كتفيها وهى تنظر الى عماد الدين بعينين تكادان تنطقان بعبارات الحب وتشكيان لواعج الغرام .. على انه تجلد ونظر اليها وصبر لما يبدو منها ،

فمدت يدها للمصافحة فناولها يده وهو لايزال يحسب نفسه فى رؤيا ، فقبضت على أنامله وهى تقول : « ما بالك يا عبد الجبار ؟ ألا تزال تحسب نفسك فى حلم ؟ أنسيت أنك شربت ماء الحياة من يد مولانا الشيخ الأكبر ؟ انك فى الجنة الآن التى لا يدخلها الا المستحقون ! »

فتذكر القدح الذى شربه من يد راشـد الدين ، فغلب على اعتقاده صدق دعوى ذلك الرجل ، وانه فى الواقع انتقل الى الجنة بأنهارها وأشجارها وأطيـارها ، وان هـذه المرأة حورية من حواريها . ثم تذكر سيدة الملك فأجفل ، وقال فى نفسه : « ما لهذه المرأة تهم بقلبى لتختطفه وهو ليس لى .. ؟ » فتباعد عنها فتباعدت وظهر العتاب فى وجهها ، وتحـوّلت عنه ثم غابت عن عينيه

فتركهـا ومشى على أرض مكسـوة بالعشب الأخضر الملون كالبساط المزركش ، وقد فاحت منه الروائح المنعشة .. فوقع بصره عن بعد على قناة يجرى فيها الماء لامعا كأنه الزلال ، وعلى ضفتيها أشجار الفاكهة وقد وقعت أشعة الشمس من خلال الأغصان على ذلك الماء ، وهو يجرى .. فتلون بألوان قوس قزح ، فدنا من تلك القناة ووقف على ضفتها ينظر الى الأشعة الواقعة على الحصى فى قاعها كيف تتكسر وتتلون .. وبينما هو فى ذلك ، اذ رأى فى الجانب الآخر حورية برزت من بين الأشجار ومشت نحوه وهى تبتسم له .. فسـرّه أن بينه وبينها قناة تحول دون وصولها اليه ، وتوقع

أن تقف على الضفة الأخرى وتخاطبه .. فاذا هى قد تجاوزت الضفة ، وظلت تمشى نحوه فوق سطح الماء ، ولم تبتل قدماها

وتعاظمت دهشته حين رآها قد وصلت اليه ، وقدماها العاريتان تتنقلان فوق سطح الماء الجارى .. لا تقع فيه ولا تعكره أو تعيق سيره .. فتحقق لديه انه فى مكان غير الأرض،وان أولئك الحوارى من الملائكة . وصلت تلك الحورية اليه والهواء يعبث بشعرها ويلاعب أطراف ردائها . وبسطت يدها نحوه كأنها تستقبله وهو يحارب هواه ويتذكر سيدة الملك وحبها اياه ويهم بالابتعاد . فرأى فى وجه تلك الحورية شيئا يشبه ملامح حبيبته ، فذعر وتفرس فيها جيدا .. وحدثته نفسه أن تكون هى بعينها ، وأن مجيئها الى تلك الجنة من جملة معجزات راشد الدين . فوقف ريثما وصلت الحورية اليه ، ومدت يدها نحوه .. فمد يده وتصافحا وهو يتفرس فى وجهها ، فكانت كلما دنت منه بعدت المشابهة بينها وبين سيدة الملك .. لكنه استأنس بها وأحب أن يحدثها عما يراه ، فلما دنت منه فاحت رائحة الطيب من ثوبها .. فوضعت يدها على كتفه ، فاقشعر بدنه ، فقال لها : « من أنت يا هذه ؟ .. وأين أنا ؟ »

قالت : « ألا تعرف أين أنت ، انك فى جنة شيخ الجبل مولانا الامام الأكبر »

قال عماد الدين : « وهذا مقر أتباعه أجمعين ؟ »

قالت الحورية : « نعم .. ولكن لايمكث فيها الا من أحسن البلاء فى طاعته »

وأمسكت بيده ومشت ، فمشى .. وأومأت اليه أن يتبعها فوق تلك القناة ، فتردد برهة فجذبته من يده وهى تقول : « لا تخف .. امش » فمشى فاذا هو يخطو على شىء صلب يفصل بين قدميه وبين الماء .. فظن أن الماء قد جمد تحت قدميه ، ووصل الى الجانب الآخر ، وسار مع الفتاة وهو شديد الشك فى حقيقة ما يراه .. فلما سمع قولها ، قال : « فأنا باق هنا ؟ »

قالت : « أنت حديث العهد .. وانما جئت لترى ما أعده المولى لأتباعه ومريديه اذا نفذوا أوامره .. وعسى أن تكون من المستحقين »

فعلم انه هناك الى أجل ، ولا يلبث أن يعود .. فمشى لترويح النفس وعيناه تتنقلان بين الأشجار والرياحين ، ويرى الأطيار تتنافر بين أيدى تلك الحورية وفيها الكراكى ، والطواويس بألوانها الجميلة . والبلابل والحساسين تتجاوب بالتغريد أو الزقزقة . والفتاة تناديها فتأتيها وتقع على كتفها أو على يدها ، وتنتقل كما تأمرها كأنها تفهم لغتها

ثم سمع عماد الدين زئيرا علم انه زئير الأسد ، وكان قد سمعه مرارا فأجفل وقال : « أليس هذا زئير الأسد ؟ »

قالت : « بلى .. وهل خفت منه ؟ ان الأسود لا تؤذى أهل هذه

الدار » ومشت حتى دنت من مربض الأسد تحت شجرة . فاذا هو مقع وعيناه تبرقان ، ولم يتحرك من مكانه .. فتقدمت الفتاة اليه ومدت يدها الى رأسه وعبثت بشعره كما تعبث بشعر الهر ، وهو ساكن ، فاستغرب عماد الدين ذلك أيضا

وعاد الى التمشى ، فوقع نظره فى أحد جوانب الحديقة على غرف مستقلة تغطيها الأزهار والأغصان ، فسألها عنها فقالت : « هذه مساكن الذين استحقوا البقاء هنا يتمتعون بالملذات والنعيم لا يعكر عليهم ذلك أحد »

وبعد المسير برهة بين صعود وهبوط ، وقفت به الفتاة عند حائط وقالت له : « انظر الى هنا »

فنظر من كوة الحائط التى تشرف على واد أجرد لا شىء فيه من الماء ولا الخضرة .. فأجفل لما رآه هناك من الثعابين والوحوش المفترسة تسرح بين جماجم البشر فقال لها : « أظن أن هذه هى الجحيم »

قالت : « نعم .. هذه هى .. فلو لم تطع الشيخ الامام لكنت فى عداد المغضوب عليهم هنا »

ولم يشأ أن يقف هناك طويلا .. فتحول وعادت معه حوريته وهى تلاطفه وتقطف من الثمار وتعطيه وهو كالتائه فى أفكاره لا يدرى ماذا يرى .. واذا هو يسمع صوتا اهتزت له جوارحه ، وجمد الدم فى عروقه لأنه صوت سيدة الملك كأنها تستغيث به ..



« ومشت حتى دنت من مربض الاسد تحت شجرة .. فاذا هو مقع وعيناه تبرقان ، فتقدمت الفتاة اليه ، ومدت يدها الى رأسه وعبثت بشعره كما تعبث بشعر الهر .. »

فأخذ يتلفت يمينا وشمالا وهو يحسبها على مقربة منه والحورية تنظر اليه بدهشة قائلة : « ما بالك ؟ .. ما الذى أوقفك ؟ »

قال عماد الدين : « ألا تسمعين شيئا ؟ »

قالت : « كلا .. ماذا تسمع ؟ »

فأطرق وهو مصيخ بسمعه ، فلم يعد يسمع شيئا .. فترجح عنده انه مخطىء ، وانما سمع ما سمعه لفرط تفكيره فى سيدة الملك ، فأتت روحها لزيارته ، أو هو صوتها جاء للسلام .. لكنه لم يطمئن لهذا الرأى ، والصوت الذى وصل اليه صوت استغاثة .. فهل هى فى شدة ؟ فاذا كانت كذلك ، فما أجدره أن يسعى الى نجدتها

وكان قد شعر براحة لتلك الحورية لطول رفقتها وكثرة ما بذلته فى سبيل استرضائه واجتذاب قلبه ، وهو شاب فى مقتبل العمر .. فغلب على اعتقاده أنه فى جنة أو مكان يشبه الجنة انتقل اليه بكرامة أو معجزة من معجزات راشد الدين .. وأوشك أن يشتغل عن سيدة الملك .. فلما سمع ذلك الصوت توهَّم أنه صوت ضميره للثبات فى حب حبيبته فلا يشتغل عنها بسواها ، فأحس بانقباض وود الخروج من ذلك النعيم

وبينما هو يفكر فى ذلك ، لايلتفت يمينا أو شمالا ، اذ سمع وقع خطوات غير خطوات رفيقته ، فالتفت فرأى غلاما كالبدر طلعة وبهاء ، قد تمنطق بمنطقة من الخز .. أرسل قسما منها الى

الامام كالمئزر وأرسل شعره ضفائر ذهبية ، وعليه ثوب سماوى اللون . فلما دنا من عماد الدين ، انحنى انحناء الاحترام .. وقال بصوت رخيم : « ألا يتفضل المولى لتناول الغداء ؟ .. »

فالتفت الى رفيقته كأنه يستزيدها بيانا ، فابتسمت له قائلة : « تفضل يامولاى الى الطعام .. فقد آن وقت الغداء »

وكان فى شغل عن الطعام ، فلما ذكر له أحس بالجوع . فمشى فى طرقة مســواة كأنها فرشت بالزعفران يحف بها من الجانبين سيــاج من الأزهار الجميلة ينتهى فى آخره بباب كباب القصر الفخم .. وقبل الوصول الى الباب ، فاحت روائح الطعام الشهى مما لم يعرف مثله الا فى قصور الفاطميين فى أثناء الأعياد . ولما اقتربوا من ذلك الباب فتح على الفور ، وتقدم غلامان آخران يرحبان بالقادم ، ومشيا بين يديه من باب الى باب حتى وصل غرفة المائدة ، وهو يلتفت الى الجانبين وقد أدهشه ما على جدران الدهليز من الستائر المصورة تمثل البساتين والقصور ومواقف البذخ والرخاء ، تلفت النظر وتجتذب القلب . وأما غرفة المائدة فقد ذهبت برشده وأوقفته موقف الحيرة ، ونسى مــكانه لأن جدرانها الأربعــة مكسوة بالمرايا على طول الحــائط .. فيظهر الشخص الواحد عشرات من المرات من كل جانب .. ولم يكن ذلك مألوفا يومئذ ، فدبره راشد الدين فى جملة ما يجتذب به القلوب

فتقدمت الفتاة وأشارت الى عماد الدين أن يتفضل فجلس على مقعد مغشى بالديباج المزركش ، وبين يديه مائدة مكسوة بملاءة من الحرير الوردى ، ولم تمض دقائق قليلة حتى تواردت الأطباق وعليها الألوان من اللحوم والفاكهة . وجلست تلك الحورية بجانب عماد الدين وهى تلاطفه وتقدم له اللقمة بعد اللقمة وتبالغ فى اكرامه .. والغلمان وقوف بين أيديهما لتلقى الأوامر ، فعاد عماد الدين الى نسيان سيدة الملك ، وقد سحرته تلك الفتاة بجمالها ولطفها .. ولاسيما بعد أن دارت الأقداح وفيها الخمور اللذيذة ، فأصبح لا يفكر فى غير تلك الساعة .. وقام فى ذهنه أنه فى النعيم حقا ..

ولما رأت تلك الفتاة ميله ورضاءه أخذت فى الاعراض عنه ، وهو يزداد شغفا .. وقد زادته الخمور اندفاعا حتى أصبح يتزلف اليها ويغازلها وهى تتمنع ، فلما تحققت من افتتانه بها قالت : « لا تخرج عن حدك ، فأنت انما جئت الى هنا على سبيل التجربة . وليس الوصول الى ما تطمع فيه سهلا .. ان من دونه بذل النفس فى طاعة الامام الأكبر »

فشق عليه هذا الاعراض ، لكنه زاد افتتانا وقال : « قد كنت منذ برهة تقربين وأنا أبتعد .. فهل كنت تخادعينني ؟ »

قالت : « كلا .. ولكن لابد أن تأتى عملا يؤهلك الى المقام فى هذا النعيم دائما ، وعند ذلك أكون طوع ارادتك .. واذا

خاطبت الأطيار أجابتك ، وتجد النعيم الحقيقى فى كل شىء .. وليس ماتراه الا مثالا صغيرا من ذلك النعيم ، فعسى أن تعمل عملا يؤهلك لهذا الجوار .. والحق يقال أنى فتنت بجمالك وبسالتك وأشعر نحوك بما لم أشعر به من قبل نحو أحد . ولكننى لاأستطيع أن آتى أمرا يخالف رضى مولانا ، ولا أستطيع أن أخفى عنه شيئا لأنه فاحص القلوب يطلع على خفايا السرائر ، ولكننى تأكيدا لعلاقات المودة بيننا أدهن شعرك بطيب خاص بى » قالت ذلك وأخرجت حقا من بين أثوابها ، ثم فتحته ففاحت منه رائحة لم يشم مثلها فى حياته .. فأخذت بعض الطيب ودهنت به يديه وشعره ، فلذ له ذلك وطابت نفسه . ثم قالت : « احفظ هذه الرائحة تذكارا بيننا حتى نلتقى اللقاء الدائم ان شاء الله » وظهرت دلائل الاعجاب فى عينيها ، فازداد هو تهيبا من ذلك الشيخ العجيب فسكت

وبعد الفراغ من الطعام والشراب أحس عماد الدين بميل الى النوم ، فتوسد فراشا من الحرير المحشو بريش النعام وتلك الحورية الى جانبه تداعبه وتعرض عنه ، ولم تمض دقائق قليلة حتى غلب عليه النوم

- ٦٠ -

سر عجيب

وأفاق فى اليوم التالى فاذا هو فى قاعة راشد الدين كما كان من قبل ، وعليه الثوب الأبيض ، وشعره محلول .. فجعل يتلفت يمينا وشمالا وينظر فى ثوبه ، فتبادر الى ذهنه لأول وهلة أنه رأى حلما . ثم مالبث أن شم رائحة الطيب فى شعره ويديه ، فلم يبق عنده شك انه رأى ما رآه حقيقة . وانتبه بعد قليل لنفسه فرأى راشد الدين جالسا كما تركه ، ورأى صديقه عبد الرحيم بجانبه .. فهشّ له وضمّه الى صدره فقال له عبد الرحيم : « ان رائحة الجنة تنبعث من شعرك .. هنيئا لك وعسى أن يتاح لك النعيم الدائم . قم واجث عند قدمى مولانا ، وقبّل ركبتيه ، وادع بطول بقائه »

فنهض وترامى على قدمى الشيخ عن اعتقاد صحيح بكرامته . وقبّل فمنعه ودفع اليه يده فقبّلها ، ثم قال له الشيخ : « أنت الآن من أبنائنا الفدائيين ، ويلوح لى أنك لا تلبث أن ترتقى الى مصاف المستنيرين . قم الى غرفتك وقد أوصيت الشيخ دبوس بك خيرا . ولكننى أحب قبل خروجك أن أزودك بعهد منى » قال ذلك ونهض وأنهض عماد الدين معه وهو يحدق فى عينيه ، وعماد الدين يشعر بقوة تنبعث من عينى ذلك الرجل .. توشك أن تغلبه

على أمره .. وقد قبض الشيخ على يدى عماد الدين بيديه بقوة ومكث كذلك عدة دقائق ثم صاح به : « افتح فمك » ففتحه فتفل فيه وقال : « كن فدائيا مطيعا » وتركه وأشار الى عبد الرحيم أن يذهب به الى غرفته

فمشيا الى غرفة الشيخ دبوس وهما صامتان ، وقد استولت الدهشة على عماد الدين وأصبح كالمأخوذ أو من أصابه السحر . فلما وصلا الى الشيخ دبوس ، بدل عماد الدين ثيابه ، وهنأه دبوس بما ناله من رضى الشيخ الأكبر .. وأعاد اليه خنجره ونقوده وجواهره ، وأصبح واحدا منهم

على انه حالما عاد من دار النعيم الى دار الشقاء عاد الى ذكرى صلاح الدين وسيدة الملك ، فأصبح همه أن يخلو بعبد الرحيم ليسأله سؤالا شغل خاطره بالأمس . وهو قول راشد الدين : « أطال الله بقاء صلاح الدين » فانه لم يستطع تعليله وهو يعلم أنه تعمد قتله مرارا

أما عبد الرحيم ، فانه استأذن صديقه عبد الجبار فى الغياب تلك الليلة التى تحددت لترقيته الى درجة المستنيرين .. فبات عبد الجبار على أحرّ من الجمر ، وقد تراكمت عليه الهواجس وأخذته الغرائب .. وكلما تضوعت رائحة الطيب من شعره ، تذكر تلك الفتاة وما لاقاه هناك من أسباب السعادة

نام تلك الليلة نوما متقطعا .. وحينما طلع النهار ، اذا بصديقه

عبد الرحيم جاءه والبشر يتجلى فى عينيه .. فنهض عبد الجبار وقبّله وقال : « لقد أصبحت منذ الآن أرقى منى ولا يحق لى أن أناديك : أخى .. كما كنت أفعل »

فضحك عبد الرحيم وقال : « ان صداقتنا أمتن من ذلك كثيرا ، كنا غريبين وتحابينا ونحن الآن أخوان من عهد واحد . ولا تلبث أنت أن ترتقى الى مثل رتبتى .. أتمنى لك ذلك قريبا .. بل أنا أتوقعه عن ثقة »

ولم يكن ذلك الشرف يهمه ، وانما كان يهمه أن يستطلع رأى راشد الدين فى صلاح الدين ، فاذا علم أنه لايزال ينوى قتله عاد الى مهمته الأولى .. وأما اذا تحقق من صدق دعائه بطول العمر، كان له رأى آخر فقال : « أما أنا فلا أتوقع قرب الترقى كما تظن .. ويكفينى أن تكون لى صديقا .. ولا أحب أن أحملك ثقل صداقتى لشىء أطمع فيه على يدك .. وانما أرجو أن تفسر لى كلاما قد سمعته من الشيخ الأكبر بالأمس ، فوقع عندى موقع الاستغراب ولم أصدقه ، ولعلك شعرت مثل شعورى .. »

فقال عبد الرحيم : « أظنك تعنى قوله : أطال الله بقاء صلاح الدين ؟ »

قال عماد الدين : « نعم .. هذا الذى أعنى .. كيف ترى ؟.. ألا تستغرب قوله ؟ وهل هو يعنى ما يقوله حقيقة ؟ وأنا أعلم انه بعث أناسا لقتل صلاح الدين غير مرة ، فكيف يفعل ذلك وهو

يطلب بقاءه ؟ هذا هو الأمر الذى أحب تفسيره »

فابتسم عبد الرحيم وهو ينظر الى عماد الدين ويهم بالكلام ثم يمسك نفسه .. فلما رآه عماد الدين يتردد قال له : « اذا كنت تعرف الحقيقة أرجو أن تخبرنى بها لأن ذلك يهمنى كما تعلم . ولعلك من أعلم الناس بأمرى مع هذا السلطان »

فاعتدل عبد الرحيم فى مجلسه ، وأظهر الاهتمام وقال : « اعلم ياصديقى عماد الدين ان عبارة الشيخ الامام التى ذكرتها كانت مغلقة علىّ الى مساء الأمس .. فلما صرت من المستنيرين أصبحت فى جملة ما عرفته . وليست هى سرا اؤتمنت عليه مثل سائر أسرار هذه العشيرة ، لكننى اطلعت عليه عرضا ولذلك لا يمنعنى الواجب ولا الخوف من أن أجيبك على سؤالك »

فتطاول عمـاد الدين بعنقـه ، وقال : « قل بالله .. هل يريد الشيخ الأكبر حقيقة أن يطول بقاء مولاى صلاح الدين ؟ »

قال عبد الرحيم : « نعم .. انه يتمنى ذلك من كل قلبه ، وهو يطلبه ليل نهار »

قال عماد الدين : « يا للعجب .. كيف يبعث من يقتله ثم هو يدعو بطول بقائه ؟ »

قال عبد الرحيم : « لعلك تعنى ما حدث لصلاح الدين قبيل خروجك من مصر ، اذ نهض فى الصباح فوجد الخنجر فوق رأسه ورسالة التهديد بجانبه »

قال عماد الدين : « نعم .. هذا ما أعنيه »

قال عبد الرحيم : « هذا دليل على رغبة الشيخ الأكبر فى طول بقاء صلاح الدين ، ولولا ذلك لأمر الفدائى الذى تمكن من الدخول عليه حتى غرس الخنجر فى وسادته عند رأسه أن يغرسه فى صدره ، ولم يكن ثمة ما يمنعه .. ولكنه أمره بأن يكتفى بالتهديد مع رغبته فى بقائه حيا »

فاستغرب عماد الدين ذلك وقال : « لكننى لم أفهم الباعث على تلك الرغبة ، وهذا شيخنا — حفظه الله — قد اشتهر بفتكه بالملوك والسلاطين .. ولم يبق فيهم من لا يخشاه ، حتى صلاح الدين نفسه .. فكيف يحب بقاءهم أحياء و .. »

فقطع كلامه قائلا : « لا .. لا .. انه لا يلتمس طول البقاء لأحد من هؤلاء غير صلاح الدين »

فقال عماد الدين : « ولماذا ؟.. أرجو أن تفصح لى »

قال عبد الرحيم : « السبب يا أخى أن شيخنا — أيده الله — علم بالوحى انه سوف يموت فى نفس السنة التى يموت فيها السلطان صلاح الدين ، فمن مات منهما قبل صاحبه لابد للثانى أن يتبعه فى تلك السنة .. فهو لذلك حريص على حياة صلاح الدين حرصه على حياته هو .. وهل عندك شك فى صدق هذا الشيخ العظيم ؟ لقد رأيت من معجزاته ما يكفى ، وان كان قليلا من كثير »

فأطرق عماد الدين وأخذ يفكر فيما سمعه .. وهو مصدق لما قاله راشد الدين بعد ما شاهده بنفسه ، فاعتقد بموت الرجلين فى سنة واحدة .. فأصبح من مصلحة صلاح الدين أن يطول عمر راشد الدين .. فتحولت مهمته الى المحافظة على حياة هذا الرجل لا قتله (١) واعتبر مهمته قد انقضت ، وأصبح يميل الى الخروج من ذلك الحصن والاسراع الى صلاح الدين لينقل اليه تلك البشرى ويرى حبيبتــه ســيدة الملك . واعترضت أفكاره رائحة الطيب ومناظر تلك الجنة ، لكن الحقيقة تغلبت على الوهم واشتد ميله الى الخروج .. ولم يكن ثمة سبيل الى ذلك الا أن يرسله راشد الدين فى مهمة لقتل أحد الملوك أو الأمراء ، فالتفت الى صديقه عبد الرحيم والامتنان باد فى وجهه وقال : « لا أنسى صداقتك ياعبد الرحيم انى أشعر بصدق مودتك شعورا يكاد يلمس باليد . ولذلك كانت ثقتى بك عظيمة .. فلا ينبغى لى أن أخفى عنك شيئا ، فهل تأذن لى أن استغل هذه الثقة ؟ »

قال عبد الرحيم : « قل ما بدا لك .. »

قال عماد الدين : « لاحاجة بى الى بيان الأسباب التى تلجئنى الى سرعة الخروج من هذا الحصن ، فأنت تعلم علاقتى بمصر لذلك أرجو أن تساعدنى على ذلك »

قال عبد الرحيم : « خروجك لايتم الا اذا دبروا لك مهمة

---

(١) فى التاريخ أن صلاح الدين وراشدالدين توفيا سنة ٥٨٩ هـ (١١٩٢ م)

تذهب فى انفاذها لقتل كبير من الكبراء »

قال عماد الدين : « فليكن ذلك ، وأنا فاعل ما يأمرون به »

قال عبد الرحيم : « امهلنى يوما أو يومين لأغتنم فرصة تساعدنى على ذلك .. »

قال عماد الدين : « انى فى انتظار تحقيق وعدك .. بارك الله فيك »

قال عبد الرحيم : « واسمح لى بالذهاب الآن ، فان علىّ واجبات تتعلق برتبتى الجديدة لابد من انجازها .. وسأعود اليك بما أوفق اليه »

قال عماد الدين : « أشكرك يا أخى »

ونهض عبد الرحيم وانصرف ...

- ٦١ -

الشكوك والقلق

لما خلا عماد الدين بنفسه بعد ما انتابه من الأهوال وما مرّ به من الغرائب ، أخذ يفكر فيما رآه وسمعه فلم يزدد الا استغرابا ، وراجع ما كان يسمعه عن تدجيل ذلك الزعيم فأخذ اعتقاده بكراماته يضعف ، ولكنه لم يستطع تعليل ما شاهده من المعجزات تعليلا معقولا .. كيف يطلع على الوقائع قبل وصول

أخبارها وكيف يكلم الميت فيجيبه ، والشعرة فتطلعه على السر ؟ وهذه الجنة بما فيها من الطيبـات والحور اللواتى يمشين على سطح المـاء فلا يتعكر ، ويخاطبن الأطيـار فتطيعهن ، ويلاعبن الأسود فلا تؤذيهن . فاذا تمثلت له هذه الظواهر لم ير مندوحة عن الاعتقاد بكرامة الشيخ راشد الدين

وتعب من التفكير ، فخطر له أن يتمشى فى ذلك الحصن .. ولم يبق ثمة ما يمنعه لأنه أصبح من أهله . فنهض ومشى فرأى أرض الحصن وما يحيط به خلوا من النبات الا ما بين ذلك الجبل من السهول البعيدة ، فتذكر ما شاهده بالأمس من أمثال النعيم من الأشجار والأنهار ، فمال الى معرفة حقيقته ، وأين يمكن أن يكون، فصعد الى بعض المرتفعات لعله يشرف منها على تلك الحديقة ، فلم يوفق الى شيء من ذلك .. لكن نظره وقع ــ وهو يجيل بصره فى السهل الذى نزل فيه يوم وصوله الى هناك ــ على ركب لم يستطع أن يتبين وجوههم لبعد المسافة . ولما اقتربوا وجدهم ملثمين وهم بضعة فرسان فى ركابهم جماعة من المشاة كالخدم . فلم يهمــه أمرهم ، وعاد الى التفكير فيما هو فيه من الهواجس التماسا لسرعة الخروج من هناك

وحدثته نفسه أن يفر ، فوجد ذلك مستحيلا عليه الا بالتعرض للخطر الشديد .. وهو فى غنى عن ذلك اذا استعان بصديقه عبد الرحيم ، ولا شك عنده فى انه لايدخر وسعا فى سبيل انقاذه

وأعاد نظره الى ذلك الركب ، فرآهم قد دنوا من الجبل حتى حجبهم سفحه عن عينيــه .. فترجح لديه انهم من ذلك الجبل أو النازلين فى جــواره .. وأحس بالجــوع ، فتحــوّل الى مجتمع الفدائيين فتناول الطعام معهم .. ولم يجد بينهم من يبلغ مبلغه من علو النفس ورقة الاحساس ، فازداد رغبة فى الخروج من هناك .. ولبث ينتظر عودة عبد الرحيم وهو على مثل الجمر

قضى ذلك اليوم ، واليوم التالى .. ولم ير عبد الرحيم ، فاشتغل خاطره ، ولم يعرف سبب تخلفه . وزاد بلباله حين لاحظ غيــاب الشيخ دبوس أيضا عن غرفته فى أثناء ذينك اليومين . وبلغه انه فى شغل شاغل مع الشيخ الأكبر للمباحثة فى أمور هامة حدثت بعد مجيء أناس وصــلوا بالأمس . فتــذكر الركب الذين رآهم قادمين أول البارحة ، فمال الى استطلاع حقيقتهم .. فلم ينبئه بالحقيقة أحد ، لأن هذه الأخبار لا يطلع عليها الا الخاصة من المستنيرين .. فرأى أن يتريث حتى يأتى صديقه عبد الرحيم .. فلما استبطأه استفهم من بعض الرفاق عنه ، فقيل له انه مع نخبة المستنيرين فى شاغل عند الشيخ الأكبر

فازداد شوقا الى الاستطلاع ، لكنه لم ير بدا من الانتظار ، ومضى نصف اليوم الرابع ولم يره .. فضاق ذرعا وأخذ الملل منه مأخذا عظيما ، وهــمّ بالبحث عنه .. فاذا هو قادم نحوه فاستقبله استقبال الظمآن للماء . فأكب عليه عبد الرحيم وقبّله وأخذ يعتذر

عن تأخره وقال : « اعذرني يا أخي .. كنت فى شاغل لم يكن فى الحسبان ، وكلما عزمت على المجيء اليك يحدث شاغل جديد »

قال عماد الدين : « نسيت قلقى واضطرابى عند رؤيتك . وأشعر أنى أسبب لك تعبا .. لا بأس ، يمكنك أن تتخلص من هذه المتاعب بتدبير مهمة أخرج بها من هذا الحصن .. هل وقفت الى شيء من ذلك ؟ »

قال وهو يضحك للمداعبة : « وقفت الى نصف الطلب فقط »

قال عماد الدين : « كيف ذلك ؟ »

قال عبد الرحيم : « أنت تطلب أمرا بالخروج من هذا الحصن لقتل أحد الأمراء .. وقد استصدرت لك أمرا بقتل أحد الأمراء ، ولكن بغير خروج من هذا الحصن »

فاستغرب عماد الدين قوله ، وحمله على المزاح فقال : « بالله صارحنى بالحقيقة .. ألم توفق الى شيء بعد ؟ »

قال عبد الرحيم : « اننى أقول لك الحق .. لقد صـدر أمر الشيخ الأكبر لك بأن تفتك بأمير يقيم فى هذا الحصن .. »

ورأى الجد فى عينى عبد الرحيم ، فانقبضت نفسه لأن رغبته كانت فى الخروج .. وليست فى الفتك والقتل ، فقال : « افصح يا أخى فانك أزعجتنى بهذه البشـارة .. وأنت تعلم انى أطلب الخروج قبل القتل »

قال عبد الرحيم : « أعلم ذلك ، ولكن ما الحيلة وقد صدر أمر

الشيخ .. وهى ثقة كبرى فيك لأن المهمة التى سيعهد بها اليك شاقة . وهى ستكون السبب فى تعجيل ارتقائك ، وقدرأيت مولانا الشيخ كثير الرغبة فى ذلك »

فأطرق عماد الدين ، وأعمل فكرته فيما سمعه ، ولم يجد فيه حيلة .. فقال : « هل أعتبر كلامك هذا بلاغا لى ؟ »

قال عبد الرحيم : « كلا .. سوف يستقدمك الشيخ الامام نفسه ويبث فيك روح العزيمة والثبات ويأمرك بما يريد . أما أنا فأخاطبك مخاطبة الصديق سرا لعلمى انك فى قلق »

فقطع كلامه وقال : « اسمح لى يا أخى أن أقول لك انك زدتنى بهذا الخبر قلقا »

قال عبد الرحيم : « ستحمد عاقبة هذا القلق يا عبد الجبار ..» وابتسم كأنه يكتم سرا لايريد أن يبوح به

فقال عمـاد الدين : « لم أفهم مرادك .. بالله ألا خففت بعض ما بى ولو بالتلميح .. أنا أعلم فضيلة المحافظة على السر ، ولاأطلب منك أن تبوح بسر مقدس أؤتمنت عليه ، لكننى أرجو تخفيف قلقى ببعض الشىء . قل لى من هو الأمير أو الكبير الذى سيعهد الىّ بقتله وهو مقيم هنا ؟ انى لا أعرف كبراء هذا الحصن »

قال عبد الرحيم : « هو ليس من كبرائنا ، وانما هو طارق جاءنا منذ يومين »

ففطن عماد الدين للركب الذين رآهم قادمين فى ذلك الســهل

فقال : « رأيت ركبا قادما الى هذا الجبل منذ بضعة أيام فلعله كان أحدهم ؟ »

قال عبد الرحيم : « نعم .. لقد جاء فى ركب .. اعلم أنى أسر اليك أمرا خطيرا .. » وخفض صوته

فقال عماد الدين : « علمت ذلك ، ولكننى أستغرب قدوم هذا العدو ليلقى حياته بين يدى عدوه .. وهو يعلم قدرته على قتله »

قال عبد الرحيم : « ليس هو عدوا للشيخ بل هو من أصدقائه وأخص أخصائه .. افترقا وهما صغيران قبل أن تصير المشيخة الى مولانا راشد الدين . ولعلك تعلم ان مولانا هذا قبل أن صارت اليه الامامة كان يقيم فى مكان اسمه عقر السدن ، وخدم شيخ الاسماعيلية فى الأموات بالديلم وتفقه على يده بالعلم والدين ، ثم انتقل الى سوريا ونزل فى حلب وأخذ يعظ ويعلّم ، واشتهر بالتقوى فتقاطر اليه النـاس أفواجا . وكان يجلس على صخر ويعظهم وهو جامد كالصخر . وانما سحر النـاس ببيانه فكثر أصحابه ومريدوه . وكان شيخ الاسماعيلية يومئذ رجلا اسـمه أبو محمد خاف منه على منصبه .. فبعث اليه من يقتله فاختفى فى كهف قرب حلب ، وظل مختفيا حتى ضعف أمر أبى محمد فخلفه وانتقل الى هذا المكان .. هذه خلاصة سيرة مولانا ، فضيف اليوم من أعز أصدقائه الذين جاهدوا فى نصرته ورافقه الى الكهف ثم

شغل عنه بالأسفار . وعاد الآن بمهمة لا أعلم ماهى ، فلاقاه مولانا أحسن لقاء واختلى به غير مرة .. ولست أدرى ماذا دار بينهما ، لكن الشائع بين رجالنا أن مولانا فرح به كثيرا وانه من أعز أصدقائه . ومع ذلك فانه بعث الىّ بالأمس سرا ، وأخبرنى عن تقديره لبسالتك حق قدرها ، وسألنى اذا كنت تليق بمهمة خطيرة.. فأكدت له أنك تستطيع ذلك ، وأنك راغب فى مهمة تعهد اليك . ولم أكن أحسبه يجعلها داخل هذا الحصن .. فرأيته قد أبدى اهتماما كبيرا ووضع فىّ ثقة كبرى وأسرّ الى بأنه يجب أن يتخلص من هذا الصديق القديم على يدك . ولا يخفى عليك أنها ثقة عظيمة فيك وأنت لم تنتظم فى سلك الفدائيين الا منذ بضعة أيام »

وكان عماد الدين فى أثناء حديث عبد الرحيم مصغيا يفكر فى دهاء هذا الطاغية ، وكيف انه عمد الى الفتك بصديق قديم له لأنه رأى بقاءه حجر عثرة فى طريقه .. فضعف اعتقاده بكرامته لأنه لايعرف ولاية أو كرامة تأمر بخيانة الأصدقاء . وأخذ ظنه يتغير فيه .. وأصبح يخاف منه على نفسه ، اذ قد يتوهم ضررا يأتيه على يده فيأمر بقتله ، لكنه أحب السكوت عن هذا الخاطر .. ولم يجسر على التصريح به فقال : « فى الحقيقة انها ثقة عظيمة فى كلينا ، ولكن هل أنت واثق أن الرجل المشار اليه كان من أصدقاء مولانا الشيخ ؟ »

قال عبد الرحيم : « انى على ثقة تامة من ذلك ، ولا ريب عندى فى ذلك مطلقا ، وأعلم أشياء كثيرة تؤيد ذلك لا أستطيع أن أقولها لك الآن .. ولكنك ستعلمها فى حينها . وقد يخطر لك أن تنتقد عمل مولانا الشيخ لأنه عمد الى قتل صديقه ، ولكنك ستحمد عمله بعد حين .. فالآن .. »

فقطع كلامه قائلا : « ربما كان مصيبا بعمله من حيث دفاعه عن سلطته فاعذره عليه .. لكننى أصبحت منذ الآن أخشى على حياتى وحياتك » قال ذلك مصرحا بما فى ضميره ، برغم ما قد يعرضه ذلك للخطر

ووافق ذلك التصريح هوى من نفس عبد الرحيم ، فابتسم وقال : « لا ألومك على هذا الشك لأنه خطر لى أيضا .. وثمة أمور ظهرت لى بعد انتظامى فى سلك المستنيرين ربما سنحت الفرصة ببيانها ، وأما الآن فالمطلوب أن تعلم المهمة التى ستعهد اليك فلا تتردد فى قبولها وسترى انى ناصح لك .. لا يلبث أن يأتيك رسول الشيخ يدعوك اليه .. أنا ذاهب الآن وسنلتقى بعدئذ » قال ذلك وانصرف

- ٦٢ -

الشيخ سليمان

ومكث عماد الدين على مثل الجمر وهو يردد ما سمعه عن راشد الدين ، وقد تغلبت عليه الشكوك فى كراماته .. لكنه ظل يستعظم امكانياته .. وبينما هو فى ذلك ، اذ جاءه خادم للشيخ اصم أبكم مثل سائر خدمه .. وانما يقتنى الصم البكم للخدمة لئلا يفهموا شيئا مما يدور بينه وبين رجاله . فهم يحملون الأوامر بالاشارة . فلما جاء ذلك الأبكم يطلبه مشى فى أثره حتى دخل به على راشد الدين ، وهو فى غرفة صغيرة ليس فيها سواه . وقد تخفف بعمامة صغيرة وجعل يتمشى ذهابا وايابا ، ويداه وراء ظهره وفيه عرج قليل

فلما وقع نظر عماد الدين عليه تهيب ووقف وقفة الاحترام . فأشار راشد الدين الى الحارس أن ينصرف .. وأغلق الباب وراءه، ولم يبق عنده الا عماد الدين .. فناداه اليه فمشى ، فابتسم راشد الدين وقال له : « انظر فى عينى »

فنظر فاذا هما تلمعان .. ويكاد الشرر يتطاير منهما

فقال راشد الدين : « ماذا ترى فيهما ؟ »

فاستغرب سؤاله وقال : « لا أرى فيهما شيئا يا مولاى غير النور والذكاء »

قال راشد الدين : « أما أنا فأرى فى عينيك أشياء كثيرة .. انى أقرأ فيهما ما يكنه ضميرك »

فخشى عماد الدين أن يطلع راشد الدين على ما خامره من الشكوك فيه ، فقال : « لا غرابة فى ذلك .. فقد تحققناه من قبل »

قال راشد الدين : « ويسرنى أنى تحققت من صدق طاعتك واخلاصك ، ولذلك رأيت أن أسرع فى مكافأتك وهذا لا يكون الا بمهمة تقضيها . ورغبة فى التعجيل جعلت ذلك قريبا فى هذا الحصن .. فهمت ؟ »

قال عماد الدين : « انى طوع أمرك يامولاى »

قال راشد الدين : « ان فى هذا البيت المنفرد داخل سور هذا الحصن أميرا كبيرا ينبغى أن يذهب من هذا العالم بلا ضوضاء ولا شكوى ، وأن يكون ذلك على يدك .. فما رأيك ؟ »

فانحنى انحناء الطاعة وقال : « وهل للعبد رأى بين يدى مولاه ؟ انما يأمره فيفعل »

فقبض على أنامل عماد الدين بكفيه وأمره أن ينظر فى عينيه ثم قال له : « أريد يا عبد الجبار أن تقتل الشيخ سليمان اللعين .. وتخمد أنفاسه .. هكذا أريد .. »

فأحس عماد الدين عند سماع ذلك ، بالنغمة المفزعة التى صدرت عنه ، بقشعريرة جرت فى عروقه .. وكأن شرارة كهربائية تطايرت أمام بصره ، فأغمض جفنيه رغم ارادته . فقال راشد الدين : «قد

أحسنت يا عبد الجبار .. انك فاعل ما أريد وسوف تنال جزاء أماناتك .. واعلم أنك منذ الآن خادم لسليمان أو الشيخ سليمان كما يسمونه ، تقضى له حاجاته .. فالبس ملابس الخدم وغيِّر قيافتك ، وابذل جهدك فى ارضائه حتى تغتنم منه فرصة تقتله فيها ، ولا يشعر أحد بك .. وأحب أن يكون ذلك خارج القلعة .. وستصبح عند ذلك من طبقة المستنيرين » ثم ادنى شفتيه من أذنه وقال له : « ومع الرجل امرأة بارعة فى الجمال ستكون غنيمة لك مع سائر ما يمتلكه من أثاث وغيره ، ويمكنك الاعتماد على صديقك ولدنا عبد الرحيم فى بعض التفصيل . وهـذا يكفى ، امض الآن الى نائبنا الشيخ دبوس .. وهو يتم اعدادك بما يلزم » قال ذلك وترك أنامله .. فودعه وخرج وهو يرتجف من عظم التأثر ، وأخذ يفكر فيمن عســاه أن يكون سليمان هذا . ولم يهمه أن تكون امرأته جميلة ، وهو لا يرضى عن سيدة الملك بديلا

سار توا الى الشيخ دبوس ، ولم يكن فى حاجة الى زيادة فى التوضيح .. فقد كان على بيِّنة مما طلب منه .. فعند دخوله عليه قال له : « ادخل ياعبد الجبار .. واغلق الباب »

فدخل ونهض الشـيـخ دبوس بنفســه فأعطاه ملابس الخدم وأصلح شعره وقيافته بحيث تغيَّر شكله كثيرا ، ودفع اليه كتابا وقال له : « تأخذ هـذا الكتاب الى ذلك المنزل ، وتكون خادما لصاحبه كما أمرك مولانا الشيخ الأكبر .. هل فهمت ؟ »

فأشار مطيعا .. وخرج وهو كالخادم تماما ، وقبل خروجه نظر الى وجهه فى المرآة .. فأنكر نفسه ، وفى يده بطاقة الشيخ دبوس الى سليمان ، وهو يتردد فى ذهابه ويقول فى نفسه : «كيف أقتل هذا الرجل ولا ثأر بينى وبينه ؟ » فخطر له قول عبد الرحيم انه سيجد فى قتله راحة فوقع فى حيرة

وما لبث أن وصل الى المنزل الذى ذكروه له فوجد البـاب مغلقا ، فأخذ فى البحث عن الشيخ سليمان فى ذلك الجوار ، فلم يقف له على خبر . فجلس على صخر فى ظل البيت ينتظر قدومه ، لعله ذهب فى حاجة لا يلبث أن يعود منها . واستغرق فى هواجسه وتفقد الخنجر الذى خبأه تحت أثوابه مترقبا سنوح الفرصة .. لكنه ظل يتردد فى أمر القتل

وبينما هو فى ذلك ، اذ رأى رجلا قادما عن بعد وعلى رأسه عمامة خضراء اللون كبيرة الحجم ، وقد أرسل شعره تحتها حول رأسه الى كتفيه ، وتزمل بجبة طويلة وعلق فى صـدره مسبحة طويلة ، وحمل مسبحة أخرى بيده يحصى حباتها ويتمتم .. كأنه يصلى أو يدعو ، كما يفعل المنقطعون عن العالم الى الصلـوات والدعوات ، فتحقق انه الشيخ سليمان لا محالة .. فجعل يراقب حركاته وهو قادم حتى دنا منه ، فتقدم اليه وهمَّ بتقبيل يديه ودفع اليه بطاقة الشيخ دبوس ، فتناولها وفضَّها وقرأها وهو لم ينظر الى عماد الدين بعد . فلما أتم قراءتها رفع بصره اليه وقال :

« يقول أخونا الشيخ دبوس ان مولانا الشيخ الأكبر أرسلك لخدمتنا »

قال عماد الدين : « نعم ياسيدى ، وهل يتم لى هذا الحظ ؟ »

قال سليمان : « كنت فى غنى عن الخدم لأنى أحب الخلوة بنفسى للصلاة والدعاء .. وطعامنا يأتينا من مطبخ الجماعة ، فما هى الحاجة الى الخدم ؟ »

وكان عماد الدين يسمع قوله وهو يتفرس فى سحنته كأنه رأى ذلك الوجه وسمع ذلك الصوت من قبل . فلما فرغ الشيخ سليمان من قوله أجابه عماد الدين : « قد أمرنى الأستاذ الأكبر أن أقف بباب مولاى أخدمه فيما يحتاج اليه .. فان كان فى شاغل بالصلاة أو غيرها فلا شأن لى به ، وانما ألبّى أمره اذا أمرنى فأجلب له الطعام أو ما يحتاج اليه من الأمور »

قال سليمان : « حسنا .. ما اسمك ؟ »

قال عماد الدين : « عبد الجبار »

قال الشيخ سليمان : « طيب .. اجلس هنا ، وانى شاكر لأخينا الشيخ على فضله . وعلى كل حال لا حاجة لى بك فى الليل ، فاذا غابت الشمس فانصرف الى مكانك » ومشى نحو الباب وتناول المفتاح ليفتحه ، وعماد الدين يراقب حركاته ، ويبحث فى ذاكرته عما يعرفه عن ذلك الرجل وأين رآه فى دمشق أو القدس أو مصر ، فلم يخطر له شخص يعرفه بهذا الاسم

دخل الشيخ سليمان المنزل ، وظل عماد الدين جالسا على حجر وقد شغل خاطره بأمر هذا الرجل . ولم يتذكر أين رآه ، فظن نفسه واهما فى تصوره .. فصرف فكره عنه وعاد الى التفكير فى صلاح الدين والخروج من ذلك الحصن ليخبره بما علمه ويرى سيدة الملك ..

وكانت الشمس قد مالت الى الغروب فذهب ليأتيه بالعشاء ، وكانوا قد أعدوه له فى أطباق ، فحملها فوق رأسه حتى بلغ الباب وقرعه ، وطال انتظاره قبل أن يفتحه له .. وحينما فتحه تناول الطعام منه وأدخله بيده ودفع اليه دينارا وقال له : « قد جاء الغروب فانصرف وشأنك يا عبد الجبار »

فتناول الدينار وأظهر الامتنان وانصرف ، وهو يفكر فى أمر هذا الرجل وحرصه الشديد على منزله حتى انه لا يأذن لخادمه بالدخول اليه . وبينما هو فى الطريق اذ لقيه عبد الرحيم فسلّم عليه وسأله عما جرى .. فأخبره بما شاهده وما أدهشه من حال الشيخ سليمان فضحك عبد الرحيم وقال : « لم يسمح لك بالدخول لا بأس .. ألم تتذكر أنك تعرفه من قبل ؟ »

قال عماد الدين : « تصورت لأول وهلة انى رأيت ذلك الوجه ، أو على الأقل سمعت ذلك الصوت .. لكننى غيرت فكرى لأنى وجدت نفسى واهما »

فقال وهو يحك عثنونه ويخفى ضحكه : « قد تكون واهما

وستبدو لك الحقيقة بعد قليل .. لكن كيف أشار بانصرافك الآن ، وهو قد يحتاج اليك فى الليل ؟ »

قال عماد الدين : « لا أدرى .. ويظهر لى انه يكتم أشياء لا يحب أن أطّلع عليها .. أظنك عرفت عنه شيئا لم تقصّه علىّ »

قال عبد الرحيم : « عرفت عنه أشياء كثيرة لا أستطيع أن أبوح بها كما تعلم ، لكننى أستطيع أن أقول لك بأنه من أصحاب المطامع السياسية وهى التى ستجر اليه حتفه ، ويظهر لى انه أراد أن يشارك شيخنا فى سلطانه ، أو أنه طلب منه أمورا لا يوافقه عليها .. وهو يعرفه منذ صغره .. لذلك خشى اذا أغضبه أن يشيع عنه أمورا تقلّل من هيبته ، فأحب أن يتخلص منه .. هذا هو الذى لاحظته الى الآن ، وسترى الحقيقة وأنت أولى منى بكشفها »

فقال عماد الدين : « هذا أول يوم رأيته فيه ، وقد صرفنى ساعة الغروب .. وسأعود اليه فى صباح الغد »

قال عبد الرحيم : « هب انه صرفك فيمكنك أن تبقى قريبا من منزله ، لعله يحتاج اليك ، أو لعلك ترى فرصة مناسبة للقيام بمهمتك .. »

- ٦٣ -

فى الطريق

وكانا ماشيين ، وقد أخذت الظلال تتكاثف ، وأوشك الظلام أن يسدل نقابه . فقال عماد الدين : « الى أين نحن ذاهبان الآن ؟ »

قال عبد الرحيم : « الى حيث تشاء .. »

قال عماد الدين : « أحب أن أحادثك فى بعض الأمور »

قال عبد الرحيم : « تعال الى غرفتى .. انها على مقربة من هذا المكان » ومشى حتى دخل الغرفة ، وفيها مصباح ضعيف ، أضاءه له بعض الخدم . فقال عماد الدين : « أحب أن نكون فى خلوة »

فأومأ عبد الرحيم الى خادمه بالانصراف ، وجلس وأشار الى صديقه أن يجلس ، فجلس وهو يتنهد . فقال له عبد الرحيم : « مالك ياصاحبى .. لماذا تتنهد ؟ »

قال عماد الدين : « أتنهد يا أخى لأنى أشعر كأنى فى قفص لا أرى لى منه مخرجا ، وقد أطعتك فى كل شىء كما رأيت .. ولا يمكننى أن أنكر صدق نصيحتك لى كل مرة . لكنك تعلم أيضا انى لا أستطيع البقاء هنا طويلا ولى فى مصر أناس ينتظرون رجوعى .. و .. » وسكت

فأدرك عبد الرحيم ما يعنيه ، فقال : « أتريد أن تخرج من هذا الحصن ؟ »

قال عماد الدين : « نعم .. أريد ذلك . أرجو أن تساعدنى عليه »

قال عبد الرحيم : « وعدتك انى فاعل ما تريد ولكل أجل كتاب .. انى مدبر طريقة لخروجنا جميعا »

ففرح عماد الدين بهذه البشرى وقال : « وأنت أيضا عازم على الخروج ؟ »

قال عبد الرحيم : « نعم .. وربما اتفق خروجنا معا »

قال عماد الدين : « هذا هو الأفضل .. وقد اطمأن بالى الآن .. وان كنت لا أعرف سبب رغبتك فى الخروج بعد أن صرت من خاصة الاسماعيلية واطّلعت على أسرارها .. »

فأشار اليه بسبّابته على فمه أن يسكت وقال : «سوف تتكلم عن ذلك فى فرصة أخرى . أما من حيث رغبتك فى الخروج فتدبيره علىّ حين تفرغ من مهمتك . تعال الىّ فتجدنى هنا فى أكثر الأوقات ، وانما يطلب منك أن تسهر على تحقيق مهمتك المعروفة »

قال عماد الدين : « حسنا .. انى ذاهب كما قلت . .» وأشار الى خصره وقال : « وهذا هو الخنجر الذى سأغمده فى صدر الشيخ لغير ذنب له عندى » ثم استأنف الكلام قائلا : « ولكن

الشيخ راشد قال لى ان للرجل زوجة ستكون غنيمة لى .. فهل هى معه فى هذا المنزل ؟.. وقد أوعز الىَّ الشيخ أن أعول عليك فى بعض التفاصيل .. فما هو رأيك ؟ »

قال عبد الرحيم : « رأيى أن تفتك بهذا الضيف فى أول فرصة. أما امرأته التى أشار اليها شيخنا فليست هنا . وانما هى فى منزل خارج الحصن بجوار القرية القريبة منه مع سائر أهله وخدمه »

قال عماد الدين : « وسمعت من شيخنا أنه يفضل أن أقتله خارج الحصن .. فهل هو يذهب الى هناك ؟ »

قال عبد الرحيم : « قد أذن له بالذهاب متى شاء وهو يذهب كل ليلة تقريبا .. فالأفضل أن تغتنم فرصة وجوده خارجا وتقضى عليه ، ومتى قتلته أصبحت امرأته وسائر ما يملكه حلالا لك »

فقال عماد الدين : « اسمح لى أن أستشيرك فى أمر آخر .. ما رأيك اذا قضيت مهمتى هذه ، وأنا خارج هذا الحصن ، ثم أبقى خارجا وأنصرف فى طريقى »

قال عبد الرحيم : « نعم الرأى هو .. وأنا أتبعك على عجل »

فقال عماد الدين : « وكيف تعلم أنى فرغت من مهمتى ؟ .. »

قال عبد الرحيم : « متى صرت فى آخر هذا السهل أوقد مشعلا مزدوجا .. وحين أرى المشعل من هنا أخرج اليك ونذهب معا »

فانبسطت نفس عماد الدين لهذا الرأى وهمَّ بالانصراف فأمسكه عبد الرحيم وجذبه اليه وقال : « احذر أن تحدثك نفسك

وأنت خارج الحصن أن تفر بدون أن تقتل الشيخ سليمان .. اذ يجب أن تقتله ولو لم تستطع الفرار .. اسمع نصحى هذه المرة أيضا .. »

قال عماد الدين : « حسنا .. سأفعل ما تقول .. ولكن هل أستطيع الخروج من باب الحصن بلا اذن ؟.. »

فقال عبد الرحيم : « اذا داهمك الوقت قبل أن أستأذن لك ، يكفى أن تقول للبواب شعار الخروج فيفتح لك الباب »

قال عماد الدين : « وما هو ذلك الشعار ؟ »

قال عبد الرحيم : « قل له : حسن بن الصباح فى لاموت ، فيطلق سراحك »

قال عماد الدين : « بارك الله فيك .. قد انشرح صدرى الآن وسأذكر لك هذا الفضل فى جملة أفضالك » قال ذلك ومشى نحو منزل الشيخ سليمان وقد اشتد الظلام . فلما دنا من المنزل رأى ذلك الشيخ خارجا منه وبيده مصباح

فتقدم كأنه رآه مصادفة ، وحيّاه وأكبّ على يده يقبّلها وقال : « كيف تحمل المصباح بيدك وأنا خادمك ؟ .. لقد أمرنى مولانا الشيخ بخدمتك » قال ذلك وتناول المصباح منه ومشى بين يديه حتى دنا من الباب ففتحوه له .. فأحب الشيخ أن يسترد المصباح منه ، فأبى أن يعطيه اياه بحجة عدم الاثقال عليه ، وقال : « اذا

علم مولانا الشيخ الأكبر انى لم أقم بحق خدمتك غضب علىَّ وعنَّفنى »

فأطاعه ومشى ولم يعترضه أحد لأنه أسرَّ بالشعار الى البواب .. مشى بين يدى الشيخ والطريق أكثره منحدر حتى اذا فرغ من الانحدار وقف الشيخ وقال : « بارك الله فيك هات المصباح .. اننى على مقربة من منزلى »

قال عماد الدين : « انى أسير بين يديك الى باب المنزل .. »

قال الشيخ سليمان : «لا حاجة الى تعبك .. هذا هو المنزل» وأشار بأصبعه الى نور ضعيف لا يظهر سواه فى ذلك السهل

فقال عماد الدين : « بل أسير معك حسب أمر مولاى »

فوقف الشيخ ومد يده ليتناول المصباح منه ، فامتنع عماد الدين عن أن يناوله اياه .. فغضب الشيخ وقال فى عنف : « هات المصباح ياغلام .. وانصرف لسبيلك .. »

فقال عماد الدين : « هل هذا جزاء من يريد القيام بخدمتك ؟»

قال ذلك واستل خنجره ، وأغمده فى قلبه .. فوضع الشيخ كفه على موقع الضربة وصاح : « آه .. قتلتنى يا لعين .. ويلاه آه .. ماذا فعلت معك ؟ .. »

فهمَّ عماد الدين أن يثنى الضربة فأمسكه بيده الأخرى وهى ترتعد وقال : « هذه الطعنة تكفى لقتلى .. فأغمد الثانية بصدر تلك .. الخائنة .. أنظر .. انى مسامحك على قتلى .. لأنى أستحق

القتل .. ولكن هناك امرأة .. هناك .. فى هذا المنزل حيث ترى .. النور .. امرأة .. أحق بالقتل منى .. بالله ألا ذهبت اليها .. وقتلتها وخذ ما فى جيبى من النقود والجواهر مكافأة لك .. » قال ذلك وسقط وعماد الدين يدهش لقوله .. فاكب عليه وفتش جيبه فوجد فيه أوراقا ونقودا وجواهر أخرجها وتركه يتخبط فى دمه مشى وهو يفكر فى هل يذهب الى ذلك المنزل أم يسير توا الى مصر ومعه النقود .. فترجح لديه أن يذهب الى مصر مخافة أن يكون فى ذهابه الى المنزل ما يعيقه عن المسير ، أو ربما بعث راشد الدين فى استقدامه ليعود الى الحصن . وقد كان فى عزمه أن يفر قبل قتل الرجل لو لم يلح عليه عبد الرحيم فى قتله فأطاعه ، وهو لا يعلم السبب ، لكنه رأى فى طاعته خيرا

— ٦٤ —

المنزل

فلما رجع الفرار وقف يفكر فى الطريق المؤدى الى مصر، وقد اشتد الظلام وهو لايميز الطرق ولا يعرف الجهات . وتذكر وصية القتيل وغرابتها .. واستدل منها انه ناقم على امرأة يريد قتلها . فرأى أن يذهب الى المنزل ، ويستدل من هناك على الطريق .. فمسح خنجره وأغمده ، وأصلح من شأنه وأطفأ المصباح حتى لايراه أحد ، ومشى نحو النور .. وحينما اقترب من المنزل ، جعل

خطاه خفيفة كأنه يتلمس الطـريق .. وأصغى بسمعه ، وتطاول بعنقه .. وخطا خطوات قليلة حتى أوشك أن يدق الباب ، فسمع وجلا يخاطب رفيقا له فى ذلك البيت قائلا : « ألم تر مصباح الشيخ ؟ »

فأجابه الآخر : « رأيت منذ برهة مصـباحا على بعد يشبه مصباحه »

قال : « بل هو هو بعينه ثم انطفأ .. ماذا جرى له يا ترى ؟ »

قال : « لا تخف عليه .. انه طويل العمر .. »

قال : « أراك تحسده على حياته وهو من أشقى خلق الله ..»

قال : « صدقت .. لم أر أشقى حياة منه .. »

فقطع الآخر كلامه قائلا : « بل أشقى منه هذه المسكينة التى لا يبرح يعذبها ويضربها و .. »

فقال : « صدقت .. مسكينة .. ان قلبى يتقطع عليها أحيانا . وكم حدثتنى نفسى أن أنتصر لها .. »

فقال ذاك : « مالنا ولها .. انما نحن نهتم بمصلحتنا ، فاذا وفى لنا بما وعدنا به .. حصلنـا على السـعادة الحقيقية .. أليس كذلك ؟ اذ نصير من كبار الأمراء .. »

فقال الآخر : « هل تعتقد أن كل ما يقوله الشيخ صحيح ؟»

فقال : « اذا لم يصح الا بعضه فاننا نكون سعداء .. يظهر انك لم تفهم حقيقة مهمته عند شيخ الاسماعيلية .. »

قال : « فهمتها .. كيف لا ؟ »

قال : « لا .. لم تفهمها كما هى .. اعلم ان مولانا الشيخ هذا كان صديقا للشيخ راشد الدين سنان رئيس الاسماعيلية الآن قبل أن يصير رئيســا ، وقد أعانه وارتكب معه أمورا كثيرة حتى تمكن راشد الدين من هذه الرئاسة .. فحسده صاحبنا ، فأراد أن يعمل عملا يتفوق به على صاحبه ، فذهب الى مصر وطمع فى الخلافة »

فضحك الآخر ، وقال : « طمع فى الخلافة ؟ »

قال : « نعم .. طمع أن يكون خليفة وسمى نفسه أبا الحسن وادعى النسب الفاطمى وصــدقه النــاس . ولما مات خليفة مصر العاضد بايعه جماعة من المصريين . ثم انكشف أمره لصلاح الدين وقبض على رفاقه ونجا هو بنفسه وجاء الى الشام .. وأنت تعلم ما جرى بعد ذلك .. وكيف كلف بعض الفــدائيين الذين يقتلون القتيل بدرهمين ، فاختطفوا له هذه المرأة من بيتها وهى تكرهه ولا تطيق أن تراه .. »

فقطع الآخر كلامه وقال همسا : « احذر أن تذكر الفدائيين بسوء .. فانتا فى دارهم ، وأما هذه المرأة فأنت لا تعرف من هى : مسكينة ، كم قاست منــه .. قبحه الله .. لا أظن أن ثمة سبيلا لنجاتها الا بموته .. »

فضحك ذاك ، وقال : « انه طويل العمر .. لا خوف عليه ..

لاسيما اذا نجح فى مهمته عند راشد الدين ، والحق يقال انه يحب هذه المرأة ، ويعدها بكل خير اذا أحبته .. لكنها لا تحبه ولذلك فانه يضربها »

ففهم عماد الدين من هذا الحديث انه قتل أبا الحسن ، لكنه لم يكن يعرف علاقته بسيدة الملك ، وانما يعرف انه من المناوئين لصلاح الدين ، وانه نجا من القتل .. فرقص قلبه فرحا لأنه سيذهب الى صلاح الدين بخبرين مهمين : الأول ، ذهاب الخطر عن حياته من راشد الدين ، والثانى انه نجا من أبى الحسن . لكنه سمع فى أثناء الحديث انه يعذب امرأته حتى أشفق عليها الخدم . وتذكر أن أبا الحسن أمره بقتلها وأجازه عليها سلفا . وكان عماد الدين قد أصبح بعد تعلقه بسيدة الملك يشفق على كل أنثى لأجلها . فأحس بميل الى انقاذ هذه المسكينة . ورأى الخدم يشعرون بظلامتها فتقدم الى الباب وطرقه فأجفل الرجلان ، وصاح أحدهما : « من الطارق ؟ » وقال لرفيقه : « لعله مولانا الشيخ سليمان .. ألم أقل لك انى رأيت مصباحه .. »

فقال عماد الدين : « انى رسول من الشيخ سليمان .. »

ففتح أحدهما الباب ودخل الآخر ، فأتى بالنور وأدناه من وجه عماد الدين فرآياه ورآهما فلم يذكر أنه يعرف أحدهما .. لكنه عرف من ملابسهما أنهما من أهل دمشق ، وكان قد لاحظ ذلك من لغتهما .. وكلاهما فى حدود الكهولة ، فتقدم أحدهما وقال

لعماد الدين : « ماذا تريد ؟ »

قال : « بعثنى الشيخ سليمان فى مهمة ، ومعى هذا المصباح للتدليل على صدق الرسالة ، فانطفأ فى أثناء الطريق »

قال : « صدقت .. وما الذى تريده ؟ »

قال : « أمرنى أن آتيه بامرأته على بغلتها ، وهو فى انتظارها بباب الحصن »

فالتفت الرجلان أحدهما الى الآخر لفتة الاستغراب ولسان حالهما يقول : « كيف يبعث الرجل فى طلب امرأته على بغلتها الى الحصن ، وما الذى يريده منها هناك ؟ » فقال أحدهما : « وهل يطلب امرأته وحدها ؟ »

قال : « يطلبها مع ما تريد حمله من متاعها وثيابها »

قال : « علينا أن نبلغها الرسالة » ودخل الرجل والنور بيده وظل أنين وتأوه وصوت ضعيف يقول : « ويلك من الله ياخائن. ألا تخاف العقاب يوم الدين ؟ أين أنت ياموت .. متى تأتى ساعتى وأتخلص من هذه الحياة .. آه .. ما بالهم يتآمرون علىَّ ؟.. »

ولما سمع عماد الدين ذلك الصوت ، اقشعر بدنه لأنه كثير الشبه بصوت سيدة الملك .. وحدثته نفسه أن يتقدم ليراها ، ولكنه صبر ليسمع ما يدور بينهـا وبين الخادم . فاذا هو يقول لها : « ان سيدى الشيخ بعث يطلب مولاتى اليه فى هذا الحصن »

فصاحت فيه : « الى أين ؟ من هو سيدك هـذا ؟ ما بالكم

تزعجوننى بالأسئلة ؟ .. دعونى أنام لحظة أنسى فيها مصائبى .. »

قال : « لا تغضبى ياسيدتى .. ان مولاى بعث رسولا خاصا من خدمة الشيخ راشد الدين لكى يحملك اليه بما تريدين حمله من متاعك وثيابك و .. » .

فقالت : « لا .. لا أذهب اليه الا محمولة على خشبة .. دعونى منه .. لعنة الله عليه .. ويا ويله من الله .. ومن يوم الدين .. آه .. آه .. حملنى الى بلاد ليس فيها من يعرفنى ولم يشفق على قلبى.. آه .. كل بلائى من هذا القلب .. »

وأصبح عماد الدين يرتعد من عظم التأثر لأن الصوت صـوت سيدة الملك .. ولو كان يعلم بما بينها وبينه لم يشك انها هى ، لكنه استبعد وصولها الى هناك وهى فى رعاية صلاح الدين . وانما ارتعد انتصارا لامرأة مظلومة اكراما لحبيبته لأنها من جنسها، وزادت نقمته لأن صوتها يشبه صوتها .. ثم سمع الرجل يخاطبها قائلا : « والآن ياسيدتى ماذا تريدين أن نفعل ؟ .. لابد لنا من أخذك اليه حسب أمره ، وهذا رسوله واقف بالباب .. وهل فى الامكان رد طلبه ..؟ فالأوفق أن تنهضى راضية .. »

فلما سمعت تهديده ، صاحت صيحة وقف لها شعر عماد الدين قائلة : « أتهددوننى بالأخذ قهرا ؟ .. هل يريد هذا الشقى أن يحملنى على أيدى اللصوص كما فعل قبل الآن ؟ .. » ثم خفضت صوتها وغصت بدموعها وقالت : « ولكن الله بعث الىّ فى تلك

المرة ملاكا شجاعا أنقذنى من مخالب الموت وأنقذ شرفى وحياتى »
ثم تنهدت وقالت : « آه .. أين أنت يا عماد الدين ؟ .. »

فلما سمع عماد الدين نداءها ، لم يتمالك عن الوثوب كالأسد الكاسر .. وقد تحقق أن تلك المظلوحة حبيبته سيدة الملك وأجابها : « لبيك .. لبيك .. ياسيدتى .. »

وما لبثت أن سمعت صوته حتى رأته بين يديها وقد أزاح الخادم بيده ، وتقدم نحوها وهو يقول : « مولاتى سيدة الملك .. انت هنا فى هذا العذاب ؟ »

فشخصت اليه شخوص الأبله ، كأنها أصيبت بجنة وقد جمدت عيناها وعقد لسانها ولم تعد تستطيع النطق ، لكنها تماسكت وتوهمت نفسها فى حلم .. فقالت وصوتها يتقطع وهو مختنق : « عماد الدين ؟ .. عماد الدين ؟ .. آه .. يا ليت ذلك كان فى يقظة .. » وغطت وجهها بكفيها وأخذت فى البكاء

فتقدم عماد الدين نحوها ، وقد تقطع قلبه لرؤيتها من شدة الضعف .. ولو شاهدها بدون أن تناديه ماعرفها .. فأمسك بيدها وقال : « انت فى يقظة ياسيدتى .. أنا عماد الدين .. أنت فى يقظة .. روحى فداك لا تخافى .. »

- ٦٥ -

الحقيقة

فلما سمعت صوته فتحت عينيها والدمع يغشاهما ونظرت اليه وهو فى زى غير زيه .. لكنها عرفت صوته ، وتفرست فى وجهه وهى لا ترى شيئًا من أثر الدمع ، فمسحت عينيها بكمها فعرفت عينيه فصاحت : « عماد الدين .. أنت عماد الدين ؟ من أرسلك الىّ ؟ لا .. لا .. امست عماد الدين .. أنت خادم ذلك الخائن ، جئت لتأخذنى اليه .. بالله قل لى . هل أنت عماد الدين ؟ »

وضحكت كالأبله المعتوه وقالت : « أنت عماد الدين ؟.. ان المعجزات لا تتكرر .. نعم أتى عماد الدين لانقاذى فى مثل هذا الضيق ، فياليته يأتى الآن » ثم سكتت كأنها استعادت رشدها ، ومسحت عينيها ثانية ونظرت الى عماد الدين نظر متفرس وهو جاث بين يديها وعيناه شاخصتان فى عينيها وقلبه يتفطر . فما لبثت أن تحققت انها ترى عماد الدين ، فصاحت ملء فمهـا : « عماد الدين .. عماد الدين .. » وترامت عليه وقد أغمى عليها . فأنهضها وتراكض الخدم بالماء فرشها به وهو يمسح وجهها وعينيها بمنديله وسقاها جرعة من الماء ، فانتعشت وأعادت النظر الى عماد الدين وهى تضحك ضحك طفل استرجع شيئًا كان يبكى لفراقه

لكن تلك الضحكة أبكت عماد الدين ، وقد شق عليه أن يرى

تلك الملكة أخت الخليفة ، وقد ذهب ملكها وصارت أسيرة فى حيازة صلاح الدين .. ثم سيقت كرها مع ذلك الشيخ اللعين ، لكنه حالما تذكر أنه قتله سرى عنه وعاد الى تطمين سيدة الملك وقال : « صدقت .. انى ياسيدتى عبدك عماد الدين »

فصاحت : « ألا تزال تقول انك عبدى ؟ ! .. أنت سيدى وتاج رأسى . أنت منقذى من الموت والعار مرتين .. أنت روحى .. انت حياتى .. انت .. آه انت .. دعنى لقد خلعت العذار .. » وغطت عينيها خجلا

فانتبه عماد الدين لوجود ذينك الخادمين ، وكان قد عرف كرههما لأبى الحسن وشفقتهما على سيدة الملك فقال لكبيرهما : « ربما استغربتما ما رأيتماه فى هــذه الليلة ، وقد علمت انكما ناقمان على ذلك الشرير ، وان قلبكما مع هذه .. أليس كذلك ؟ » قال ذلك ومد يده الى جيبه وفيه نقود أبى الحسن .. فأعطاهما بغير حساب

فأعجبهما كرمه وأريحيته ، وأجابه أحدهما : « صدقت .. ويظهر أنك لست خادما كما ادعيت .. بل أنت أمير أرســلك الله لانقاذ هذه السيدة .. انهــا قطعت قلبينا ، وأوشــكنا أن نأخذ بيدها ونخلصها من ذلك الظالم »

فقال : « اذن أنتما مسروران بنجاتها ؟ »

قالا : « ونحن رهينا الاشارة فى أية خدمة تريدها منا ، ولو

كانت بقتل ذلك اللعين »

قالا : « لا حاجة الى قتله ، فقد كفانا الله شره فى هذه الليلة .. وهذه النقود التى كانت معه أعطيتكم بعضها وهذا البعض الآخر» ودفع اليهما دفعة أخرى

فزادهما دهشة ، فقال أحدهما : « قتلته ؟ .. لارحمه الله .. ».

وكانت سيدة الملك تنظر الى عماد الدين وهو يخاطب الرجلين نظر الاعجاب والحب ، وعيناها غائرتان من الضعف والهزال وقد امتقع لونها .. فلما سمعت الحديث عن قتل أبى الحسن ، أمسكت بيد عماد الدين واجتذبته نحوها ، وهى تقول : « قتلته ؟ »

قال عماد الدين : « نعم .. وكنت أتمنى لو أنى عرفته قبل قتله لأشبعه قتلا ، وأخبره وهو فى حشرجة الموت انى قتلته فى سبيل طاعتك انتقاما لفظاعته »

قالت سيدة الملك : « ولماذا قتلته ؟ .. وكيف ؟ »

قال عماد الدين : « فعلت ذلك بأمر رجل يظهر انه كان يعلم نقمتى عليه فألح علىَّ أن أقتله ، وقال انى سأحمد مغبة عملى وقد أصاب » .. ثم تذكر وصية أبى الحسن قبل موته وقال : « لعنة الله عليه .. لم أسمع برجل أعظم شرا منه ، أتعلمون ماذا قال لى ؟.. قال : انه يستحق الموت ودفع الىَّ هـذه النقود ، وقال : أطلب اليك أن تقتـل امرأتى التى فى منزلى لأنها أحق بالقتل منى .. أنظروا ماذا قال وهو فى آخر لحظـة من لحظـات

الحياة وقد أشرف على الآخرة .. انه يريد أن ينتقم من هذا الملاك ، ودفع أجرا على ذلك قد أخذتموه .. فأتم أولى به »

ثم التفت الى الرجلين وقال لهما : « هل تحبان البقاء معنا ؟ »

قالا : « نعم .. نحن فى خدمتكما كما تشاءان .. »

قال عماد الدين : « اذن تأهبا للمسير الساعة .. هيئا الأحمال ، ولنسافر الآن »

فأخذا فى الاستعداد ، وجلس عماد الدين بين يدى سيدة الملك يسألها عن سبب وصـــولها الى هناك .. فأخبرته ان ذلك اللعين احتال فى اختطافها على يد فدائى جعل نفسه خادما ، وراقبها حتى خرجت من القصر الى بعض البساتين ومعها حاضنتنا ياقوتة ، وقد كمن لها جماعة دسَّهم أبو الحسن فهجموا عليهما .. ودافعت ياقوتة دفاعا حسنا ، لكنهم ضربوها حتى سقطت لا تبدى حراكا .. وان أولئك الأشقياء حملوها وحدها وخرجوا بها وهى مكممة مغلولة الأيدى . وكان أبو الحسن فى انتظارهم فى ضـــواحى القاهرة ، وأخذ يعذبها انتقاما منها لأنها كانت سبب شـــقائه وفشله ، ثم انتقل بها الى الشام .. وهناك استخدم هذين الخصيَّين وغمرهما بالمال . ثم جاء بنا جميعا الى هذا الحصن ، فتركهما معى فى ذلك المنزل .. وذهب الى راشد الدين ليستعين به على الانتقام من صلاح الدين لعل بعض الفدائيين يقتله

هذه خلاصة ماقصته سيدة الملك على عماد الدين ، وهو جالس

بين يديها يصغى اليها بكل جوارحه . وهى لم يمر عليها يوم فى حياتها شعرت فيه بلذة الحياة مثل شعورها فى تلك الساعة مع انها فى برية مقفرة وقد أضناها الضعف .. ولكن الحب مصدر السعادة كما هو مصدر الشقاء ، ولولاه لكانت الحياة جامدة باردة لا لذة لها ولا معنى فيها

وقصّ عليها عماد الدين مهمته فى مصلحة صلاح الدين وما قاساه من العناء ، وكيف انتهت بالفوز وأصبح صلاح الدين فى مأمن من الفدائيين ، فلما سمعت اسم صلاح الدين أشرق وجهها وقالت : « بارك الله فى صلاح الدين انه نادر المثال »

فضحك وقال : « ألم أقل لك ذلك فى آخر ليلة رأيتك فيها ، وأنت ناقمة عليه ؟ »

قالت : « لم أكن أعرفه .. وعلى كل حال فانى أمتدح مروءته وعلو همته . وأما أنت فكنت تمتدحه فى مجال آخر .. وهو فى ذلك المجال لايزال حكمى عليه كما كان .. ولا سيما اذا قارنته بعماد الدين .. » وضحكت وكانت تتكلم وعيناها شاخصتان فيه تكاد تلتقمه بهما

ثم جاء الخادمان وقد أعدا الركائب وشدا الأحمال فركبوا جميعا وقد توسط الليل وأطل القمر من وراء جبل السماق . فتذكر عماد الدين صديقه عبد الرحيم وما أوصاه به ، فلما أمعن فى السهل أمر الرجلين أن يوقدا مشعالا مزدوجا ففعلا

وصار الركب وبغلة سيدة الملك بجانب فرس عماد الدين وهما يقصان ما حدث لهما فى تلك المدة الطويلة .. والمحب اذا غاب عن حبيبته ساعة عاد ومعه عدة حكايات يرويها ، وهو يرى فى ذلك لذة خاصة لا يشعر بها غير المحبين . والغريب ان المحب لا يصبر على كتمان شيء عن حبيبه ، كأنه يرى فى كتمانه خيانة أو كأن قلبيهما يطلبان المكاشفة فى كل شيء .. فكما يتشاكيان ويتعاتبان ، فهما أيضا يلذ لهما نقل ما فى قلب الواحد الى قلب الآخر من حب ، أو عتاب ، أو شكوى ، أو حديث

- ٦٦ -

الرحيل إلى مصر

وبينما هم فى ذلك ، وقد بعدوا عن جبل السماق .. اذ سمعوا وقع حوافر جواد وراءهم ، وكان عماد الدين لا يفتر يترقب سماع ذلك التماسا لمجيء صديقه عبد الرحيم ، وقد أصبح فى شوق لرؤيته ليستطلع منه ما لمح اليه به وهما فى الحصن

فلما سمع وقع حوافر الفرس ، تباطأ فى المسير ووقفت معه سيدة الملك .. فأشار اليها أن تظل فى طريقها والخادمان يتبعانها ، فمشت وتأخر هو لحظة فوجد صديقه عبد الرحيم يسوق فرسه كأن وراءه أناسا يطاردونه فناداه : « عبد الرحيم ؟ »

فأجابه : « عماد الدين ؟ »

قال عماد الدين : « ما وراءك ؟.. أراك مسرعا .. هل عليك بأس ؟ »

قال عبد الرحيم : « كلا .. لكننى خفت عليكم »

قال عماد الدين : « وما الذى جعلك تخاف علينا ؟ .. اننا فى أمان »

قال عبد الرحيم : « كنت فى أثرك ساعة طعنت ذلك اللعين الطعنة القاضية ، وانتظرت بعد ذلك وأنا أراقب حركاتك حتى علمت أنك دخلت منزله ، ثم طال انتظارى ولم أشاهد مصباحك فخفت أن تكون قد أصبت بسوء .. فركبت نحو المنزل من طريق آخر فلم أجد هناك أحدا ثم رأيت المصباح فهرعت اليك ، هل عليكم بأس ؟ »

قال عماد الدين : « لابأس علينا والحمد لله .. بل نحن فى خير وبركة »

قال عبد الرحيم : « هلا علمت من هو الشيخ سليمان الذى قتلته ؟ »

قال عماد الدين : « نعم علمت انه أبو الحسن صاحب ثورة القاهرة التى ذهبت بسببها الى مصر بتلك الرسـالة المباركة ، وجئتنى بذلك الجواب الشين .. وقد ظهر لى من الحاحك علىّ فى قتله ان فى الأمر سرا ، وقد ظهر الآن أنك أعنتنى على التخلص

من هذا الشرير ، وهذه بشرى سنزفها الى مولاى صلاح الدين ولك الفضل فيها »

قال عبد الرحيم : « وسنزف اليه بشرى أخرى بأن حياته فى مأمن من غائلة الاسماعيليين »

قال عماد الدين : « طبعا .. وسأزف اليه واليك بشرى هى فى نظرى أهم مما تقدم »

قال عبد الرحيم : « وما هى ؟.. »

قال عماد الدين : « لم تسألنى عن هؤلاء الرفاق من هم ؟ »

قال عبد الرحيم : « كنت عازما على سؤالك ، لكننى تنبأت انهم زوجة ذلك الشرير وخادماها .. وهى الآن زوجتك طبعا »

قال عماد الدين : « لا .. لا .. لم تكن زوجة له قط »

قال عبد الرحيم : « من هى ؟.. »

قال عماد الدين : « أتذكر الرسالة التى جئتنى بها من القاهرة والسيدة التى خاطبتك وذكرت لى اعجابك بلطفها وكمالها ؟ »

قال بدهشة : « سيدة الملك .. أخت الخليفة ؟ »

قال عماد الدين : « نعم .. سيدة الملك .. اختطفها هذا الخائن بواسطة أحوال الفدائيين أصحابنا ، وجاء بها الى هنا وأخذ يعذبها عذابا شديدا .. وقد استطعت أن أنقذها »

فقال عبد الرحيم : « هذه الراكبة على البغلة سيدة الملك ؟ »

قال عماد الدين : « نعم .. هل تريد أن تراها ؟ »

قال عبد الرحيم : « كيف لا ؟ .. ولكن تمهل قليلا ريثما نصل الى مكان ننزل فيه عند الفجر ، اذ لابد لها من الراحة »

قال عماد الدين : « هل أنت ذاهب معنا الى مصر ؟ »

قال عبد الرحيم : « اذا كنتم تقبلونني »

فأسرع فى الجواب بلهفة قائلا : « ان ذلك يكون من حسن طالعى . كم أحب أن تكون معى فنعيش سويا ، لعلّى أستطيع مكافأتك ، وسأخبر السلطان صلاح الدين بما كان من فضلك فى اتمام هذه المهمة وهى بشرى رابعة أزفها اليه . ولكن كيف تركت طائفة الاسماعيلية بعد أن صرت من كبار رجالها وصارت لك هـذه الدالة على رئيسـها العجيب الغريب . انى لا أنسى ما شاهدته من المدهشات فى هذين اليومين .. »

فتنهـد وقال : « لو لم أرتق الى درجة المستنيرين لم يخطر ببالى أن أعتزل هذه الطائفة .. ألم تفطن الى تغيرى بعد أن ارتقيت .. فلو بقيت فدائيا لظللت مشتاقا الى الارتقاء والاطلاع على الأسرار ، فلما اطلعت عليها رأيتنى كنت مخدوعا .. وندمت على انضمامى لهذه الطائفة »

فقال عمـاد الدين : « يا للعجب .. لماذا لم يفعل ذلك الذين ترقوا الى مثل هذه الدرجة قبلك ؟ .. »

قال عبد الرحيم : « لأنهم يرون فى بقائهم ما يسد مطامعهم من الملذات وأسباب الشهوات البدنيـة .. لايهمهم أن يتم لهم ذلك

بتضحية الشبان الشجعان الفدائيين أمثالك . أما أنا فلا أحب هذه الحياة بما فيها من الغدر »

فأطرق عماد الدين وتشاغل بتمشيط عرف فرسه بأنامله وهو يعجب بكمال ذلك الصديق . ثم قال : « ألا تزال تعتقد فى كرامة الشيخ راشد الدين ومعجزاته ؟ »

قال عبد الرحيم : « كنت أومن بها حتى ارتقيت وعرفت سرها فأنكرتها .. وفى الدنيا كثير من الظواهر المدهشة اذا عرفت سرها احتقرتها »

قال عماد الدين : « انى شديد الرغبة فى معرفة سر ما شاهدته من معجزات الرجل مثل اطلاعه على الأخبار قبل وصولها ، ومخاطبة الأموات والأحجار وسماع جوابها ، وناهيك بجنته التى يمشى حورها على سطح الماء ويخاطبن الأطيار وغير ذلك ، انها من المعجزات المدهشة »

قال عبد الرحيم : « صدقت .. انها مدهشة وكنت أود أن أكاشفك سرها لولا انى أقسمت على الاحتفاظ بها الأيمان المغلظة وأنت لا ترضى لى الحنث باليمين لأنى وان تركت الجمعية وتخليت عنها فلم أتخل عن شرفى وضميرى . لكننى أقول لك ان هذه المعجزات ليس فيها شىء من الخوارق التى ليست فى وسع البشر.. وهى ليست من قبيل الوحى الالهى أو المقدرة الخاصة كما كنا نظن . والآن قد دنونا من محطة فيها عين ماء وخان أعرف

صاحبه .. فأرى أن ننزل هنا ريثما نستريح ، ثم نستأنف المسير كما تشاءون »

فأسرع عماد الدين الى سيدة الملك وأخبرها برأى رفيقه عبد الرحيم ، فوافقت عليه وكان الفجر قد لاح فنزلوا .. وتقدم عماد الدين ومعه عبد الرحيم الى سيدة الملك ، فقدمه لها وأخبرها عن فضله فى نجاح مهمته .. فأثنت عليه كثيرا

- ٦٧ -

اللقـــاء

فلنتركهم جميعا ريثما يستريحون ، ولنعد الى القاهرة . فقـد طال سكوتنا عن أهلهـا .. تركناهم بعد صلب عمارة وأصحابه المتآمرين ، وخرج رسول عماد الدين « عبد الرحيم » بالكتاب والجواهر الى بيت المقدس . وقد اطمأن بال سيدة الملك وسرها انها خطرت ببال حبيبها ، وقد ذكرنا ما كان من نقمة أبى الحسن بعد فشله فى دمشق .. وانه أصبح لا يفكر الا فى الانتقام من سيدة الملك بأية وسيلة ، فأغرى بعض الاشقياء من الفدائيين على الاحتيال على اختطافها ، وذهب هو الى مصر .. فاغتنموا فرصة خروجها مع حاضنتها الى البساتين على مقربة من قصر صلاح الدين واختطفوها كما تقدم ، وسقطت ياقوتة وقد أغمى عليها ، ولم تفق

الا بعد ساعات . وكان اللصوص قد نجوا بغنيمتهم ، فأخبرت قراقوش بذلك فأطلع صلاح الدين عليه فغضب ، وأمر بالتفتيش عن سيدة الملك فى كل مكان . وبثّ الجواسيس فى الأطراف فلم يقفوا لها على خبر

فشق ذلك عليه كثيرا ، وزاد غضبه لانقطاع أخبار عماد الدين وندم على الاذن له فى الذهاب لأنه أحس بحقيقة منزلته بعد ما رآه من ثبـات عزمه على خدمته . وكان يود أن يعود ليزوجــه بسيدة الملك ويفرح به ، فكان غيابهما سببا فى تنغيص عيشه .. وكانت حروبه مع الصليبيين تشغل خاطره ، اذ كانت على أشدها فى ذلك العهد ، وكان قد أخذ يتهيأ لفتح بيت المقدس

وبينما هو فى ذلك .. جاءه قراقوش يقول : « ان رسول عماد الدين الذى جاءنا فى المرة الماضية أتى ومعه بشرى هامة » فأمر بادخاله ورحب به فوقف متأدبا فقال له : « ما وراءك ؟.. انك لا تأتينا الا بالبشائر الحسنة .. »

قال : « ان ذلك بتوفيق الله وبركة مولانا السلطان . أخبر مولاى أن عبده عماد الدين عاد من مهمته سالما ظافرا ، وكاد يود أن يحمل هذه البشرى بنفسه ، لكنه شغل بسيدة الملك فاستأذنته أن أحمل هذه البشرى اليكم قبل وصوله »

فصاح فيه صلاح الدين : « وسيدة الملك معه ؟ »

قال : « نعم يامولاى »

فالتفت الى بهاء الدين يلتمس مشاركته فى الدهشـة ، فقال بهاء الدين : « ان ذلك غريب .. هـذه المرة أيضا ، أنقذها من الخطر ؟.. أليس ذلك دليلا على انهما خلقا ليتزوجا ؟ »

قال صلاح الدين : « لاشك فى ذلك .. وهذا غاية ما أتمناه فابعث من يستقبلهما فى موكب يليق بمقامهما »

فأعد قراقوش موكبا حافلا ، استقبل القادمين فى الخانقاه بجوار القاهرة ، ومعه هودج لسيدة الملك . ولمـا دنا الموكب من قصر صلاح الدين حولوا الهودج الى قصر سيدة الملك ، وكانت ياقوتة قد علمت بقدومها فاستقبلتها وترامت على يديها تقبّلهما ، وشكرت الله على هـذه النعمة . ورأت الضعف لايزال ظاهرا على وجهها فأخذت تداعبها بذكر عماد الدين ، وانه لايلبث أن يصير زوجها ، فقالت لها : « هل رأيت يا ياقوتة ان هذا الشاب يستحق قلبى ؟.. انه أنقذنى من الموت والعار مرة أخرى » وقصّت عليها خبرها باختصار

أما عماد الدين فترجّل قبل الوصول الى قصر السلطان ومشى حتى دخل عليه وأكب على ركبته يقبّلها ويقول : « أشكر الله لأنه أرانى وجه مولاى السلطان فى خير » وتقدم اليه الوزراء والقواد وسلموا عليه وهم لايعرفون الغرض من مهمته ، ولكنهم جاروا السلطان فى اكرامه

ثم أمر الناس بخلوة لم يشهدها غير بهاء الدين وعماد الدين .

وسـأله عن نتيجة مهمته فقصَّ عليه ما جرى من أوله الى آخره فأعجب بهمتــه وما أظهره من الصبر وما لا قاه من المصـاعب والمشاكل ، وقد تغلب عليها جميعا . وكان أغرب ما سمعه قتله أبا الحسن وانقاذ سيدة الملك . فلما وصل الى هنا ابتسم السلطان وقال : « بارك الله فيك . هذه همة عالية .. رحم الله والدى انه كان صادق النظر بين الرجال ، توسم فيك مناقب كبار القواد .. وقد صدق ماتوسمه لأنك أتيت ما لم يستطعه سواك من رجالنا . فأنت الآن من كبار قوادنا ورجال خاصتنا »

والتفت الى بهاء الدين وقال : « يا بهاء الدين هذا هو الشاب الذى فـرّ من بين يديك من قصر النساء وشكوته الىّ . ألا تراه يستحق أن يكون زوجا لسيدة الملك ، وقد أنقذنا من أبى الحسن كما سمعت ؟ »

قال بهاء الدين : « انه أهل لكل تقدير .. ويكفى أن يكون مولانا نجم الدين قد توسم فيه ذلك .. »

قال صلاح الدين : « قد آن له أن يستريح من وعثاء السفر .. وأحب أن تحتفلوا بزواجه احتفالا يليق بالملوك وكبار القواد »

فأكب عماد الدين على يدى صـلاح الدين يقبّلهما ، فقبّل صلاح الدين رأسه ، ثم قال عماد الدين : « أستأذن مولاى فى كلمة عن صـديقى عبد الرحيم ، فقــد سمعت عن بلائه فى خدمتنا ،

وسيكون عونا لنا فى حروب الافرنج لأنه يعرف بيت المقدس بيتا بيتا و .. »

فلم يصبر صلاح الدين حتى يتم حديثه فقال : « انه أهل ليكون من خاصتنا ، وهذا بهاء الدين يعرف له قدره وينزله منزلته .. وأحب الآن أن أرى سيدة الملك وأهنئها بالسلامة »

فهرع بهاء الدين الى قصر النســاء يبشر سيدة الملك بزيارة السلطان .. فاستعدت لاستقباله ، فلما أقبل عليها حياها وقال : « قد أصبت لأنك فضلت عماد الدين علىّ ، فانه أنقذك من الموت مرتين وخلصنا من أشر الأعداء .. فهو جدير بك ، وسوف نعقد له عليك » فخجلت خجلا يمازجه الفرح والاعجاب وأطرقت حياء

ثم رفعت بصرها اليه وقالت : « لم أفضّل عمــاد الدين الا لمناقب تعجب السلطان صلاح الدين ، وقد رفعه بسببها فوق عامة الناس الى خاصتهم وجعله جليسه . وهب انى قلت بتفضيله من بعض الوجوه .. لكننى أنا وهو لانفضّل أحدا على صلاح الدين، ونحن فى رعايته وتحت ظله »

فأعجبه جوابها فقال : « كنت فى رعايتى ، ولكنك الآن فى رعاية البطل عماد الدين ، ويحق لك أن تفتخرى به كما يحق له الافتخار بك فاهنآ » قال ذلك وخرج وغادر سيدة الملك وقلبهــا يرقص فرحا وقد نسيت كل مصائبها الماضية . واحتفلت مصر بزفاف سيدة الملك الى عماد الدين احتفالها بزواج الملوك ..

روايات تاريخ الاسلام

سلسلة من الروايات التـاريخية تصور مراحل التاريخ الاسلامي منذ ظهور الاسلام .. روعي فيها عنصر التشويق مع التزام الحوادث التاريخية التزاما دقيقا من حيث الزمان والمكان والاشخاص مع وصف ما يتخللها من عادات وأخلاق ..وهذا بيانها حسب العصور التاريخية:

١ ـ فتاة غسان :

تشرح حال الاسلام منذ ظهوره حتى فتوح العراق والشام مع بسط عادات العرب وأخلاقهم في آخر جاهليتهم وأول اسلامهم

٢ ـ ارمانوسة المصرية :

تتضمن تفصيل فتح مصر على يد عمرو بن العاص مع بسط سائر أحوال العرب والاقباط والرومان في ذلك العصر

٣ ـ عذراء قريش :

تتضمن تفصيل مقتل الخليفة عثمان بن عفان وخلافة الامام علي ، وما نجم عن ذلك من الفتنة ، ووقعتي الجمل وصفين

٤ ـ ١٧ رمضان :

تفصل مقتل الامام علي وبسط حال الخوارج وقيام الفتنة واستئثار بني أمية بالخلافة وخروجها من أهل البيت

٥ ـ غادة كربلاء :

تتضمن ولاية يزيد بن معاوية وما جرى فيها من مقتل الامـام الحسين وأهل بيته في كربلاء ، ووقعة الحرة وغيرها

٦ ـ الحجاج بن يوسف :

تتناول حصار مكة على عهد عبد الله بن الزبير الى فتحها وخلوص الخلافة لعبد الملك بن مروان ، مع وصف مكة والمدينة

٧ ـ فتح الاندلس :

تتضمن تاريخ اسبانيا قبيل الفتح الاسلامي ووصف أحوالهـا وفتحها على يد طارق بن زياد ومقتل رودريك ملك القوط

٨ ـ شارل وعبد الرحمن :

تشرح فتوحات العرب في بلاد فرنسا وما كان من تكاتف الافرنج بقيادة شارل مارتل وأسباب فشل العرب في أوربا

٩ ـ ابو مسلم الخراساني :
تشتمل على سقوط الدولة الاموية وقيام الدولة العباسية الى مقتل أبي مسلم . وتخلل ذلك وصف عادات الخراسانيين

١٠ ـ العباسة اخت الرشيد :
تشتمل على نكبة البرامكة وما يتخلل ذلك من وصف مجـالس الخلفاء وملابسهم ومواكبهم ، وحضارة الدولة فى عصر الرشيد

١١ ـ الامين والمأمون :
تفصل الخلاف بين الامين والمأمون ، وقيام الفرس لنصرة المأمون حتى فتحوا بغداد ، ودخائل السياسة بين العرب والفرس

١٢ ـ عروس فرغانة :
تتضمن وصف الدولة العباسية فى عصر المعتصم بالله وقيـام الفرس لارجاع دولتهم ونهوض الروم لاكتساح المملكة الاسلامية

١٣ ـ احمد بن طولون :
فيها وصف جامع لمصر وبلاد النوبة وعلاقاتهما السياسـيـة فى أواسط القرن الثالث للهجرة على زمن أحمد بن طولون

١٤ ـ عبد الرحمن الناصر :
تشتمل على وصف بلاد الاندلس وحضارتها فى زمن الخليفـة عبد الرحمن الناصر الاموى وخروج ابنه عبد الله عليه

١٥ ـ فتاة القيروان :
تتضمن ظهور دولة العبيديين أو الفاطميين فى افريقية ومناقب المعزلدين‌الله وقائده جوهر ، وانتزاعه مصر من الدولة الاخشيدية

١٦ ـ صلاح الدين ومكايد الحشاشين :
تتضمن انتقال مصر من الفاطميين الى الايوبيين على يد السـلطان صلاح الدين ، مع وصف طائفة الاسماعيلية

١٧ ـ شجرة الدر :
تتضمن مبايعة شجرة الدر ، وسيرة الامـير ركن الدين بيبرس وحالة الخلافة العباسية وتنقلها وانتقالها من بغداد الى مصر

١٨ ـ الانقلاب العثماني :
تشرح أحوال الاحرار العثمانيين وما قاسوه فى طلب الدستور ، ووصف يلدز وقصورها وحدائقها وعبد الحميد وجواسيسه

طبع بمطابع دار الهلال